@ketab_n
Follow Me
4.6.2016

مايا هادرلاب

رواية

ملاك النسيان

دار المنى

مايا هادرلاب

ملاك النسيان

رواية

النص العربي: مدني قصري

دار المنى

Twitter: @ketab_n

ملاك النسيان

مايا هادرلاب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ISBN: 978-91-87333-33-0
© Arabic Edition Bokförlaget Dar-Al-Muna AB, 2015
Text © Maja Haderlap 2012
First published in German by Wallstein verlag under the title Engel des Vergessens
All rights for Arabic language are reserved
Printed at ScandBook AB, Sweden 2015

www.daralmuna.com

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بإشارةٍ من يدها تدعوني جدتي لأنْ أمشي في إثرِها.

فنذهبُ إلى خزانةِ الأطعمة، عبْر المطبخ الغارق في العتمة. دخانٌ طويلُ الأمدِ وقد التصقَ بسطح القبة، كأنه راتنج أسودُ اللونِ ملطّخ بموادَ دُهنية. ورائحةُ خنزيرية، وخبزٌ لم يبردْ بعد. وبخارٌ حامضٌ يطفو فوق الدِّلاءِ التي تكدّست فيها فضلاتُ الطعام المخصّص للخنازير. وأرضيةٌ من طينٍ مطروقةٍ طرقًا، تلمَعُ في الأماكن التي تطؤها الأقدامُ بلا انقطاعٍ، كأنّ أياديَ قد صقلتها صقلا ولمّعتها تلميعًا.

في خزانةِ الأطعمة تغرفُ جدتي من أحدِ الأواني قليلا من صُهارةِ الخنزير المجمّدِ وتنشرها في قدرٍ، ثم تغطس ملعقةً في مرَبَّى التفاح وتُخرج طبقةً من العفَن الأبيض، وتلقيه فوق الفضلات. أمّا العلاماتُ التي تُلصقها فوق الأوعية مع مزيج من الطحين والحليب واللعاب فقد حَملت كلمة «مالادا». ومالادا جدتي بُنيّةُ اللّون، داكنةٌ، ومذاقُها حُلوٌ مُرٌّ في آنٍ.

تضع جدتي بعضَ البيضاتِ في تنوريّ بعد أن أرفعَها إلى أعلى قليلا. وفي مجرَى الهواءِ تنفصلُ نُدَفٌ من السخامِ عبْر جدران المدخن وتستقرّ على أرغفة الخبز المصفوفةِ واقفةً على الرّفّ الخشبي. وبالقرب من المدخلِ تجتمع تحت فَمِ الفرن كومةٌ صغيرةٌ من الأرمِدة المكنُوسة.

تعمَل جدتي في المطبخ. وللأطباقِ التي تُعدّها نكهةُ مطبخِ الزنوج، ونكهةُ هذا الكهف المظلم الذي لا يضيئُه سوى نورٍ خافت. كهفٌ نَعْبُره مراتٍ عديدة كل يوم. أشعرُ أنّ كل شيءٍ صالحٍ للأكلِ هنا يكتسي رائحةَ المَدخن ولونه. لحمُ الخنزير المقدّد، ودقيقُ الحنطةِ وصُهارةُ الخنزير والمربَّى. وحتى البيضُ يفوح برائحة التراب، والدخان، والهواءِ المشْبَعِ بالحموضة.

Twitter: @ketab_n

عندما تنصرف جدتي إلى الطبخ، تراها تضع لكلِّ طبَقٍ خاصيةً من الخصائص. فلأطباقها قوةٌ خفيّة، فهي قادرة على ربْط دُنيانا هذه بالعالم الآخر، وعلى تضميد الجراحِ، ما ظهَر منها وما بطن. وفي مقدور أطباقها أن تُصيبكَ بالداء السقيم أيضًا.

أحتَسي قهوةَ الملّطِ من الرضّاعة التي تُخْفيها لي جدتي في الرفِّ السفليّ من خزانة المطبخ. «مهما كبرتِ على الرضّاعة فسأظل أُعدّها لكِ طالما سألتِ عنها»، تقول لي. وحتى لا يراني أحّد أتمدّدُ على مِقعدِ المطبخ المنجّدِ وأرضعُ القهوةَ فور إعدادِها. كبرتِ على الرضّاعةِ بكثيرٍ، تُردّد جدتي. فإنْ جاء أحدٌ ضَعي الرضّاعةَ على الأرض بلا تأخير.

تقول جدتي إنّ أمّي لا درايةَ لها بفنونِ الطبخ. فلا عِلم لها بكيفية طهْي الطعام، وكلُّ ما تعلّمَتْه من الراهبات في المدرسة لا يناسب عاداتِنا في البيت. وهي لا تعلم أيضًا أننا نُعدُّ أطباقًا للموتى، وأخرى للأحياءِ، وأنّ بالوسعِ أنّ نُعدّ أطباقًا خاصة، نعالِج بها أناسًا، أو نفقِد بها أناسًا، وتلك أشياءُ لا تؤمن بها أمي بتاتًا لكني أُصدّق ما تقوله جدتي، وبحميّةٍ وحماسة أديرُ ذراعَ التدوير عندما تُحمّصُ الشوفانَ لإعداد القهوة. أستمِع إليها حين تُحدّثني عن كل الذين كانت تُعدّ لهم الطعامَ في مطبخ المنزل في الأيامِ الخوالي، في زمنِ الخدَم والخادمات، وكثرةِ الأطفال. وتقول أيضًا إنها كانت تسرِق الغذاءَ لنفسِها، وتسرقه لغيرِها، وإنها كانت تتربّص أيَّ قُشارةٍ من قشارات البطاطا، وكلَّ شيءٍ تراه صالحًا للأكل، في تلك الأيام الخوالي، عندما كانت تَجْلي الأواني. أجل، كان من حُسن طالعِها، تقول جدتي، أن تجِد نفسَها هنالك، في المطابخ، في ذلك المعسكر. إني أعرف ذلك.

بعد جلْي الأطباقِ، تطرَح جدتي الأكوابَ الصغيرة المطلية بالمِينَا، والقدورَ، لتجِفّ على حافة النافذة. وفي الخارج تُفرِغُ الحوضَ الحديديَّ المليءَ بماء الشطف، فتصيرُ أصابعُها الطويلةُ أرجوانيةً بعد الجلي، فنخال كأن أصابِعَها صارت كمخالب

Twitter: @ketab_n

كاسرٍ من الكواسر. وكم من مرّة ربّتتْ بأصابعها تلك فوق رأسي. ثم تمسك بمِسْعَرِ النارِ وترفَعُ من على الفرن صفيحةً من الفولاذ في حجم طبَق الأكِل، ثم تُكَسّر رؤوسَ الجمْر لكيْ تبردَ على عجل.

حسبُها أن تَشرع في التحرّك حتى أتعقّب خطاها. فهي ملكةُ النحل عندي، وأنا ذَكَرُ النحل في خَليّتها. أتنفّس بملءِ أنفي عِطرَ ملابسِها، ورائحةَ الحليب والدخان، ورائحةَ لَمّةِ الأعشاب المرّة التي يحتفظ بها نسيجُ مئزرِها. فهي تقود الجولةَ وأنا من خلفها أرقصُ رقصًا خفيفًا. أنظّم خطواتي الصغيرةَ على وتيرةِ خطواتها الزاحفة، وأُدندنُ بلحنٍ حُلْوٍ أسئلةً يُردّدها خفيضُ صوتِها.

ندخل إلى الغرفة الكبيرة، ومن خلفِ باب الغرفة نُلقي نظرةً إلى آلة فصْل الحليب الطاردةِ. فأكثر من مرّة في الأسبوع نُدير هذه الآلةَ حتى نستخلصَ منها قشطةَ الحليب الطازجة. وفي الغرفة الصغيرة الواقعة في الخلف نفتَح النوافذ، ونُهوّي الأسِرّةَ التي ننام عليها، وننفضُ الفَرْشات المليئةَ بأوراق الذّرة الجافة، ونعود لنفحص باقاتِ الأعشاب على حافة النافذة، أو المعلّقة بها، ونصعد درجَ تخشيبةِ السقف الذي يبعث بعضَ الفزع في النفوسِ، ونُجيل البصرَ في السقيفةِ التي أَوَتْ إليها قبل سنواتٍ أشباحٌ فاقتربتْ من النائمين، وطردَتهم من غرفتهم الصغيرة، تقول جدتي.

بخطواتٍ راقصة تخرج جدتي وتذهب إلى الناحية المقابلة للمستودع، لكي تربط أغصانَ الملوخية بجذعِ شجرة الكتش. وبالقرب من كومة الدمال تتوسل إلى زهْر البَيْلسان أن ينموَ بسرعة. ثم تعود لتأخذني. ونَعبُر الساحةَ لنجلِب العلفَ في القبوِ السفلي ثم من عليّة البيت. ثم تفتح أكياسًا كبيرة، وأصونةً، وقِصاعًا، وتملأ منها جيوبَ مئزرها بالفاكهة الطرية والجافة، وتنشر القمحَ والذّرة للدجاج. أرى جبينَها مجعّدًا كسقفِ العليّة. وأراها تسير أمامي بخطىً حثيثةٍ نحو جدول الماءِ لكي تتفقّد حصائرَ الحظيرة الخشبية التي تُستعمَل في الخريف لتجفيف ثمار الكتش والكُمثرى.

مرّتان في الأسبوع أرافقُها في جولتها إلى سقيفة الأدوات وإلى عليّة البيت حيث

Twitter: @ketab_n

تتفقّد المبايض. فإنْ وجدتْ بعد أسبوع عشّاً فارغًا سعَت في البحث عن الطيرِ الذي تشتبِه في توانيه وخُمولِه. وتنتظر إلى أن يقترب الحيوانُ منها فتمسك به على حين غرة وتغْرز سبابةَ يدها ووُسْطاها في مؤخرة الدجاجة وهي تَقُوقُ قَوْقًا. فإنْ ظهَر توهُّجٌ أبيضُ اللونِ بين أصابعها علِمتْ أنّ القوقعة لا تزال ليّنة، وأنّ البيضة سوف تأتي في اليوم التالي، أو في اليوم الذي يليه.

لكمْ فرِحتُ ذات يوم حين رأيتُها تُخْرِج من إحدى الدجاجات بيضةً فتنسابُ في يدها انسيابًا، فضحكْتُ ولم أتمالكْ ضحِكي. إنه صغيرُ البيض، تقول جدتي. هذا الاسمُ، علّمني إياه جدي، عندما كان يرقد أثناء المرض على مقعد الموقد لكي يراقبني. كنتُ ما أزال رضيعةً رهيفةً في عامِيَ الأول، وقد اكتشفتُ البيضَ في الدرج السفلي لصوانِ السفرة في الغرفة، فكنتُ أُدحْرِجُ البيضاتِ على الأرض، الواحدة تلو الأخرى، ولا يكاد صفارُ البيض يخرج من القوقعة حتى أصرخَ سونسي غري، الشُمَيْسةُ تطلع! كان جدي يشاهدني وأنا أفعل هذا فيطرَبُ لي أيما طربٍ، ويتركني ألعبُ مع كلّ بيضِ القصعةِ. وقد منَع جدتي من أن تؤنبني، وتوسّل إليها فيما كانت ذات يوم تنظّف الأرضَ المغطاة بهذا البيضِ المخفوق، أن تُشفِق عليّ، وعليه أيضًا! لَكَمْ حاوَلتُ أن أسلّيَ جدي، لكنّ جدي فارق الحياةَ بعد وقتٍ لم يطلْ كثيراً.

لا تُحبّذ جدتي مساعدةً من أمي إلا عندما تدْعَك العجينة. فتنظرُ إليها وهي تضجُ الطحين. وفي العجّانة يُغَرْغِرُ الطحينُ ويُقَعْقِعُ، وتَسقُط حباتُ العرقِ من على جبين والدتي وتحطُّ في الخبز المنتظَر. ثم تنهض، وبساعدِها تمسح وجهَها العرِق، فأرى وجنتيها المحمرّتين، وأكمامَ قميصها المشمّرة. وألمحُ قميصَها اللصوقَ وقد ظهَر من رقبتِها. وتسأل أمي ما مقدارُ الشيلم والقمحِ والخميرةِ والماء. وكان يهمّها كثيراً أن تعرف كم يحتاج العجينُ من كيلوغرامات الطحين. وتقول جدتي أنّ ما من بدٍّ من صبِّ المزيد من الطحين إلى أن يُغطّي الأخاديدَ عند جدار العجّانة. وتميل أمي على العجينة مرّة أخرى. وعندما يبدأ العجينُ في الانفصال من بين أصابعها، ويكفُّ خشبُ العجانة عن الصرير، تدرك أنها أنهتْ مهمّتَها. وحينئذٍ ترسم جدتي

Twitter: @ketab_n

حزّةً في شكل الصليب فوق العجين، ثم تغطّيه وتتركه إلى حين اختماره. تغذي جدتي فمَ الفرن بعُقَدٍ صغيرة من العجينة الضاربة إلى اللون الرمادي، وبعد ساعتين يعيد الفرنُ أقراصَ الخبز الجاهزة. وبخرقةٍ من القماشِ تمسح جدتي الأرغفةَ الساخنة بعد سحبِها، ثم ترسم فوقها إشارةَ الصليب وتضع الخبزَ في مِئزري، فأحمِله لكي يبردَ في الغرفة الكبرى، أو أضعُه فوق الطاولة، أو فوق مقعدِ الموقد المنجّد الواسع. وفي الحال تملأ رائحةُ الخبزِ الطازج أرجاءَ المنزل كاملة. وتَذْرَعُ جدتي الغرفَ، كأنها تريد التأكدَ من أنّ أبخرةَ الخميرة العطِرة قد عمّتْ كلَّ الأركان والزوايا.

في المعسكر كان الخبزُ هو كلُّ ما يمكن أكلُه، وليس أكثرَ منه غذاءً، قالت جدتي وهي تشيرُ بالإبهام والسبابة إلى حجم قِطع الخبز الموزَّعةِ على السجناء. وكان هذا الخبزُ كافيًا ليومٍ واحدٍ، ولِيَومين اثنين أحيانًا. وبعد حينٍ لم نعدْ نملك الحقَّ حتى في هذا، تقول جدتي، ولذا صار الخبزُ يبدو سرابًا. ونظرتُ إليها فرأيتُها تستعمِل كلماتِها المألوفة، «أنا بيلو كودنو je bilo čudno . كان ذلك غريبًا، تقول، وهي تريد أن تقول إنّ الحالَ كان مرعبًا. بيد أنَ كلمة غروزنو grozno لم يجرِ بها لسانُها.

في جيوب مئزرِها فتاتُ الخبز ورُقاقاتُ خبزٍ قديمة. وعندما تعبُر الفناءَ نحو الإسطبل تُوزّع الخبزَ على البهائم. فإلى الدجاج تنثُر الفتاتَ في الهواءِ، وإلى الطيور والأبقار والخنازير تحشرُ تلك الرقاقات في أنوفها. علينا أن لا ننسى خبزَ البهائم، تقول جدتي، لأنّ الخبزَ الذي تُوزّعينه اليومَ سوف يعود إليكِ غدًا. في يوم الأموات تضع جدتي على الطاولة قرصًا من الخبز وقصعةً من الحليب للموتى. لكي يجدوا ما يأكلونه إنْ همُ جاؤوا أثناء الليل، ولكي يتركونا وشأننا، تقول جدتي. أتخيّلُ الأمواتَ وهم يأكلون بأياديهم غير المرئية، لكنْ في صباح اليوم التالي يبدو كلُّ شيءٍ على حاله. السكينُ في موضعه بجانب الرغيف، والحليبُ فوق الطاولة، كأنّ ما من نَفَسٍ لمَسَ شيئًا. وأتساءلُ إنْ همُ جاؤوا حقًّا. نعم، تجيب جدتي. فأُحدّث نفسي: إنها أدرى بالأمرِ مني. فهي التي أَلِفَتْ الموتَ، هذا الموت الذي كانت تراه في تلك الأيامِ، عندما كان الموتُ يتجلى كل يوم، وكل ساعة.

Twitter: @ketab_n

تعمل أمي خارج البيت. أراها أثناء وجبة الإفطار عبْر نافذة المطبخ وهي تنشط في الإسطبل. وأراها تحمِل على ظهرها سلةً من الصفصافِ، وتذهب جيئةً وذهابًا بين الإسطبل والمَتْبَنَة، وتنحَني، وقد أفرجَتْ ساقيها، على الدلاء المدخّنة. وتُعِدّ بيدَيها عصيدةَ الخنازير وتُخلطها بقِطع العلف المنخول. وإنْ تصادف ومرّتْ أمام المنزل وفي يدها أداةٌ من الأدوات أراها تقترب من نافذة المطبخ كعادتها لكي تقف على حَركاتي. فتقرع زجاجَ النافذة وتصرخ «أين «كوكيكتي»، أي دُجَيْجَتي. وأحيانًا تكتفي برمْش الجفون وتمرّ من غير أن تنبسَ بكلمة.

المآزر التي ترتديها أمي أخفُّ لونًا من لون المآزر التي تلبسها جدتي. ولكَم يحلو لأمي أن تغني وهي تعمل!

الجهةُ التي تأتيني منها أغانيها هي التي توجّهني إلى المكانِ الذي توجد فيه. فإنْ كانت رائقةَ المزاج نادتني بذات الأسماءِ الحنونة التي تنادي بها البهائمَ لترويضِها، فأقْبِلُ عليها، وأساعدُها في مهمةٍ من مهامِها، أو أجثم عليها. فتنسكب عليَّ سيلاً من الحنان الوثّاب، وتتملّكني كما تتملّكُ جدتي دجاجاتِها، وتجذبني إليها جذبًا قويًّا. وإنْ حاولتُ أن أفلِتَ منها دغدغتني وعضّتني عضًّا. وإنْ كانت كئيبةً أعرضتْ ولا تدعني أقترُب منها. إنّ لِحُزنِها قوةَ جذبٍ قوية على نفسي. ففي هذه اللحظات أتمنى أن أجولَ من فوقها، مثل قطةٍ تُغامر في شجرة، فأنظرُ في عينيها من عليائي، من أعلى الرأس، وألْعَقُ خدّيها، وأُلامِس أنفَها، أو أتشبّثُ بظهرِها إنْ هي هزّتْ جسمَها وحاولتْ أن تُسقطني. غير أنّ أمي لا تفهم الكثيرَ مما أريد وأنوي. وحسبي أن ألمَس وركَها حتى تدفعني كما تَدفع أمُّ بهيمةٍ مشاكسةٍ أبناءَها، وتسألني متى أنوي القيامَ بالمهمة التي أناطتني بها. فورًا، أقولُ، على أملِ أنْ تَسمَعني جدتي

Twitter: @ketab_n

فتسارع إلى القيام بكل شيءٍ نيابةً عني، وهو ما تفعله جدتي عن طيبِ خاطرٍ، حتى تُغيظَ والدتي.

أحيانًا أجد أمي تذرف الدمعَ وحيدةً في الغرفة. ففي تلك الأيام أراها جالسةً على السرير، وفي قدميها حذاؤُها المطاطي. لا يطيب لها أن أفاجئَها وهي في تلك الحالة، فتسألني: ما الذي تبحثين عنه، أنتِ، يا أنتِ ! فأخال أنّ يأسَها عظيمٌ جدًا، لأن حذاءَها ومئزرَها الملوّثَين يُفرقعان فوق الفرْش الفاتِح، المصنوع من الكتان المطرّز بالزهور، ذاك الذي بسطته على سرير زفافها.

في المساءاتِ ذات الأجواءِ الناعمةِ أراها جالسةً في المرْج خلف المنزل، تتطلّع إلى السماء، أو تتّكئ إلى الشرفة الخشبية على الواجهة الجنوبية في منزل القدماء، حيث لا يراها أحد. وذات يوم رأيتُها راكعةً عند المدخل أمام ثلاجةٍ تسلّمناها توًا. وفي المطبخ أخذتْ جدتي تحتجُّ، أنحن بحاجة إلى مثل هذه الآلة، فليس لها من قيمةٍ إلا ثمنُها. وتمسح أمي الثلاجةَ بقطعة من قماش بيضاء تغمسها في حوضٍ من الماء الساخن، ثم تعصرها. فاليومَ، تقول أمي في نبرةٍ لا تخلو من تحدٍّ، كلُّ البيوت يجب أن تكون فيها ثلاجات كهذه الثلاجة. لكنْ لا، تجيبُها جدتي. لأنّ جدتي لم تملك ثلاجةً يومًا في حياتها، وما من أحد في عهدها استخدم جهازًا كهذا.

ذات مساء علّقتْ أمي فوق سريري في غرفة النوم الصغيرة التي أتقاسمهما مع جدتي، بروازين صغيرين عليهما بضعُ ملائكة. فمنذ أن صار لي أخٌ صغيرٌ لم أعد أنام في غرفة نومِ والديّ في منزل القدماء. لقد انضممتُ إلى جدتي، ويروق لي هذا كثيراً. لأنّ جدتي هي عصا الطفولة التي أستند إليها. ثبّتتْ أمي في الجدار مِسمارَين صغيرين وعلّقت عليهما البروازين، وقالت إنها جاءتني بحارِسَين سوف يسهران عليّ ويرعياني. رأسٌ بحلقاتٍ ذَهبيةٍ مزوّدٌ بجناحين ينموان على ظهرِه، ومطلوبٌ منه أن يرعاني. لكنْ ظني أنه غيرُ حذرٍ، هذا الشابُ المنتعِل صندلاً مفتوحاً لا قيمة له، وهو يقود طفلين فوق جسر مُعلّق، من فوق سقفٍ تعْبره سلسلةٌ من الجبال. وتدعو

Twitter: @ketab_n

والدتي معي *sveti angel varuh moj, bodi vedno ti z menoj, stoj*
mi dan in noč on strani, vsega hudega me brani, amen
آمين. وتقول إن الملائكة ترى في نفوس البشر، وأنّ في وسعها أن تقرأ أفكارَهم مهْما أخفوها عنها.

أتأمل في ريبةٍ هذين الكائنَين السّمينَين المُمتلِئَين، لِظني أنّ أفكاري ليستْ معي حتى يرصدَها غيري، ولأني أخشى أن يكون هذان المَلاكان ساذجَين ولا يملكان من الخبرةِ الكافية للسّهر على رعايتي. لقد ألقَيا إلى السماءِ نظرةً حالِمَةً متجلية، وعليهما ملابسُ فاخرةٌ إنْ لم يكونا نصفَ عاريَين، وهما يعزفان على أغربِ الآلات، وفي السماء مستقرّهما وليس على هذه البسيطة. وأسائِل نفسي هل هذان الكائنان المُجنّحان يريدان حقًا أن يعرِفا كل شيء عني، وهل هما يرغبان في أن يَريا ما أخفيه عن غيري؟ هذان الفتَيان المُطربان المختّثان مهما طابا لي وراقَا فقد آثرتُ أن أراهما وقد اجتمعا في أعدادٍ كبيرةٍ على مذابح الكنائس والجداريات، مثل طيورِ السنونو على الأسلاك الكهربائية في الصيف، قبل انطلاقِها نحو الأصقاع الأكثر دفئًا. إني... لستُ مرتاحة.

عندما أفقتُ من النوم ذات صباح لاحظتُ في وجلٍ وكأن والدي سقَط من أحد الجسور أو من السماء. رأيته يئِنُّ على أرضية المطبخ، مُضرَّج الوجهِ بالدماء. وجاءت جدتي وأولَجت وسادةً من تحت رأسه، ونشرتْ من فوقه بطانيةً صوفية. ووضعتْ أمي بالقرب من والدي حوضًا مملوءًا بالماء البارد. وعندما أرادت أن تمسح خديه صدّها عنه صدًّا بحركةٍ من يده.

لن نتركه هكذا ممدّدًا هنا، قالت أمي بصوتٍ مرتفع. دعيه مكانَه، إنْ شاء، قرّرتْ جدتي، وهي تُزيح أمي بعيدًا عنه. ولمّا رآني أبي ملتصقةً بالفرنِ، مذعورةً جفلة، انفرجتْ أساريرُ وجهه. فرأيتُ خيطًا

Twitter: @ketab_n

من الدم يخرج من فمه، وينساب فوق خدّه، ويختفي في ياقةِ قميصه الكتاني الفاتح المبلّل بالدماء. لقد تحطّمت أسنانُه، تقول أمي متأوّهةً، ثم تندفع إلى خارج المطبخ. ثم تتوقّف عند باب البيت وتعبث بالزهور التي بدأت تتفتح في الأحواض. وأتساءلُ ما الذي حدث. لقد سقط بابا من على الدراجة النارية، تقول أمي وهي تشهقُ، يجب استدعاء الطبيب. ثم تنطلق مسرعة.

وعند العصر نُقِل أبي إلى الدكتور. لقد جاء أحدُ الجيران وأخذه بالسيارة. كان لوالدي ملائكة كثيرةٌ تحرسهُ، تقول أمي. وأسألُ نفسي إنْ خفّفت الملائكةُ وطأَة سقوطِه من الدراجة النارية، أم أنها أيقظت أحدَ الجيران فوجد والدي يرقد في المرجِ فساعده على الوقوف؟ قرّرتُ أن أُنفِقَ ما يلزَم من الوقت لأتأمل قصة الملائكة، فمن يدري، فلعلها أقلّ نفعًا ممّا هُيّئَ لي أن أعرفه عنها.

Twitter: @ketab_n

يحبّذ أبي بنطلوناتِ الغولف المضلّعة. وحين يسير تتأرجح من فوق ساقة الحلقةُ التي لم يُغلقها سهوًا عند العجلة. فهو يمشي بخطًى حثيثةٍ في هيئةِ من يُفرك يديه بلا انقطاع، فرِحًا كان أم عيل صبرُه. وفي الصيف يقفِز حافيَ القدمين في قلب الحذاء أمام باب المدخل. وفي الشتاء يتوق لوضع قدميه المغلّفتين بالجوارب الصوفية تحت رباطِ النعل فتتشكّلُ حوافٌ ناتئةٌ من القماش عند الكعبين المُرتّقَين. وعندما يعبُر الفناءَ على عجلٍ يتحرك كلُّ شيء من حوله. ويشرع الكلبُ بيكُو المربوط إلى سلسلتِه في العدو في كل اتجاه، وتقترب القطط من باب االإسطبل، وتُطلق الخنازيرُ هديراً في بيوتها. وتركض أمي نحو الإسطبل بِدلائها حيث تُبَقْبِقُ حصةُ الخنازير من الطعام. قبل سقوطه فكَ أبي رباطَ الأبقار واقتادها إلى المشرب. ولم يسعه أن يلتقط عصا البندق عند بوابة الزريبةِ، فاقتاد بيدِه وصُراخِه البهائمَ المتعثرة. وكَم يأتي صراخُه كأنه صرخةُ حبورٍ وابتهاج!

لا تضبط الأبقارُ مشيتَها على وتيرة والدي. فلا تكاد تصل إلى مكانها حتى يعيلَ صبرُ أبي فيُلقي إليها حفنةً من السّبابِ وكأنه رغب في طرد ذبابات مزعجة. وعندما يحمِل العلفَ إلى الإسطبل يصيح من عند العتبة باسم البقرة التي يجب أن تفسح له المرور، فتُفرج له البقرةُ الطريقَ لكي يملأ المذود. كانت حركاتُه واسعة وإيقاعية. وكان تنظيفُ مرابطِ الخنازير يجري في انسياب، وكانت مجرفةُ الدّمال تنغرز بقوة في مفرش الدواب، وكان الرفشُ يكشُط أرضية الإسطبل كشطًا منسابًا. وكان روثُ البقر الساخن ينتظر مَن يُخرجه من الساقية لينقله فوق كومة الدّمال. ومن مسارِ الدّمال نستشفُّ مزاجَ والدي، فإنْ رسم الدمالُ قوسًا كبيراً وحطّ خلف كومةِ الدمال فهو رائقٌ مطمئن، وإنْ هو ألقَى بالروث على الجانب الأمامي من الكومة فهو حنقٌ غضِبٌ.

Twitter: @ketab_n

تتزاحم الخنازير عند شبابيك الأحواضِ المتحركة. وتدفع أمّي الشبابيك بضربةٍ من جزمتها وتحمل البهائمَ على مزيد من الانتظار. هيا، انتظري أيتها البهائم قليلاً، تقول وهي تصبّ الحسَا في الأحواضِ بحركةٍ واسعة. وما إن ترجع الشبابيكُ إلى الوراء حتى تنهال الخنازيرُ على الحسا وهي تنخر نخرًا.

تشرع أمي في استدرار البقر، فتنظّف بخرقةٍ من قماشٍ ضرْع أوّل بقرة، ثم تُثبّتُ جسمَها إلى مقعدٍ بلا ظهرٍ وتُستند رأسَها إلى خاصرة البهيمة. ثم تُمسك بالضرع وتُحدثُ دفقًا قويًّا من الحليب الذي يصطدم بقوة بقاع الدلو. وعند هذه الإشارة يهدأ كلُّ شيء، فتتوقف ضوضاءُ الخنازير وهي تلتهم طعامها، وتُخفي الدجاجاتُ رؤوسَها، وتجلس القططُ بهدوء أمام أوانيها، ويزبد الحليبُ في الدلاء. ولمّا تُنهي استدرارَ أوّل بقرة، تُقدّم أمي الماءَ للقطط، وتُسكب الحليب في الوعاء الذي قطعه والدي وفصّله في الخشب. وتأخذ ألسنةُ القطط الورديةُ في لحْس السائلِ الأبيض، فتصير مخاطمُها بيضاء، وتلتقط ألسنتُها وتلحس الحليبَ المتدفّق على شعرها.

تلفُّني سحابةٌ من صفاءِ الروح فأُجيلُ عينيّ في الجدارن الملطخة. وتفوحُ يدايَ برائحة الخنازير التي تشدُّ أجسامَها الكثيفة بعد الطعام إلى شبكة الإسطبل، على أمل أن أحكَّ جلدها. ويمسح الكلبُ بيكُو عرقَه في تنورتي. ويلتصق بخدي شعْرُ القط المبلل بالحليب. أسأل أمي متى يولَد العجلُ المقبلُ، لأني أعشق إطعامَ البهائم بالرَّضّاعة. وتُسليني حركاتُ رأسها ذهابًا وإيابًا وهي تلعق الحليب من رضّاعتي. وبعد إطعامها أجعلها تلعق يديّ إلى أن ينتابني الخوفُ من أن تضيع ذراعي كاملة في حلوقها من خلف ألسنتها الغليظة صبراً عليكِ صبراً، تقول أمي. ويتوقف والدي عند باب الإسطبل وينظر إلى السماء، وهو يقول سيكون الطقس جميلاً غدًا، غدًا علينا بالعجلة، سيكون الطقس جميلاً!

في الربيع، عندما تصبح عطلُ نهاية الأسبوع دافئةً يجلس أبي على مقعدٍ بالقرب

Twitter: @ketab_n

من المنحل يشاهد النحل وهو يطير. ويتظاهرُ وهو يُسنِد ذراعه إلى متكأ المقعد أنْ لا مانع عنده إنْ جلستُ أنا بالقرب منه. ويتطلع إلى ألواحِ الحوافِ المنتصبة أمام ثقوب طيران المناحل التي يحطُّ عندها النحل الجارسُ ويؤدي فيها رقصاته. هذه السنة سيكون المحصولُ جيدًا، يقول أبي، أو لكم يقلقني المنحلُ الثاني. وفي نهاية فصل الشتاء، عند ذوبان الجليد، يكسح أبي الثلوجَ من أمام المنحل لكي تنشُر الشمسُ دفئها بسرعةٍ على الأرض أمام خلايا النحل. ويصنع براويز صغيرة من الخشب، ويشدّ إليها أسلاكًا ويلحَم فيها صفائح من الشمع. ويَحمل الشُّهُدَ إلى داخل المنحل، ويكنس أرضيتَه التي تناثرت فيها حيوانات صغيرة ميّتة. وفي اليوم الأخير من يناير يُرسلني إلى المنحل لكي أنصِت إنْ كانت مستعمرةُ النحل ترسِل علامات الحياة، فأُنصتُ وأحدّثه عن طنينٍ غامضٍ، فيُومِئُ بأنه صار الآن راضيًا مرضيًا. ثم يسألني إنْ كنتُ على استعداد لمساعدته في مراقبة المنحل أثناء الربيع، وفي تدخين النحل. فأومِئُ إليه أني موافقة. بيد أني أشعرُ في الحال أني أخطأتُ حين وافقتُ، لكنْ كيف لي أن أعدِل عمّا وافقتُ عليه، بعد فواتِ الوقت؟

داخلُ المنحل صار الآن غارقًا في العتمة. ومن الجدار الخلفي للمنزل الخشبي ينساب ضوءٌ مثل الحليبِ، عبْر نافذة صغيرة وَسِخة، إلى جانبها خزانتان تُوضّب فيهما جدتي ملابسَها. وعلى الجزء الأمامي تتكدّس خلايا النحل مثل جدارٍ واسع يطنطن طنينًا. وفي الربيع تكون الخلايا ما تزال مغلّفة ببطانيات صوفية. ومن خلفها آلاتُ نزْع العسل، في غرفة منفصلة، تتكدس فيها أوراقُ شمْعٍ جديدة بالقرب من البابِ، فوق طاولة صغيرة.

يشعر أبي بالسعادة حين أدخل إلى قلب المنحل معه. ويقول وهو يضع المدخنَ بين يديّ أنه لا يحب العمل وحده. وبحركةٍ يدوية حذرة يفتح الخلية الأولى فأنفثُ الدخانَ في داخلها. ثم أخرُج بأقصى سرعة. ويسحب أبي الشُّهُدَ واحدًا إثر واحدٍ،

Twitter: @ketab_n

وبريشةِ النسر يُسقِط النحل المعلّقَ بالإطار، ويُخرِج الشُّهُدَ من المنحلِ، واحدًا واحدًا، لكي يفحصها. وأنتظرُ من مسافة معقولة عودةَ والدي إلى الهواء الطلق، وهو يمسك شهدًا يتزاحم فيه عجاجُ النحل. ويشير إليّ برأسِه أن أقترِبَ لكي ألقِي إلى هذا العُجاج نظرةً خاطفة. فمَن لمَح منا الملكةَ أوّلاً صاح صيحةَ الفرح والبهجة. وأطيلُ عنقي وأميل على المستعمرة، ولا أكاد أرى الملكة حتى أصيح: ماتيكا، ماتيكا !" ويتنهّد والدي ويفتّش بريشةِ النسرِ عن النخاريب المَلَكية. وأحيانًا يكنس أبي مستعمرة أنهكها فصلُ الشتاء كما يقول، فاستقرتْ أمام مدخل طيران منحلٍ آخر، ويتمنى أن تستضيفها المستعمرةُ المجاورة. وينصحني بأن أمكث هادئةً، وأن أتفادى أيّ حركة سريعة. لقد اختار اليومَ المناسب، هكذا يقول، إذْ خرج النحل، ولا داعي للقلق. فلن يلدغنا النحل في يوم كهذا. لكني لا أشاركه كامل ثقته، لأني رأيتُه أكثر من مرة وعليه تورُّماتٍ بسبب لَسعات النحل. إنه يحب كثيراً أن ينفخَ دخانَ سيجارته فوق ظهر النحل، ويقول إنّ النحل يحب هذا كثيراً، وأنّ تِبْغَه يُسكّن أكثر النحلات تبرّمًا. ويبتسم حين يراني أُواري رأسي، خوفًا من أن تهاجمني عامِلات النحل الحانقة.

اعتادت جدتي أن تدخل إلى المنحل للاطمئنان على حالة النحل. فتتناول من درج خزانة الملابس دفترًا مصفرّ اللونِ بُنِيّ الغلافِ، تدوّن فيه عددَ المستعمرات والمِلكات خلال السنة. ويتلألأ نسرُ الرايخ الألماني على غلاف الدفتر، وعلى قفاه كُتِب اسم وعنوان الشركة، والجنسية: الرايخ الألماني. هذا الدفترُ كان ذات يوم مِلكًا لجدي، تقول جدتي، لكنه لم يستعمله ولا مرّة. وفيه كُتِب أنه استعاد المزرعة في أوّل كانون الثاني عام ١٩٢٧، وتزوّج في ٢٧ شباط عام ١٩٢٧. أما غير ذلك، تقول جدتي، فقد دوّنته خلف باب الخزانة، حيث سُجِّلت بقلم الرصاص تواريخُ زفاف ووفاة أعضاء من الأسرة.

Twitter: @ketab_n

جدتي لا تُلقي شيئًا من أشيائها، يقول أبي، فحتى أشياء هتلر تظل تستعملها إلى أن يُصيبَها البِلَى. لكنْ لا، تجيب جدتي. معطفُ الشتاء الذي تحتفظ به في هذه الخزانة لم تلبسه سوى مرّة واحدة، ولن تلبسه مرّة أخرى أبدًا. تفتحُ بابَ الخزانة وتشير إلى معطفٍ من الصوف القاتمة، خضراء رمادية، مطويّ فوق أرضية الخزانة. لقد دبّرتُه من رافنسبروك، كما تقول. ومنذ ذلك الحين لم تفارقه عيناها. هذا المعطف لبِسَتْه أثناء إخلاء المعسكر، وظل عندها أجملَ معطف شتوي. نعم، نعم، يقول أبي، وهو يعود إلى نحله. وأُلقي أنا نظرة مليئة بالفضول إلى المعطف قبل أن تعيد جدتي إغلاق الخزانة، وتذهب لتجلب جرّةً من العسل في غرفة نزع النحل. وأندهشُ لاستعمالها كلمة «دبّرتُ» التي لم يسبق أن سمعتُها تنطق بها ولو مرة واحدة. وأقول لنفسي إنّ للأمر صلة بالنشاط الغامض الذي أبقاها على قيد الحياة طول تلك الفترة.

ما إنْ نشعر أن الصيف صار على الأبوابِ، وأن المروجَ صارت غير سالكة بعد أن صار عشبُها عاليًا، حتى يشرع النحلُ بعد أمطارٍ عابرة في إثارةِ الانتباه إليه مرة أخرى. ففي هذه الأيام قد نسمع أحيانًا هديرَ سربٍ يُحلّق في اتجاه غصنٍ سميك، أو يقترب من المنزل، أو يقف على شجرة بعيدًا عن المزرعة، في ثَوْلٍ يطنّ طنينًا. ويُدْعَى والدي إلى جميع أنحاء المزرعة لكي يقبض على الهرّاباتِ من النحل وعلى ملِكتِه السابقة. ويمسك أبي بصندوقٍ من خشب، وسُلّم، ويهرول نحو الأشجار التي يستشعر فيها طنينًا مشبوهًا. ويضع هذه المرّة فوق رأسه قبعةً بيضاء عليها قطعة من القماشِ، لكنّ الجميع يتظاهرُون أنهم لم يسمعوا طلب العونِ منه إليهم لإعادة خلايا النحل إلى منحلِها. ترغب أمي ذات مرة في أن تفعل شيئًا مفيدًا فتثبّتْ الهيكلَ تحت النحل، فإذا بسربٍ من النحل يلسعها فيُغمَى عليها. فأمكثُ وأخي الصغير، خائفَين بالقرب منها وهي تئنّ فوق الأرض أنينًا. ويجيء والدي ويضَع على جبهتها قطعة قماش مبللة، ثم يقيمها ببطءٍ إلى أن تتقيأ وتستعيد وعيَها. ومنذ ذلك اليوم صارت أمي تخشى النحل، وصرتُ أنا أيضًا لا أقاوم خوفي من لسعاتِه.

Twitter: @ketab_n

إنّ ما فعلناه بأيدينا لا يتحمّله غيرنا، تقول أمي عندما دَهَمْت ذات يوم بلا روية، مسارَ النحل أثناء طيرانه. هذه المرة، أنا مَن ساعد والدي في نزع العسل. لقد جلب إلى غرفة المشوار جميع الشُّهد التي وجد فيها انتفاخات، وبدأ ينزع بمذراة صغيرة الطبقةَ العليا من الشمع على الشّهد. وحتى يُزيل الشمع يكشُط المذراةَ على حافة كوبٍ من الخزف مزيّنٍ برسوم الأزهار، اعتدنا استعماله في نزع العسل. ثم أضع في فمي بضعَ قطع من الشمع وأظل أمضغها إلى أن أنزع منها بقايا العسل. وإذا انفصل جزءٌ من الشّهد من إطار الكشطِ الصغير يناولني أبي إياه فأضع في فمي قطعةَ الشهد وهو يقطر بالعسل. يا له من مشروب متوهّج لصِق، هذا العسل الذي يتدفق في حلقي ويملؤني غبطةً وابتهاجًا.

يضع والدي في المشوار الشُّهُدَ المكشوطة التي صار العسلُ فيها جليًا مثل راتنج ليّن، ثم يبدأ في تحريك مِدور المشوار. ولا يكاد العسلُ يبدأ في الانسياب، ويشرع أبي في ترتيل أغنية الثناء على لونِه حتى تدخل جدتي إلى المنحل. ثم تُخرِج الدفتر البنيّ وتبدأ في تثمين وتدوين عددِ لترات العسل في كل خلية.

ولما ينتهي نزْع االعسل أدخل إلى الجزء الأمامي من المنحل حيث تُحلّق بعضُ العاملات في كل الاتجاهات. وتصير أصابعي لزجة رطبة. وفجأة يدهمني النحل، فأحاول طرده من شعري لكني أحس بلدغاته على فروة رأسي، ومن شدة الألم يتقلص رأسي وكأنه تلقّى صدمة مفاجئة. فأشرع في البكاءِ على أمل أن لا أفقد وعيي. وتسرع جدتي وأبي ويُكلماني بهدوء، ولكنّ الألم الذي يملأ جسمي كلَّه يظل أقوى بكثيرٍ مما يُحيطاني به من كلمات مُسكّنة.

وحين أكفُّ عن البكاء تكون جفوني قد تورّمت بلَسْعات النحل، ويكون رأسي قد امتلأ بمطباتٍ مؤلمة وملموسة من تحت شعري. وحتى تُشدّد عزمي تضع جدتي زجاجةً من الكاكاو فوق الطاولة وتضع كمّادات باردةً على جبهتي وأصداغي. وفجأة يدخل مِيشي، وهو ابن عم والدي، إلى المطبخ في اللحظة التي أحمل فيها الرضّاعة إلى فمي. الفتاةُ ما زالت تشرب من الرضّاعة، هذا غير معقول، يقول

Twitter: @ketab_n

ميشي بنبرةٍ معترضة. وأرى في شكواه من الاندهاش ما يجعلني أدرك على الرغم من حالي الحزينِ أني سأكتفي قريبًا بفنجانٍ، وفقًا لسني. دعْها وشأنها، تقول جدتي، لقد لدغها النحل. ثم تُظهِر لميشي آثارَ اللسعات وهي تفرد خصلات شعري، خصلةً إثرَ خصلة، بذاتِ الحركةِ التي نُرتّب بها أوراقًا في أدراجٍ. ويجلس ميشي بجواري على مقعدِ المطبخ ويداعب وجنتَيّ المحترقتين، لكي يسليني.

Twitter: @ketab_n

تردّد أمي معي قصائدَ سلوفينية لكي أحفظَها عن ظهْر قلبٍ للمدرسة. فلنردّدْ معًا، تقول، سأحفظُ القصائدَ معك ! وبينما تراجع هي قصائدي أقرأ أنا مقاطعَ من دواوين الشعر والكتب المدرسية. وها أنا وهي، نُنْبِتُ الزهورَ، ونغني مع الديكة، وندقّ أجراس الكنيسة. ونَنُقُّ مع الضفادع، ونغني ونرقص في زفافها. ومع الغربان نسخر من الفزّاعات، ونصنع فقاعاتٍ من الصابون فتصعد مثل الشمس والأرض والقمر من دون حاجةٍ إلى عجلات لكي تدور، ومن دون أجنحة لكي تطير. ونَحْمِل الربيعَ وأكاليلَه على ظهْر مركبٍ ونُبْحِر نحو آفاق قصيّة. ولساعاتٍ ممتدّة نجلس في مروج اللغة ونتكلم على إيقاع القوافي. ونقول ليت الطبيعةَ تزدان بالشّعرِ والزهور حتى تُضَفِّرَ أكاليلَ وتيجانًا. وتجعلنا القوافي نقفز من مقطعٍ إلى آخر، مثل فراشات من زهرة إلى زهرة، دون خوف من السقوط. وتؤدي القوافي كل الأغراض، فتحوّل الدموعَ ضحِكًا، والصمتَ عِيدًا. وما كان جافًا يتفتّح من جديد، وما كان متحجرًا يتعلم الرقص. وتغمرنا الثقة بأنّ جميع الأطفال المرفوضين سوف يحصلون مثل *فيديك* على قماط تمنحهم إياه حيواناتُ الغابة، وسيأكلون الفاكهة من الحديقة البرية. والدتي تُجِلُّ القصائدَ التي يهدّد فيها الشتاءُ بأخذِ الأطفال الكسالى، وتعِد الطيورُ فيها الآباءَ بتربية أطفالِهم.

في الربيع تغرز في شعري أزهار الهندباء وتقول لي إفرحي بالأشياء البسيطة. تقول أمي أنّ ما من شيءٍ يغبطها أكثر من الأغاني والطبيعة، وأكثر من الكنيسة الكاثوليكية. فالسبيلُ الوحيد للعيش في النعمة، هو الجدُّ في العمل وحفظُ وصايا الله. يجب احترامُ الأعياد الكاثوليكية، وحضورُ القداس، وأداءُ الصلوات في الصباح وفي المساء. ولا بد من التوقف أمام الصلبان الخشبية المنتصبة على حواف الطرقات والمروج، ورسْمِ الصليب أمام المذابح. لا تستغني أمي عن الصور المقدسة المعلقة على

Twitter: @ketab_n

الجدار فوق سريرها. زاويةُ الربّ يجب أن تكون مزينةً بالسحب الصغيرة وبالزخارف الربانية. تقرأ أمي الكتيّبات والكتب التي تتحدث عن الشهداء الذين قُتلوا ومُثِّل بهم، وعن الذين تخلوا طوعًا عن الحياة والملذات، لكي ينتقلوا إلى السماء وهم أحياء. تقول أمي أنّ مريم العذراء يمكن أن تتجلى لكلّ من توقّدَ حماسةً وكسَب قلبًا نقيًا. تُرسلنا أمي أنا وأخي الأصغر إلى الكنيسة بانتظام، وتقول إن حاجتنا لقطْع سبعةِ كيلومترات إلى إيسنكابل، مشيًا على الأقدام أمرٌ عادي جدًا، لأنّ الدرب المؤدي إلى الرب، في رأيها، دربٌ من حجر أصلاً.

لكنْ يخامرني الظنُّ أنّ أمي لا تسرف في ذكْر هذا الفيضِ من الأغاني والمعجزات إلا لكي تُبعِدني عن تأثير جدتي. تقول، تعالي عندي، فإنْ أطعْتِني، وأدّيْتِ واجباتك المدرسية، فسوف أدعك تذهبين لمشاهدة التلفزيون عند ميشي.

أراني مُجديةً أحيانًا، فأقطع مع أخي المرجَ وغابةً صغيرة في المساء أحيانًا، لكي نذهب عند الجيران الطيّبين الذين يحق لنا أن نشاهد التلفزيون في بيوتهم، جالسَيْن على الأريكة. وليس من النادر أن نأمُل عبثًا في أن نميّز كائنات بشرية من خلف الثلج بالأسود والأبيضِ على الشاشة.

في بعض الأيام يحاول ميشي، بمساعدة والدي، أن يضبط الجهاز حتى يُحسّن استقبال الصورة. ويجوبُ الرجالُ حواشي المنزل وهم يحملون الهوائي الذي يشبه شجرة عيد ميلاد مُعرّاة من زينتها. فيما نصرخ نحن من خلال النافذة ها هي الصورة، ها هي الصورة! عندما نرى الخيالات وقد بدأت ترتسم بوضوح على الشاشة. وبعد حين يشرع كِيكِيك الراعي في همهمة أغنيته عن الشمس، وفي اللعب على نايِه الرائع، يَفْتَتِنُ به البشرَ والحيوان معًا، ويطرد قوى الظلام من قريتنا الجبلية.

ليس من السهل أن نلتقط التلفزيون السلوفيني دائمًا، وعلى أيّ حالٍ ليس ما

Twitter: @ketab_n

نلتقطه بثًّا رسميًا. فالسياسة، يقول ميشي، لن ترخّص بهذا البثّ لِسلوفينيي كارنْتنِر. ولو فعلَتْ لكان ذلك من عجائب الدنيا الثمانية. لذلك لا نملك سوى أن نرضَى بالظلال الغامضة التي تظهر على الشاشة، ونشعر كأننا قراصنةٌ في قلب الضباب.

لجدتي تناغماتُها الخاصة مع الطبيعة. فخيرٌ لنا في ظنّها أنْ نداري الحقولَ والغابات من أن نُزيّنَها بالقوافي الشعرية. ففي عين الطبيعة لا تساوي القصيدةُ شيئاً، تقول جدتي، وخليقٌ بنا أمام الطبيعة أنْ نراعيها ونبجّلها.

Twitter: @ketab_n

جمعت جدتي في عليّة البيت أغصانَ الأسَل التي تستخرجها من الأكداس المخصصة للكنيسة يوم أحد الشعانين. وبِسيقانِ أغصانِ الأسَل تصنع أصلبةً صغيرة نزرُعها في الربيع في أراضي الحقول المحروثة، لكي ينمو القمح، ولكي يصير محصولُ البطاطس جيدًا. وعندما تقترب العاصفةُ تضع جدتي لفافات من الصفصاف فوق الجمْر وتحملها عبر المنزل في مقلاة من حديد الزهر. يقال إنّ الدخانَ اللاذع يُنَقّي الأجواءَ ويجعل قوى الجوّ رحيمة. وتقول جدتي أنّ الإيمان بالله يجب أن نحمِله في قلوبنا، ولا يكفي عرضُه في الكنيسة. الكنيسةُ، تقول جدتي، لا يمكن أن نعوّل عليها، ولا يمكن أن نثق بها.

جدتي لا تثق إلا بالإشارات غير العادية التي تظهر في السماء، والتي تعرف تفسيرها. فهي تؤمن بالأزمنة الأربعة، وبـ ٨ أيار، موعد ذهابها كلّ عام إلى الكنيسة لتقول شكرًا على نهاية النازية. وهي تؤمن باللسان الذي يخاطبُ إرادةَ ابن آدم وليس آذانه. تقول إن للكلمات وقعًا عظيمًا، وإنها تستطيع أن تفتِن الأشياء، وتشفي البشر، وإنّ الخبز الذي نقرأ عليه تعويذةً وننفخُ فيه طلبًا عن حسنِ نية قادرٌ على أن يُسعف من كان مريضًا أو مكتئبًا. وتروي جدتي أنّ ابنَها البكر لدغته حيةٌ لكنّ جرحَه ظل عصيًّا، ووقف الأطباءُ أمام الجرح حائرين وبلا قوة. فقصدتْ الشيخَ راستونيك لكي يُلقي على خبزها تعويذةً لدرءِ الحية السامة. لكنّ الشيخ رفض طلبَها خوفًا من أن يُعزّز مرضَ ابنها. وفي إثر ذلك مضَت إلى زيلوديك فكرّس هذا الأخُير خبزَها. «أيتها الحية السامة اسحبي سُمَّك من هذا الكائن، قال زيلوديك مخاطبًا روحَ الحية. قال زيلوديك لستُ أطردُ لحمها، ولا أطرد دمَها، وإنما أطرد التشنّج الرهيب. كانت هذه هي الكلمات التي كرّس بها زيلوديك ذلك الخبز. وبعد

Twitter: @ketab_n

أن ظل يأكل من هذا الخبز لقمةً كل يوم ويرتّلُ تعويذةً من تعاويذ أبينا الرب شُفِي ابنُها تمامًا. وغادره السمُّ نهائيًا. وأصبحتِ الكلمةُ خبزًا، وظلت تسكنه طوال الفترة التي ظل يُبلّل بلعابِه الرطبِ تلك الكلمةَ الشافية. فإذا نَطق الخبزُ فعلت الكلمةُ فعلتَها.

الشعيرة، ذلك الالتهابُ الذي يصيب جفنِي أحيانًا، تستطيع جدتي أن تخلصني منه بالدعاء. تدعوني لأن أقول إني لا أؤمن بدعوات شفاعتِها، وإني لا أؤمن إلا بالشفاء. ثم تنطق بتعزيمتها لطردِ المرض وهي تُقلّد بيدِها حركاتِ مِخَشَّةِ الشعيرِ من فوق عيني المريضة. وتقول Ječnem žanjem، ječnem žanjem، فيما أردد أنا، مرة أخرى، أني لا أؤمن أنها تجزُّ الشعير. فحين أقرّ بأني أشكُّ أكون قد قلتُ الحقيقة، وعندئذ تفعل التعزيمة اللفظية فِعلتها، على الأقل أتخيل ذلك، وإن كنتُ غير متأكدة.

وتُسِرُّ لي جدتي أيضًا أن والدتها منحتها بركةً من قبيل جهازِ الرهبنة، فكانت هذه البركةُ بمنزلة سقفٍ من الكلماتِ فوق رأسها. يجب أن تقرأها في أوقات الشدة، أو تُسمّرها في باب المنزل، لحمايته من البرد والبرق ومن النوائب جميعًا. قالت أنها تحتفظ بهذه البركة في مُغلّفٍ لا يحق لنا فتحُه إذا لم يُطلب منها فتحه. لا بأس أن نقرأ الدعوات ونلمسها على الورق، لكن من الأفضل أن نحفظَها عن ظهرِ قلب، لأنّ تأثيرها يكمُن في النطق بها، وليس في كتابتِها.

أتخيلُ الكلماتِ وهي تخرج من الرسالة، وتمرّ عبْر عيني، وتدخل إلى رأسي لكي ترتفع نحو آفاق مجهولة. إنها الكلماتُ التي تستطيع أن تنشر تأثيرَها من داخل مغلّفها، حتى ولو لم نلمسها. إنها الكلماتُ التي مِن صوتِ مَن يبثّها تأخذ تحت جناحِها اللفظي كلَّ من يتضرّعون بها.

تروي جدتي أنّ العجوز كِبِيرْ أودع جدي أيضًا قبل أن يلتحق بأنصار المقاومة، بركةً ملفوفةً في قطعةِ قماش من المخمل، تحميه من الموت المفاجئ، ومن الغدْر

Twitter: @ketab_n

والشرور. كان عليه أن يقرأ يوميًا خمس صلوات باتر نوستر وخمس صلوات آفي ماريا. وقد ظل يصلي كل يوم، وقد نجا كنَصير للمقاومة. وعاد سالِمًا من الغابات. فكان مثل ذلك الرجل الذي نجا من الحرب، والذي ما تزال تذْكره رومانا رمشينغ، تقول جدتي. فعندما كانت رومانا في المعتقل لم يكن لها من العمر سوى عشر سنوات. وفي سجن كلاجنفورت الذي خضعت فيه للاستجواب كان الجيستابو يجرّونها من شعرِها جرًّا، في ذات اللحظة التي جيءَ فيها إلى الغرفة بأحد أنصار المقاومة. لم تكن تعرفه، وكان يحمِل، كما قال، الدرع الرباني ščit božji . وقد طلب الجستابو من ذلك النصير سرّ ذلك الدرع فأجاب «إنه يضعني في حماية الربّ». وهو ما جعل الجستابو ينهالون عليه ضربًا مبرحًا إلى أن انهار أرضًا مضرّجًا بالدماء. وقد رأت الفتاةُ كل ذلك المشهد، لكنّ نصير المقاومة نجا من الموت ونُقل خارج الغرفة، فاقدًا للوعي. لقد حمتْه تلك الكلمة من الموت، تقول جدتي.

فأرتجفُ وأطلب من الدرع الإلهي أن يحميَني من التفكير في ما يمكن أن يصرفني عن نفسي. لا تفكري، تقول جدتي، لقد سمعتِ كثيراً وصدّقتِ أشياءَ كثيرة. ثم تبتسم ابتسامتها الخفيفة المتحفظة، وتدفعني خارج الغرفة... نحو الساحة.

يتحرك بيكو ذهابًا وإيابًا في سلسلتِه وينبح كثيراً. وتجري الدجاجات وتُقَوْقِئُ بصوت عالٍ في المرج المنحدر من خلف منزلنا. وتفتح أجنحتها وتحاول أن تطير.

لعله صقرُ الدجاج، تقول جدتي، وقد جاء الآن ليصطاد أمام بيتنا! وتنطلق لتُخبِر الصيادين بهذا الطارئ لكي يقتلوا الكاسِر. وتظهر أمي خلف المنزل وهي تحمل في ذراعها ديكًا مضرّجًا بالدماء. لقد تشاجر مع الصقر الذي لم تجد بدًّا من أن تنتزعه من الديك لفرط تشبّث هذا اللص بجناحيه، تقول جدتي وهي تضع على الأرض الحيوان الجريح. وينتفض الديك ويفرد جناحيه الدامِيَيْن. ويُعرّج نحو خمّ الدجاج وهو يُصيّح.

أسأل أمي إن كانت ستضمّد جروحَه.

فتقول، لا تقلقي، سوف تلتئِم جروحه في النهاية، لا داعي لوضْع ضِمادة.

Twitter: @ketab_n

ذات مرّة كنا وحدنا، فأردتُ أن أعرف من هو نصير المقاومة. فذُهلت أمي للسؤال وقالت أهيَ جدتك التي روَت لك هذه القصص؟ وأجابتني بأن مُناصري المقاومة يعيشون في ملاجئ تحت الأرض لكي لا يراهم الألمان. إنها قصة قديمة، ولا أريد أن أشغل بها بالي كثيراً. وأضيف أنّ جدتي قالت إنّ جدي كان أيضًا نصيراً للمقاومة.

دخلت أمي إلى المنزل ولم ينطق فمُها بكلمة واحدة. وبعد هنيهةٍ رأيتُ جدتي وهي خارجة. لستِ أنتِ مَن يُملي عليّ كيف أعامل صغيرتي، لا، ليس أنتِ، هدرتْ بنبرةٍ مستنكرة، قبل أن تجلس أمام المنزل بالقرب من النافورة. ومكثَت أمي واقفةً عند العتبة. وأدرتُ رأسي نحوها من دون أن تفارق عيناي جدّتي الهادرة. وخِلتُ سقفَ الغرفة المنخفض وكأنه يكاد يُلامس الأرض. ولبضعِ دقائق غزا الماءُ المُبَقْبِقُ صمتَنا.

Twitter: @ketab_n

قرّرت جدتي أن تتكفل بتربيتي. وقالت إنها شبِعتْ من تلك الأغاني التي لا طائل منها، ومن ذلك الهراءِ. حماستي للكتب التي أجلبها من المدرسة تبدو مشبوهةً في عيني جدتي. تقول حين تراني أقرأ في كتابٍ من الكتبِ ما الذي تصنعينه بهذا الهراء، خليقٌ بالبنتِ أن تفعل شيئًا آخر غير القراءة. الرقصُ، مثلاً، لا يقل أهمية عن القراءة. وبعد تحرير المعسكرات علّمتْ جدتي الرقصَ للفتيات. ولا تكاد تسمع أحدَهم يعزفُ الموسيقى حتى تمسك بامرأةٍ وتشرع في الدوران معها. كل هذه الضحكات وصيحاتُ الفرح جاءت بعد أن تخلصت من الشيطان، تقول جدتي.

عندما تذاع قطعة بولكا أو فالس على راديو الغرفة الكبيرة، تأخذني جدتي من يدي، وتعلّمني خطوات الرقص، وتجعلني أدور معها. فأتمسك بذراعها وأنظر إلى ساقيها المنتعلتين خُفَّينِ وهما تتحركان عل إيقاع الموسيقا. وسرعان ما تعلّمتُ خطوات رقصة البولكا والفالس. وفي أيام العطلات عندما يعزف والدي على أكورديون ستيريا، تدعوني جدتي، في فخرٍ للرقص معها. ويطيب هذا الرقص أيضًا للجيران الذين يأتون إلينا في مثل هذه المناسبات، فيهتفون «الرقص في الغرفة الكبيرة!»، لأنهم لم يرقصوا منذ فترة طويلة!

وفيما أستدير حول نفسي مع جدتي أجدني أتخيّل ما تُخبئه هذه الرقصات في غرفتنا الكبيرة من أشياء يدّعي الجميع أنه ما يزال يذكرها. كل الذين كانوا يرقصون في الزمن الذي كانت فيه الفتياتُ يَقَرن في بيوتهن: والفتيات اللواتي كنَّ يُبَعْثَرْنَ في مهبّ اتجاهات الريح كافة، واللواتي يُروى أن اثنتين منهن لم يرجع منهما إلى الوادي الضيق سوى الرماد. أحبُّ الجذل الذي يملأ أرجاء الغرفة الكبيرة من المنزل، فبِفضل هذه الغرفةِ نشعر أنّ بالإمكانِ أن نُديم شيئًا من الماضي، وأنا سعيدة بابتسامة جدتي.

Twitter: @ketab_n

ويركّز الدرسُ الثاني على لعِب الورق. فلا أكاد أراها عند عودتي من المدرسة وهي تُرتّق الجواربَ أو تغزل الصوف حتى تقول اقتربي، تعالي، لنلعبْ هذه اللعبة! لعبتُها المفضلة، تسمّيها لعبةَ «المباني»، وفيها يغلِبُ الضابطُ الصبيَّ (في ورق اللعبة). نحن مزارعون نلعب مزارعنا، ونُصفّف مزارع وادينا، ونختار المرشحين فيها، ومزارعَ الوهاد المجاورة، والمزارعَ التي لم تعد مستغلة وتم إهمالها. جدتي تلعب تارةً باسم أولئك الذين ليس لديهم سقف، وتارة أخرى باسم أكبر مزارعي المنطقة. أما أنا فألعب باسم عمّال المزارع الذين يذهب أطفالُهم معي إلى المدرسة، وأتخيّل أني أعرفهم. ونُصفّف النجاحاتِ والإخفاقات مثلما صفّفنا المزارعَ من قبلُ، ونضربُ أوراقنا على الطاولة ونضحك من الخاسرين الذين ضَيّعوا للتوّ كلَّ ممتلكاتهم. جدتي تعرف قيمةَ كل عقار، وتعرف موقعَ الحقول والمروج، ومردودَ غلة البساتين، وجودةَ جميع لحوم الخنازير. وعندما تملُّ من لعبةِ المباني تقترح لعبة السنايير، فنلعب مقابل بضعة قروش، من دون أن تكلفنا اللعبةُ خسارة أو ضرراً

أما التمرين الثالث فقد علّمني كيف نستقبل الزوار. فحتى وإن كانوا على عجلةٍ من أمرهم لا بد من دعوتهم للجلوس، لأن الجيران الذين لا يجدون مكانًا مناسبًا يجلسون فيه يتسبّبون في ليالٍ طويلة من الأرق، تؤكد جدتي. لا بد من الاحتفاظ في خزانةِ الأكل دائمًا بالسجق الطيب والجبن الأبيض، والخبز للضيوف، وليس لحم الخنزير المقدّد الذي نهمتْه الديدان، كما يفعل بعضُ المزارعين على طاولات الأكل عندما يأتيهم زوارٌ دون سابق إنذار. حتى لا يقول أحدٌ إننا أهل بُخل، لأن البخلَ أسوأُ ما يمكن أن يُقال عن مزرعتِنا.

جدتي كثيرًا ما يأتيها زوّارٌ من الرجال كبارِ السن من سكان الجوار. ويمرّ فلوري كلّ يوم تقريبًا، لأنه يُمهّد لعلاقةٍ مع والدتي. وهو يكنّ الاحترام لجدتي ولا يضع يده على ثدييها في كل مناسبة كما يفعل مع النساء الأصغر سنًّا. وما من مرّةٍ واحدة وضع عليّ أصابعَه المعقوفة، تقول جدتي، ولو حاول لأصابه سوءٌ مني! قبل الحرب

Twitter: @ketab_n

كان فلوري يعيش في مزرعتنا، تقول جدتي، ففي مرّتين خلال الحرب طلبتْ منه البقاءَ ليلاً في الغرفة الكبيرة. ففي المرّة الأولى دعته هو والجيران المفضَّلين للمراقبة طوال الليل، لأنّ جدي علِم أن عائلتنا ستُرحّل في صباح اليوم التالي. فقد أعدّت أفضلَ لحوم الخنزير وقد أكل الجيرانُ ولم يبقوا من الأكل شيئًا. ولكنْ في اليوم التالي لم يأتِ أحّد لترحيلهما. وبعد عام كامل طلبت من فلوري أن يُخبِر الشرطةَ بأن أنصار المقاومة أجبَروا جدي على مرافقتهم، وأنه لم يلتحِق بهم طوعًا. لكنْ ما من أحدٍ يصدّق فلوري عندما يروي هذه القصة.

تشيك واحدٌ من الأشخاص الذين اعتادوا على بيتنا. ليست أصابعُه معقوفةً كأصابع فلوري، لكنه يحمِل ثقبًا في جدار أنفه. وهو لا يكف عن تمسيد شعرِه الداكن السلس. وحين سألته يومًا مِن أين جاءه ثقبُ أنفه الثالث الذي ينفث منه دخان سجائره قال إنه سقط ذات يوم فاصطدم وجهُه بمسمار. وبعد مرور بعض الوقت قال لي إنه في الواقع قفَز من الشرفة فسقط سقوطًا مبرّحًا على رأسه فظل مُذ ذاك يحتفظ بهذا الجرح.

يسكن تشيك في المنشرة بمزرعة راستونيك. من نافذة غرفة نومه الصغيرة تُطل ماسورة موقده. ينادي جدتي *تيتا*،على الرغم من أنها ليست عمته. ويتنهد عندما يأتي الحديث عن حدث يبدو مشتركا بينهما. ففي ذلك اليوم الذي رحلوا فيه، أجل، في ذلك الوقت من تشرين الأول، عندما تم القبض عليهم، كان هناك معهم أيضا. لقد اقتيد إلى مورينجين، معسكر الأطفال، حيث أودع أيضاً جوهي كيمر وطفلان عائلة أوبريش الصغيرين، إيرني وفرانز.

مرةً في العام يزورنا أحدُ الغجريين فيركن مركبتَه على طريق المدخل عند أسفل المنزل. فهو يبيع الألحفة، ومفارش المائدة والأواني. وعندما ينشر على طاولة مزرعته بضاعتَه الملفوفة في البلاستيك ويلمع البلاستيكُ في الشمس من فوق الأقمشة المطرزة والمطبوعة، تكاد الغرفةُ تغرق في ما يشبه الجوّ الاحتفالي. ويَعرض الغجري

Twitter: @ketab_n

بضاعته، وتقرأ زوجتُه الشابة أوراقنا. وتقول الأوراقُ إني سأحظى برجل غني، وإني سأحصل على بيت، وسأكون سعيدة. وتشعر جدتي بالرضا وتقول أرأيتِ، لا تحملي همّ البيت إذًا! وترغب جدتي في أن تخبرها الغجريةُ بيومِ موتِها فتجيبها الغجرية الشابة بأن الأرواح لا تنبئ بأجل الموت بتاتًا. لا عليكِ، تقول جدتي. وعلى أي حال فقد طهَتْ جدتي خبزًا خاصًا وضعته في الخزانة. فعندما تظهر عليه بوادرُ التعفن يحين أجلُ موتها. ثم تُريها الغجرية الشابة بعضَ المناشف، فتشتري من البائع المتجول بعضًا منها.

نُعاملهما دون بخلٍ أو تقتير. تنصحني جدتي بأنْ أحسّ أن هذا الرجل الفقيرَ عاش حياة الضنكِ والشدة، ثم تطلب منه أن يريني الرقم على ذراعه. ويُشمّر عن أكمامه، ويكشف لي عن رقم فأشعر في هذه اللحظة أنّ الرقم يُنتزَع من ساعده ويشرع في الارتفاع. في ذاكرتي ينفضل رقمُ تسجيل المعسكر عن الشخص الذي يحمله، كما في الحلم الذي ربما رأيتُه يومًا ورأيت فيه رقمًا يطفو في كل الاتجاهات، إلى أن وجد ذراعًا مناسبًا فحطّ فوقه مثل فراشةٍ سوداء .

كان رقم تسجيلي ٢٤٨٣٤، تقول جدتي، فأراها في هذه اللحظة وكأنها امتلأت حزنًا وتحديًا في آنٍ واحد.

وتدعو جدتي أيضًا شهودًا من يهوه عندما يقفون، ثلاثة أو أربعة، على باب المنزل ويرغبون في أن نأذن لهم بأن يشرحوا لنا بدءَ الخليقة. وتشرع جدتي في إعداد مائدة الأكل فيما يشرع طلبةُ الكِتاب المقدس في وصْف الجنة، ووصفِ الينابيع والأنهار التي لا تجفّ ولا تنضب أبدًا، والثروة، وخصوبة جنّات ومروج الله، وعينُه اليقظة التي تسهر على البشر الضعفاء والمذنبين الذين طُردوا من الجنة في وقتٍ مبكرٍ جدًا، بعد ارتكاب الخطيئة.

أُحدّث نفسي فأقول إنّ جدتي تملك قوى سرية لا محالة، تثيرُ بها الكثيرَ من

Twitter: @ketab_n

الامتنان لدى زوارنا. فالاعتبارُ الذي تحظى به يتجلى في الهدايا التي تُراكمها في الخزانَة. زجاجاتُ النبيذِ والمشروبات الروحية الملفوفةُ في ورقِ الهدايا تُحاور علبَ الشوكولاتة المغلقة. ففيما كانت ذات يوم تفكّ بحركةٍ رسمية علبةً من الشوكولاتة، وتزيلُ عنها السيلوفان وترفع الغطاء، كانت كلُّ هذه الحلوى تُشبه فضلاتِ الغزلان الجافة، قال أبي بعد أن لمحَها. الشوكولاته لم تعد صالحةً للأكل، وينبغي التخلص منها. لكن جدتي ترى الأمرَ عاديًا. لقد تلقّت الهدايا وهي سعيدة، وأظهرتْ امتنانها باحتفاظها بصناديق الشوكولاتة وزجاجات النبيذ لمدة طويلة، من دون أن تلمسها. لأنّ فتح الهدايا في حينها يبدو فظًّا ومتسرّعًا.

قلما يدهشني أن أرى زوّارًا يظهرون فجأة في الغرفة الكبيرة، وهم يزعمون أنهم كبروا معنا. يتحدثون بصوتٍ مكتومٍ كما لو ساءهم كثيراً أن يلجؤوا لجدتي في الماضي. يسألون عن صحّتها، وتقولُ جدتي إنها بالتأكيدِ ستموت قريبًا. ولذلك يجتهد معظمُ الزوار في طرْد كل هذه الوساوسِ من رأسها، وهو ما يدفع جدتي من فورها إلى الغلوّ في وصف حالتها.

Twitter: @ketab_n

مع شقّ طريق البلدية الذي سهّل الوصول إلى مزارعنا صارت جدتي تسافر كثيراً. مرّةً في الشهر تذهب جدتي للتسوّق في إيسِنْكابل. وفي مساء ليلةِ التسوق تتحقّق من ذخيرة خزانة الأطعمة، وتُعِدُّ ملابسها، وتحسب نقودَها. معاشها الصغيرُ الذي يأتي به إليها ساعي البريد مرّةً كل شهرٍ يتيحُ لها مساعدة أسرتي ماليًا. وفي اللحظة التي تتناول فيها النقودَ من المغلف التي تحتفظ به في صندوق قديم، مع صورِ ووثائق رسمية، ترسم إشارة الصليب فوق الأوراق النقدية قبل أن تفكَّ الرباط الذي يلفّها. لقد فقدتُ كل شيء، صحتي، وسعادتي، تقول، لكني أملك الآن، المالَ... للمساعدة!

في الصباح يأتي جارٌ أو قريبٌ ليأخذها بالسيارة وينقلها إلى إيسِنْكابل. فتبدأ يومَ مُشترياتها عند مدخل أسرة بيركو حيث تضع قُفّاتها المملوءة بالبيض والجبن الذي تحمِله إليها من بيتنا. وبعد تناولِ قهوة الترحيب مع ماريا، تنطلق لتسوّقها. تتّجه في البداية إلى مايديك، حيث يُرحّب بها التجارُ ويصافحونها. ويقدّمون لها كرسيًّا تجلس عليه لكي تقول ما ترغب فيه. وتخدُمها مايديك بلطف ومودة، وتتحدث معها بالسلوفينية، من دون أن تخفّض صوتها عندما يدخل عميلٌ آخر إلى الدكانة. وبعد الشراء، تعود الجدة لتضع أغراضَها عند مدخل بيت بيركو، وتنطلق ثانيةً نحو بيت روشر. وتومِضُ عيناها من خلف نظارتها عندما يتعرّف عليها بعضهم في الساحة الكبرى، أو يرفع رجالٌ أصغرُ سنًّا قبّعاتهم تحيةً لها. وفي محلِّ بقالةِ روشر تخدُمها صاحبة المحل أيضًا. السيدةُ روشر تعرفُ كيف تضع كلَّ بضاعة فوق مكتب الصرافة في حنانِ ورقةٍ، وفي لطفٍ أيضًا تمرّر جدتي يدَها فوق علبة من المعكرونة أو مسحوق الخبز المحمص. وتتكدّس البضائعُ فوق مكتبِ الصرافة ويقوم أحدُ

Twitter: @ketab_n

العمّال بترتيب البضاعة في عُلبٍ كرتونية بالقرب من المدخل، لكي تُأخَذ إلى لِيبِينا. وفيما تواصل جولتَها تقول جدتي يجب أن نعرف بدقة أين يُرحّب بنا الناسُ خيرَ ترحيب، ومَن هُم الذين يمكن التحدثُ إليهم في أيسنكابل. لقد خبِرتْ جدتي في السابقِ بعضَ التجارب المريرة، لكنّ العائلات مايديك وبيركو وروشر لم تبخل عليها يومًا بالودّ والمحبة. فهي لا تملك إلا أن تفكر كثيراً في تلك الفترة بعد أن وضعتْ الحربُ أوزارها، حين عادت لأوّل مرّة إلى أيسكانبل، بعد خروجها من المعسكر لتُخبر السلطاتِ بأنها ما زالت حيّةً ترزق. ففي تلك الأثناء كان الغضبُ والخوفُ يملآن القرية. لقد طردَها عمُّها، مثلاً، عندما ذهبتْ إلى بيته لكي تقترِضَ منه بعضَ الطحين والحبوب، لأنّ عليّات بيتها نُهبت عن آخرِها. لقد خجلت جدتي أيما خجل، وذُلّت أيما إذلالٍ، ولذلك قالت وكرّرت إنها لن تمدّ يدّها للتسوّل بعد ذلك اليوم أبدًا. أمّا عائلات بيركو ومايديك وروشر فقد أعطتها بعضَ الملابسِ والجوارب والملابس الداخلية والأحذية، ودقيقَ الشيلم، ولن تنسى جدتي ذلك أبدًا.

وحتى نختتم يوم التسوق هذا نذهب إلى قبرِ جدي ونُشعل شمعة. تقول جدتي إنها قريبًا ستكون تحت هذه الأرض هي أيضًا، بالقرب من عظام جدي ورماد يتيمتها القاصرة ميسي التي نُقِلت من لوبلين. هنا مكاني، تقول جدتي، وأدرك في الحالِ أن لافتتاحها بالموت سببًا خفيًّا.

ومرة واحدة كل عام، تزور جدتي ابنها البكر تونسي، وتريد أن أرافقها. نركب حافلة البريد نحو كلاغنفورت ونواصل السير في اتجاه أوبرغلان. ويأتي العمُّ بسيارته بوتش ٥٠٠ لاستقبالنا في المحطة، ويأخذنا على طول الطريق المتعرج لغاية القلعة حيث يعمل حارسًا للغابات ومديراً لها. تفوحُ تخشيبة السقف في ملحقات الكونت التي يقيم فيها عمّي مع عائلته برائحة الخشب القديم، والأعشاب الجافة، والغبار، وشحم الخنزير الذائب، ورائحة الملابس المغسولة حديثًا. وبينما أصعدُ مع جدتي الدرجَ المؤدي إلى غرفتنا أكاد أسمع في سرّي هذه الروائح التي تُسَكّنني وتغبطني. وأشعر أن الراحة التي أجدها خلف هذه الجدران السميكة من القلعة لا تضاهيها

Twitter: @ketab_n

الراحةُ التي أشعر بها في بيتنا. ويمنحني النظرُ من النافذة الشعورَ بالأمان، مثلما يشعر طُيَيْرٌ حين يكتشفُ بيضةً كبيرة من الحجر فيختبأ وراءها، وهو على يقين أنّ القوقعةَ الحجرية قد وقفت صامدةً أمام العواصفِ طوال قرون طويلة. وفي ما يلي من أيام أحصل على ملابسَ جديدةٍ فأشعر كأني قد بُعثتُ مرة أخرى. وأجلس بكامل الاحترام إلى الطاولة التي أُعِدّت بشكل رائقٍ جميل، ويُدهشني كثيراً ألا تعترض جدتي على هذا البذخ في الأطباق والأواني، كما اعتادت أن تصف طاولتَنا إنْ أُعِدّت على هذا الشكل. وتمدح جمالَ حديقة كنّتها، ولا تخفي إعجابها بأرضيتها المزهرة. ولا تتّخذ هيئةً متجهّمة حين تزيل الفروعَ القديمة لكثير من شجيرات الحديقة، مثلما تفعل في منزلنا. لطيفٌ المكانُ هنا، تقول، وهي جالسة على مقعد الحديقة، بين شريحتين كبيرتين من الكعك، تلتهمهما واحدةً بعد الأخرى، من دون أن تشعر بالإنزعاج، ومن غير أن تقدّم لنفسِها تبريراً. قبل الغداء، ترافقني في جولتي حتى لا تظل بين ساقَي كنّتها في المطبخ، كما تقول. ونذهب إلى إسطبل الحظيرة وتطلب من سائس الإسطبل إنْ كان في الوسع مشاهدة الخيول. فالبهائمُ الجميلة تعجبها كثيراً وتُذكّرها بقطعَتي مزرعتها التي كانت مسقط رأسها، ولم تكن الخيولُ فيها تُربَط إلا أيام الآحاد أمام عربة النقل أو المزلجة، من أجل تهيئتِها في باقي أيام الأسبوع.

تشرح لي قواعد التقاليد في القلعة وتدعوني لأن أحيّي بصوتٍ عالٍ الكونتات والعاملين في المزرعة، وأن أردّ بلطفٍ على أسئلتهم. وتقول إني لا أملك حقّ التبوّل في الهواء الطلق، أو اللعب في فناء القلعة. وعليّ أن أعبُر هذا الفناءَ بسرعة. وتقول خيرٌ لي أن أسلك الطريقَ المحاذي للإسطبل وأنا متوجهة إلى الحديقة، من أن أجد نفسي في مسار أسيادِ المزرعة. في هذه اللحظةِ يصل الكونت في اتجاهنا، ويُحيّي جدتي وينحني لها انحناءةً خفيفة ويشدّ على يدها. وبدوري أمدّ إليه يدي في عزم وثقة. ويأمل في أن نكون قد سُررنا على أراضيه وانشرحتْ صدورُنا. ويطمئنُّ على

Twitter: @ketab_n

صحة جدتي. ولكَم يدهشني أن أسمعها وهي تقول إنها في صحةٍ جيدة، وتُلقي إليه نظرة دهِشة. تقف جدتي منتصبةً وتضع يدَها على بطنها. لو كنتُ أجهل أنّ اللغة الألمانية لا تَحْضُرها إلا في عناءٍ، ما دامت هذه اللغة ليست عندها سوى لغة المعسكرات، كما تقول، لخلتُ أنها تنوي الدخولَ مع الكونت في محادثة طويلة. وأتوقع على أي حالٍ أن يسألني الكونت إنْ كنتُ أتحدّث الألمانية، مثل كل الغرباء الذين يتِيهون في وادينا. فلو سألني لأجبتُه بنعم، حتى وإن راودتني بعض الشكوك. لكنّ الكونت ما لبث أنْ أنهى أسئلتَه، وواصل سيرَه نحو الزريبة.

نواصل مسيرنا نحو البِرك. طريقُ الحصى يغطي بحجابٍ من الغبار حذاءَ جدتي الأسود الذي صنعه الإسكافي بيركو.تحمل جدتي ملابسَ الأحِد ووِشاحًا تعقِده خلف العنق. وترفع في أناقةٍ أكمامَ قميصها فيظهر ساعِداها الرقيقان القويان. وبالقرب من البركة الكبيرة نجلس فوق زورق التجسير. ونرى سمكَ السلمون والكُمهةِ وهما ينجريان في الماء الأخضر العكِر في انسياب، وقد قتم لونهما في القاع الماء الوحِل. وبينما نواصل سيرنا نحو البركة الثانية إذ بنا نضل طريقنا وعبثًا نبحث عن مسار جديد. فتنزعج جدتي وتقول علينا بالعودة إلى الوراء، وكأن أحدًا أساء إليها. وأثناء العودة يصل حطاب الكونت بجراره في اتجاهنا ويتوقف ويسأل إنْ كنا نريد أن يأخذنا معه، فهو على أي حالٍ سيمرّ في طريقِه بالقلعة. ونركب فوق المنصة الهيدروليكية، ونصل واقفتَين إلى القلعة. أنقلُ إليكم الهاربتَين، يقول الحطاب للعمّة التي خرجت من المنزل لتعرف مَن القادم وتشكره فيرا، وتستعيد جدتي مِزاجها. وتقول أخال وكأن كلّ الناس يعرفونني هنا. ما من امرأة عجوز قبيحة مثلي تُخفَى على أحد!

Twitter: @ketab_n

تصل موضةُ السفر إلى ليبينا. فجأة تستحوذ حمّى السفر على الجيران، فيفكرون بصوتٍ عالٍ في الأماكن التي كانوا دوما يرغبون في الذهاب إليها، أو في ما يمكن أن يغامروا به مرة أخرى بعد سنوات عديدة. وتأتي بريج ومونتي ولوشاري، وأماكن الحج، على رأس المقاصد المرغوبة، وكذلك معسكرات الاعتقال في ماوتهاوزن ورافنسبروك وبريج التي تبدو أفضل الأماكن في سلوفينيا.

سفيرسينا، زوجُ العمة مالكا، يعرف ماوتهاوزن جيدًا. فهو ومالْكا ووالدايَ ينطلقون لزيارة المعسكر السابق مع مجموعة سلوفينية. وعند عودتهم شرعوا يقصّون ما رأوه في ماوتهاوزن، مع كل أولئك الناس الذين تجمعوا في حفلٍ تذكاري في موقع المعسكر. ويقول والدي إنّ المعسكر تحوّل إلى متحف. وقد أراهم سفيرسينا الكتلة التي كان فيها سجينًا، وتوجَّه معهم إلى المحجر الذي لقي عنده العديدُ من السجناء حتفهم. وقالت أمي إنها لا تفهم كيف يمكن لامرئٍ أن يظل حيًّا في معسكر اعتقالٍ، فتلقي إليها جدتي نظراتِ استغراب وعِداء. ويتحدث والدي عن مجموعة من السجناء البولنديين زينوا بالورود منزلاً يقع بالقرب من ذلك المعسكر. لقد تأثر والدي أيما تأثر لرؤية رجلين قدِما من بولندا ليُقبّلا صاحب ذلك المنزل ويشكرانه على إنقاذه لهما، وفي الحال تلألأت الدموعُ فوق خدي والدي. إنها المرة الأولى التي أراه فيها باكيًا فأشعر بالارتباك والحيرة.

تقرر جدتي الذهاب هذا العام إلى رافنسبروك. يقولون إن الرحلة تستمر أيامًا عدة. وبعد عودتها، لا أكاد أراها ممدّدة بالقرب مني على السرير، حتى أشعر بالطمانينة. كانت رحلة صعبة، تقول. فمن جميع أنحاء أوروبا جاءت النساء إلى المعسكر. وقد أعجبتها المتحدثات كثيراً، فلم تفهم منهن كل شيءٍ لكنْ راقتها

Twitter: @ketab_n

اللهجة التي تحدثن بها. وتروي أن سجينات سابقات اجتمعن على موقع المعسكر. كثير من النساء وقفن على شاطئ البحيرة، وبكين. وألقين الزهور في البحيرة وهن يساندن بعضهن البعض. وقد أخذتها الفرنسيتان والهولنديات اللواتي وقفن خلفها يستمعن إلى المتحدثات، بالحضن. وقد ذكرت اسمين اثنين ما انفكت ترددهما دائمًا، ميسي وكتاركا، وهما اسما ربيبتها وسلفتها اللتين لقيتا حتفهما في المعسكر. تقول جدتي أنها لا تملك إلى أن تفكر بلا انقطاع في ميسي وكتاركا. وقد حملت معها كتابين. كتابان يمكن أن نقرأ فيهما ما حدث في المعسكر. وقد أرتني إياهما، وأرتهما لأمي الشكاكة بعد أن تقرأها عندما يحين وقت قراءتهما.

بعد ذلك بقليل تصل إلى بيتنا إشاعة مفادها أن سميرتنيك ديبرياك اشترى سيارة مفتوحة (بريك) يستطيع أن يحمل فيها ثمانية ركاب. العديد من الناس، كما يقولون، رأوا من البلاد الكثير بفضل سميرتنيك. ولا تنتظر جدتي كثيرا فتنظم رحلة إلى بريج. وتقرر مرافقتي لها، لأنه حان الوقت بالنسبة لي أن أقوم بهذا الحج معها.

في الصباح الباكر نعبر عنق سيبيرغ ونتوقف عند الحدود. وامد إلى الجمارکي اليوغوسلافي جواز سفري الأول. يتحدث الكرواتية أو الصربية الكرواتية ويريد أن يعطينا الانطباع بأننا على حدود دولة ليست أي دولة ومن حقها أن تراجع بعناية دقيقة جميع المسافرين. ويتكفل سميرتيك بالتواصل لأن لديه خبرة مع رجال الجمارك. وما إن عبرنا الحدود، حتى بدأ رجال المجموعة يروون مغامرات كانت لديهم على الحدود في الماضي. الشيء الوحيد الذي أثارني أن جارنا بيتر الذي أعرفه جيدًا، ادعى أنه هرّب في داخل سلة، في ليال عدة، هيكلاً عظمياً لدب من دببة كهوف أولسيفا، لكن ذلك كان قبل الحرب.

وتزدحم كنيسة بريج. ومع المؤمنين في صلاتهم، نتزاحم حول المذبح الذي تجلس عليه مادونا مرسومة متوجة. وتجثو بعض النساء على ركبهنّ ويسحبن على هذه

Twitter: @ketab_n

الهيئة حتى المذبح. وأحذو حذوهنّ وفي ذهني أن من واجبي أن أرضى بجواربي القذرة إذا كنت أريد أن أعطي وزناً أكبر لطلباتي. وتركع جدتي، وترسم إشارة الصليب ثم تقوم. ويتقدم نحوها أحدُ الأشخاص ويفسح لها مكاناً على المقعد. وخلال القداس... وأسائل نفسي ما الذي يحدث في رؤوس الناس الذين يصلون وينشدون. وأخيرا أجلس على ركبتي جدتي. وتقرص خدي لكي تحسسني بأنني مهدّدة. فإذا لم تهدئي فلن أصطحبك معي في المرة القادمة، تقول.

عندما نخرج إلى الهواء الطلق بعد قدّاسٍ طويلٍ عريض يبدو خارج الكنيسة كأنه جناحٌ مستطيل عالٍ ومشعّ، ويبدو داخل الكنيسة مثل خليةٍ صغيرة نتطلّع فيها للخروج منها مثلما دخلنا من قبل إلى عتمتِها بحثًا عن الطهارة. وفي ساحة الكنيسة نمرّ أمام أجنحة البيع فتشتري جدتي مسابح وملاعقَ خشبية. ولا تبخل علي جدتي بعلبةٍ صغيرة من البسكويت، وأيقونةٍ مقدسة عليها صورة الكنيسة ترفرف من فوقها ماريا من بريج في قلب سحابة صغيرة مستديرة.

في المطعم الواقع على الطرف الآخر من ساحة الكنيسة نتصدّر إحدى الطاولات في القاعة الكبرى. فنجلس من تحت صورة رئيس الجمهورية الذي أخذ ينظرُ إلينا من على الجدارِ وعلى رأسه قبعتُه بنجمتها الحمراء. ويتأمل سميرتنيك الصورة وهو يقول أنّ المارشال تيتو ينظر أمامه، إلى كل شخص يقف في الغرفة، أيّاً كان المكان الذي يجلس فيه، حتى يتعقّبه بعينيه إن صح القول. وذاك ما يمكن التحقق منه عند الدخول إلى القاعة. وينهض رجلان من طاولتنا ويتوجهان إلى المرحاض، حتى يختبرا على حد قولهما، نظرة المارشال إليهما. وفور عودتهما إلى القاعة جيءَ إلينا بحساءِ الشعيرية. لم يُطل الرجلان الوقوفَ تحت الباب الذي توقّفا عنده حتى تحضنهما عيونُ المارشال اليقظة. وبدافعِ الفرح، أو الشعور بالراحة بعد صلاةٍ غزيرة يطلب الحاضرون النبيذَ لإرواء عطشهم. شرابُ السفيكْ لا تعترض عليه جدتي، تقول

Twitter: @ketab_n

وهي ترفع قدحَها وتدقّه بأقداح الآخرين. فما أحوجنا لمزيدٍ من الطاقة لزيارة مَوقعين آخرين، بيونغ وبْليدْ.

قرية بيونج ليست بعيدة عن بريج. سنزور سجناً قديمًا، يقول سمارتنيك، سجن عُذّب فيه وقتل الكثير من الناس أثناء الحرب.

ننحدر بالسيارة أمام جدارٍ عالٍ طُليَ بالأبيضِ، وندخل إلى قلب القلعة القديمة التي هيّأ فيها النازيون زنزانات سجونهم. هناك على جدران الجناح الذي يقع فيه السجنُ عُلّقت قوائمُ بأسماء الذين قُتلوا، مُوقَّعة باسم حاكمِ المقاطعة النازية في كارنْتنِر. وتأخذنا إحدى النساء عبْر الغرف، وقبل أن ندخل في ممرّ معتمٍ تدير المرأةُ مسجّلاً فتنطلق منه صرخاتُ طفلٍ ينادي والدته في يأسٍ وقنوطٍ. ويصفُ سمارتنيك لجدتي تفاصيل ذلك اليوم الذي جاء فيه الجستابو يسألون عن عائلته في تروجين. فلم يسعه يومئذ حتى البكاء، يقول. وأُمسك بِيد جدتي لفرط تأثّري بصرخات الطفل اليائسة. وتقع الصرخاتُ على كل ما تقع عليه عيناي، مثلما تغطي بطانيةٌ من الأصوات المزعجة كلَّ ما هو مرئيّ وتقتلع نحو وضَح النهار كلَّ ما هو خفي. ولا أعرف كيف أشرح لجدتي أني لم أعد أطيق صرخات الطفل، إذْ تواصل الاستماع إلى سميرتنيك وتقول أني لا أحسن السلوك. وإذا بهلعي يصل إلى قوة العاصفة. وعندما نخرج في النهاية أحسّ كأني فقدتُ نصفَ رأسي، وأني صرتُ في عينِ مَن يراني من الخارج، مثل منزلٍ أتلفَت العاصفةُ سقفَه.

بليدْ تفتن الجميع. يقول سميرتنيك أن لا مفر من الصعود إلى القلعة المترعة في الأعلى حتى نحصل على رؤية على البحيرة. ونركن السيارة بين الأشجار ونصعد سيراً على الأقدام نحو الموقع. وتبدأ روائح الأطعمة تأتي إلينا من خلال أبواب ونوافذ المطعم الذي يقام في داخل الحصن. ويبدأ مزاج الحجاج ينتعش شيئًا فشيئًا، ولم نكد

Twitter: @ketab_n

نجلس في أماكننا على الشرفة حتى شرع الحاضرون في طلب المشروبات والمعجنات المطعّمة بالقشطة، وبدأت مجموعةٌ من الموسيقيين من وراءنا في عرضِ آلاتها.

أكلُّ هذا من أجلنا، يسأل سميرتنيك، أليس هذا كثيراً علينا!

إنه عرس مزدوج، يقول أحد الموسيقيين، جديرٌ بأن نحتفل به!

يدخل أوائلُ مدعوّي الزفاف وتنطلق الموسيقى. وتلتفّ مجموعةٌ من المدعوين حول الزوجين الأوّلين، ويحلّق الخدم بالصواني وكؤوس النبيذ المملوءة حول الضيوف الذين غمرتهم البهجةُ والفرح. وتقود مجموعةٌ من راقصي الفولكلور الزّوجَين الآخرَين نحو الساحة، تدفعهم إلى الرقصِ صيحاتُ الضحك والفرح.

تقف جدتي وترفع كأسها للضيوف. وفي غمرة الضجة ينزاح وشاحُها فتبرز خصلةٌ رفيعة من شعرها الأبيض وتُجاوز طرف الوشاح. ومن دون كلمةٍ واحدة تضع الكأسَ على الطاولة، وتتقدم نحو الضيوف. ثم تمسك بكُمّ أحد الرجال وتهمس شيئًا في أذنِه. ويميل عليها برأسه ثم يضع ذراعه على كتفيها ويأخذ في الرقص معها.

ما لبثت المرأةُ العجوز صاحبةُ النظارات المدوّرة، والوشاح فوق رأسها أن جلبت وهي تراقص شابًا غريبًا انتباهَ المصورين إليها. فتحوّلوا عن الأزواج وبدأوا يصوّرون هذا الثنائي الذي لم يكن مألوفًا.

أثناء الفواصل تتجاذب جدتي أطرافَ الحديث مع مُراقصها، ولا ترضيها العودةُ إلى الطاولة إلا بعد رقصات عديدة. أشكركم على الرقص، وظهيرةٌ جميلة لكم جميعًا، يقول الرجل لجدتي برمشةٍ من عينيه. فهو من دولجنسكو، تقول جدتي. لم أقل له سوى أني من كارنْتنِر. أعجبْته وأُعجِبتُ به. هذا ببساطة كل ما في الأمر.

يبتاع الحجاجُ مؤونتهم من النبيذ والسجائر قبل أن يعودوا إلى منازلهم. يفكرون في الكيفية التي يَعبرون بها الحدود مع هذه البضائع، ويقترح أحد الرجال أن يُحمّلني علب السجائر، ما دمتُ في ثوبي التقليدي. تسأل جدتي إن كانت الفكرة مقبولة وترميني بنظرة حائرة. فأرتبك وأسأل ما الذي يمكن أن يحدث في حال عثر الجمرك

Twitter: @ketab_n

على السجائر معي، وإن كنت سأقع في الأسر. فينفجر الحجاج ضحكًا.

تهتز السيارة على طول الطريق المعبد المؤدي إلى كارنْتنِر. ونتحول نحو وادي كوكرا. فجأة يصاب أحد الحجاج بالغثيان. يتوقف سميرتنيك على حافة الطريق ويفسح النزولَ للرجل الذي ما لبث أن أخذ يتقيّأ. ويقول أحد الرجال إذا تقيّأ هذا الرجلُ كثيراً سيصحُو من نشوته سريعًا، وحينئذ لن يفيده الشربُ شيئًا.

يتوقف سميرتنيك فجأة مرة أخرى، بضعة كيلومترات قبل الحدود. حاجٌّ ثانٍ يريد أن يتقيّأ، فيندفع في قلب الأشجار البرية، عند أسفل الطريق. نسمع في قلب الظلام تشنجاته وتنفسه العميق.

يطلب سميرتنيك من الركاب أن يُخفوا السجائر والخمر، وأن لا يتركوا على المقاعد سوى الكمية المسموح بها، حتى لا يعطوا الانطباعَ بأنهم لا يحملون معهم شيئًا. نضع بعض زجاجات الخمر وعلبَ السجائر في الصندوق تحت العَجل الاحتياطي، ونُسرّب الباقي في أكمام السترات التي طويناها، وكأن شيئًا لم يكن. وأنتِ، تسألني إحدى النساء من سنّ معينة، أتسمحين بأن نخفي بضعَ علب من السجائر تحت فستانك، فأنتِ طفلة ولن يزعجك الجمركي. وأوافق بإشارة من رأسي وأُفرجُ عن رقبتي حتى تُسرّب جدتي علب السجائر خلف الجزء العلوي من فستاني. وتقول يجب أن تضعي سترةً فوق كتفيك حتى لا يلاحَظ نصفَكِ الأعلى كثيراً.

عندما نصل إلى مركز الحدود أكون جالسة في المقعد الخلفي، المكتظ بعلب السجائر، وممدودةً فوق خرطوشين إضافيين أخفاهما الحجاج من تحتي، ومتظاهرةً بالنوم. رائحةُ السجائر تهيّج أنفي. ويسأل الجمركي ما الذي يحمله السادة والسيدات فيجيب فلوريان بأن كل واحد اشترى زجاجةً من النبيذ وبضعَ علبٍ من السجائر، الكمية المرخصة.

والفتاة، يسأل الجمركي؟

فأضغط على جفنيّ وأرغب في أن أنظر خلسةً حتى أرى ما الذي يحدث.

Twitter: @ketab_n

أوَتظن أنها ناضجة، يقول أحد الرجال، إنها فتاة صغيرة جدًا.

هذا، لكُم كلُّ الحق فيه، يجيب الجمركي قبل أن يأذن لنا بالانصراف.

ولما نصل إلى طريق النافذ من تحت منزلنا ننزل من السيارة وتقول جدتي إنها في المرّة القادمة سوف تتقصّى بدقة أمرَ الرجال الذين يذهبون إلى بريج. لأنّ مع بعضهم لا يستقيم الحج.

قبل ذهابي إلى السرير أضع على ظهر مقعدي فستاني الذي تفوح منه رائحةٌ كريهة. أنا واهنةٌ وأشعرُ أن جسدي قد نما بوصات عديدة. لقد كبر كيفما اتفق له أن يكبر، هذا ما خطر ببالي، قبل أن يغلبني النوم.

Twitter: @ketab_n

السجائرُ التي جلبناها لوالدي لم تفلِح في تغيير مزاجه. يشكرنا على البضاعة المهرّبة، ولبعض الوقت لم يعد يرسلني إلى النزل لأشتري له عُلبتَي أستريا، سجائره المفضلة القوية التي ليس فيها فلترْ، المعبّأة في علبةٍ بلونها الأخضر الفاتح. والدي منهمكٌ في همومٍ أخرى.

بين عشيةٍ وضحاها يرفض حصانُه أن يجر العربة في عزّ موسم حصاد الكلإ. يضرب والدي البهيمة باللجام، فيثور الفحلُ مذعورًا تحت الضربات، وينتزع مجرّ العجلة ويقلب الكلأ. ويظل الحيوان المذعور يسحب مربط العربة المفكك لغاية الإسطبل، ثم يتوقف، وهو يشخر، ويرغي بمنخريه. وتُحدِث الصدمة من تحت جلده موجاتٍ من الارتجاجات المتوالية. يصرخ والدي ويسحب المقاليد. أتوسلُ إليه أن يكفّ عن صراخه، لكنْ عبثاً، لأنه في أوج السخط، مثل حصانه تمامًا.

تشدّني جدتي إليها في المطبخ. تشرحُ لي أن الحصان أصبح متقلبَ الأطوار بعد سنوات طويلة من العمل الشاق، استنفَد فيها كلَّ قواه. فعلى مدى فصولِ شتاء طويلة كان والدي يكسب المال الضروري لبناء منزل، وهو يؤدي مهمة خطيرة، ظلّ خلالها ينقل الخشبَ لحساب الكونت، وهذا هو الذي أنهك الحصان في النهاية.

أوَيريد والدي أن يشيّد بيتًا؟ أسألها مندهشة.

أجل، تقول جدتي. لكنها سوف تعرف كيف تمنعه من هدْم البيت القديم.

يقرّر والدي أن يبيع الفحل. ذات يوم أصبح المربطُ خاليًا في الإسطبل. ظل شهورًا لا يروّجُ سوى عرقِ الخيل. ولم تبدأ الروائح التي ينفثها الفحل في الاختفاء إلا تدريجيًا لتفسح المجالَ لروائح الثيرانِ الشابة التي تحرك رؤوسها في تذمّرٍ وبرطمة، كأنها ترغب في التخلص من القيود التي وُضِعت حول أعناقها.

Twitter: @ketab_n

في صباح ذات أحدٍ تندفع والدتي إلى المطبخ، وهي تبكي. تطلب من جدتي أن ترافقها، لأنها حائرة لا تعرف ماذا تفعل حتى تسعف والدي. وتبدو جدتي كأنها مرتابةٌ في ما يحدث، فتأمرني أن أُحضِر من العلية عصًا من الخيزران. ثم تبدأ في كشطِ جمرِ الموقد بالمسعر، ثم تزحلقه في مقلامٍ من حديد الزهر، ثم تُكسرُ العصا التي جِئْتُها بها إلى قطعٍ صغيرة وتضعها على الجَمر مع بعض الأعشاب. وفي الحال يرتفع الدخان. في تلكَ اللحظات تهرع والدتي إلى شرفة منزل القدماء وتشير إلى المنحل حيث والدي. وبسرعة البرق تمرّ جدتي أمامنا وفي يدها المقلاة المُدخّنة. وأسمع والدي يغني في المنحل . Vigred se povrne أغنية حزينة عن الربيع الذي يعود كل سنة، ويبعث الحياة في كل شيء إلا فيه. فهو لن يشهد ربيعًا آخر، لأنه سيموت قريبًا. أسأل أمي ماذا جرى لأبي، فتكتفي بهزّ الرأس وهي تشدّ منديلاً فوق شفتيها شدًا. وتُحرّك جدتي المقلاة صعودًا وهبوطًا أمام المنحل وتُبخّر مدخلَه. ثم تدخل إلى المنحل وتخرج على الفور دون المقلاة. وتتجه إلى المطبخ ولا تنبس ببنتِ شفة. أحدّقُ في باب المنحل المفتوح وأخال أني سأرى والدي وفي يده مسدس. لكنه يخرج، من دون سلاح، ويجلس على عتبة الباب ويُغرق رأسه بين يديه. وتهمس أمي أنّ في أمره ما يدعو للقلق عليه. وأتساءلُ كيف لي أن أُعينه، وتقول أمي: الصلاة. ادعِي له! وأتلو لأبي واحدة من تراتيل «أبونا». ويرفع أبي رأسه وينظر إلينا في استهجان، ثم يستأنف غناءه، ويُخرج المقلاة من المنحل ويضعها في الهواء الطلق.

في عطلة نهاية الأسبوع ترسلني أمي إلى النزلِ لألتحق بوالدي الذي نسيَ أن يعود، كما تقول. فهي لم تعد تملك رغبة في البحث عنه، لأنه لا يستقيم في مشيته على الطرقات. إذا انتهى الأمرُ انتهى، وكفى، تقول أمي.

في بيتِ راستونيك يغرق المطبخ في الدخان وتملؤه الأبخرة القادمة من المقالي. وعندما أفتح الباب أسمع صراخًا في الداخل أن تقاعد والدي قد آن أوانه. أرى

Twitter: @ketab_n

والدي جالساً على الطاولة الكبيرة، من ناحية الجدار، وعلى شفته ابتسامة صغيرة. أجلس بجانبه على مقعدٍ خشبي. عليكَ أن تعود الآن إلى المنزل، أقول، وكأنه لا يدري. فيقول أجادّةٌ أنتِ، وهو يطلب لنفسِه آخر بيرة، وعصيرَ ليمونٍ لي.

تُسارع صاحبةُ المحل في تقديم هذه المشروبات إلينا، وتسأل ما الجديدُ في حياتنا، وكيف تسير أموري في المدرسة. هل أنت متلهفة لرؤية منزل جديد، تقول مستفسرة. وأومئ إليها برأسي أني كذلك فعلاً، وأرمي والدي بنظرةِ استجواب حائرة. فيقول، في الأمر وعدٌ، والوعدُ إنْ ضاعَ ضعتُ أنا.

ولكنْ لا، يقول بيبي، ابن عم والدتي، لا شيء يدعوك لتقليد هراء الآخرين. الزمنُ مناسب للبناء، ثم ألم يلاحظ والدي أن أمام كل منزل تقريبًا خلاطُ إسمنت؟ يا إلهي، أجل، يجيب الدي وهو يسحَب نفسًا من سيجارته.

يسدل الليلُ ستارَه عندما نغادر الفندق. وفي الطريق إلى البيت، يرغي والدي ويزبد سخطًا ضد الخصوم غير المرئيين. من وقت لآخر يشير إلى السماء ليلاً ويقول: هنا الدبّ الأكبر، أترينَه، وهناك الدبّ الأصغر. أمشي بجانبه ولكن على بعد مسافة، وأتجنب لمسه. هل ماما هي التي أرسلتكِ، يسأل بصوت عنيف يبدو فيه غضوبًا أكثر من ذي قبل. وأكذب فأقول لا، بل إنها جدتي. طيب، طيب، يقول في تذمّر ويستأنف مسيره بهدوء.

في المنزل تضع جدتي فوق الطاولة الفرموت (نبيذ أبيض معطَّر) ونقيع نبات القنطريون. إنه العشب ضد مئة مرض. وتطلب من والدي أن يشرب كوبًا كاملاً قبل الذهاب إلى النوم. أريد أن تقول لي أمي إنْ كان بأبي داءٌ فتقول إن به مغصاً في المعدة، وإنه لا يكاد يغمض طوال الليل. وهي أيضاً لا تنام عندما يئنّ من فرط الألم. لكنه لا يريد الذهاب إلى الطبيب. وتفترض أن لعل ذلك بسبب التغيير الذي

Twitter: @ketab_n

بدأ يقترب. سنحصل على منزل جديد وسيكون لي فيه غرفتي الخاصة، وتسألني إن كنتُ فرحة، وبرأسي أومئ بنعم، على الرغم من أنّ مغادرة غرفة جدتي لا يثير حماسةً في نفسي بتاتًا.

في اليوم التالي أرى والدي ممدّدًا على مقعد الموقد المنجّد طلبًا للراحة. لقد وضعتْ والدتي على بطنه لزقةً من العشب الذي تنبعث منه رائحة القش الرطب. ويقول والدي إن الألم جعله يراجع أثناء الليل، لكنّ القيء لم يكن سوى سائل، مخاط أصفر. وأنظرُ في وجهه، في قلقٍ، وأخرج بضمير سيئ، لأنني لا أستطيع أن أفعلَ له أيّ شيء.

Twitter: @ketab_n

تقول جدتي إن الوقت حان لكي تأخذني إلى مزرعة هيرفلنيك، ما دام في جعبتها قدرة على المشي. فبعد الآن، على أي حالٍ، سيفوت الأوان.

ذات صباح توقظني في وقت مبكر وتذهب إلى العلية لتأتي بعصا من الصفصاف أطول منها. انتعلي أحذية مناسبة، لأن الطريق صاعد.

ننحدر أوّلا نحو المرج المنحدر إلى الطريق الريفي. ولما نصل تستدير جدتي وتنظرُ نحو منزلنا بجدرانه البيضاء المتلألئة في قلب أشجار الفاكهة. تقول في تنهّد إنها لا تتصور أن هذا البيت القديم آيلٌ للهدم يومًا. كم من أجيالٍ أواها هذا البيت، فهل يعقل إزالته!

ننحرف نحو دربٍ سالكٍ تتسلق أربطتُه الواسعة السفحَ الشمالي من الوادي، متعرِّجةً من المرج إلى الغابة. أرى المشهد وهو يؤدي رقصةً مترنّحة فوق عدسات نظارة جدتي. المروجُ تتموّج متدرجّةً نحو قمم التلال المدورّة، وتَغرَق قممُ أشجار التنوب في أعماق الوادي الغامضة، ويلقي مربّعُ السماء الصغير بضوئه في ماءِ الجدول المتلألئ في الأسفل، بالقرب من الطريق.

في الغابة يصبح المسارُ ضيقًا من تحت أقدامنا. وبعد فُرجةٍ يسرع بنا نحو ساقية صغيرة، ثم يصعد المنحدر الوعرَ ثانيةً كما لو أراد أن يُثنينا عن الاستمرار. فهو لزِجٌ ومغطى بأوراق الزان. تثير خطواتُنا جروفًا صغيرة من أوراق الشجر التي تتدحرج بلطف إلى أسفل منحدر الهاوية. ويشقُّ علينا المضيُّ قدمًا، فتتوقف جدتي بعد كل خطوة لاهثة. تريد أن تتوقف هناك في الأعلى، تقول، هنا لا نسطيع الجلوس.

في بداية الانحدار أسير في إثرها، وأتجاوزها في بعض الأماكن الأقل وعورة. وأسأل نفسي ماذا عساني فاعلة لو شعرتْ جدتي فجأة أنها صارت غير قادرة على مواصلة السير. لكنْ، على الرغم من مخاوفي تظل جدتي تثابر، وتُثبت من القدرة

Twitter: @ketab_n

على التحمل ما يجعل الناظرَ لا يكاد يصدّق عينيه وهو يرى قامتها الهزيلة. ونواصل الصعود، ببطءٍ، وفي عنادٍ، إلى أن نصل إلى مفترق الطرق في أعلى التلة التي نلمح من خلفها نافورة يتدفق ماؤها عبر ساقية خشبية نحو المعلف الخشبي. وتجلس جدتي على أرض الغابة بالقرب من النافورة وتنظر على الجانب الآخر من الوادي، إلى أعلى المزارع التي صارت على مستوى ارتفاعنا. وتلاحظ أن التغيّر قد طال الأماكن جميعًا، وتقول هنا أُضيفَت بناية جديدة، وهناك انتزِعَ شيءٌ ما، وهي تشير إلى الطريق الذي شُقّ حديثًا. لقد أحدث الطريق ندبةً فوق هذا السفح، تقول جدتي وهي تهزّ رأسها.

نتجاوز النبع فتصير الأرضُ أمامنا شبه مسطحة. ونقترب من مزرعة هيفيلينيك بخطى حثيثة. فهي تقع عند أقصى الجزء العلوي من المرج الصاعد صعودًا خفيفًا. هناك ظِلُّ ساعة شمية يهتز على واجهة البيت الرئيسي الكلسية. المباني فارغة، مهجورة. لا أحد يعيش في هذه المزرعة التي امتدت شهرةُ ساعتها الشمسة لأميالٍ من حولها، تقول جدتي وهي تتحرك بخطى ثابتة نحو الإسطبل. وخلف الإسطبل يلوح لنا طريقٌ يؤدي إلى وهْدِ رمشينيغ الذي وصلت منه النساء في تلك الفترة، قادمات من ليبينا بعد نجاتهنّ من المعسكر، تقول جدتي في بداية الرواية. لقد هربن خلسة عبر حدود كوبريفنا. وقد ضحكن وبكين في آنٍ وهن يتسلقنّ السياج الذي يفصل يوغوسلافيا عن النمسا. وفجأة بدت لهن العودة إلى الديار في غاية البساطة بعد تيهِنّ الطويل، فصرن يتعانقن. وبعد أن عبرنا الحدود لم يُتعبنا المشي، تقول جدتي. لقد كنّ معًا على الطريق طوال اليوم. وقد وصلن إلى هيفلينك مع هبوط الظلام. وإذا بجدتي تسمع شخصًا يحلب في الأسطبل فتدخل وتسلّم. لكنّ راعية البقر، من فرط فرحتها، تقلب دلوَها فيتناثر الحليبُ في كل مكان من حولها، تقول. وتقفز ميلكا على قدميها وتصرخ ميتزي، يا لها من عودة! لقد حسبناكِ في عداد

Twitter: @ketab_n

الأموات. وتجيب لستُ وحدي، وتشير إلى النساء اللواتي وقفن أمام الإسطبل، غريغوريكا، وميمي، وميتزي، وفريدا، ومالكا. وفي الحال يقبل عليهنّ كل الذين يعيشون في المزرعة. وعند هيفلينك قيل لميمي إنه من العبث أن تعود إلى بيتها، لأن كل شيء قد دُمّر عند كاخ. وتذهب غريغوريكا عند ريجلينك على أمل أن يؤويها أحدٌ هناك، تقول جدتي. لقد دُمّرت مزرعة غريغوريتش، وتوفي زوجُها في داخاو، وأودع الأطفال عند الأجانب. كانت النساء في حيرة من أمرهنّ. وعند هيفلنيك أيضًا علمت جدتي أن جدي والأولاد قد وصلوا إلى المنزل. وتُقدّم ميلكا الحليب الطازج لهؤلاء النساء العائدات إلى الديار. ولن تنسى طعم هذا الحليب، تقول جدتي، قبل أن تغوص في الصمت.

جلسنا على مقعد خشبي بالقرب من مدخل المنزل حتى يأخذ الزوارُ قسطهم من الراحة. وتئنُّ جدتي أنينًا طويلاً ولكن في تحفظ واعتدال. وحين يزول أنينُها نغادر المكان وننصرف. وعند وصولنا إلى مراعي أسفل هيفلنيك تتوقف جدتي وتقول إنها خشيت في تلك الأيام ألا يرحّب بها أحدٌ في منزلها. زوجي سوف يطردني. لستُ تلك التي كنتُ، قالت، وعليّ أن أسأله، هكذا قرّرتْ، حتى تكون الأمور واضحة، والآن فورًا، من دون انتظار. في الغابة كان الظلام كثيفًا، وفي أماكن عدة كانت جدتي تسير متحسّسةً طريقها. كان الزمنُ أوائلَ أيلول.

عندما نخل الغابة، يظل الطريق إلى حينٍ جليًّا واضحًا أمامنا. ومن ورائنا يلاشى ضوءُ المرج، كأن شخصًا أطفأه بعد أن غادرنا مزرعة هفيلنيك.

وفي الليل، قبل النوم، تُنهي جدتي قصةَ عودتها، واللحظةَ التي دخلت فيها إلى المزرعة، إلى حيث عادت أخيرًا إلى بيتها. لقد رأت أنّ النور ما زال ينفذ إلى الغرفة الكبيرة، فتقترب من النافذة وتتطلع إلى داخل الغرفة. وترى زوجها جالسًا على مقعد الموقد، مستغرقًا في أفكارِه. كان يحاول خلع حذائه. كان قد خلع فردةً

Twitter: @ketab_n

ووضع قدمه فوق الأرض، فيما كانت الفردة الثانية لا تزال في رجله بعد أن فكّ رباطها. كان جدكِ يحدّق في الفراغ، تقول جدتي، وكان ينظر نظرة غريبة، فراعني أمرُه فجمعت قواي ونقرتُ زجاج النافذة. وفي الحال رفع عينيه، لكنه لم ير جدتي. عندئذ طرقتْ جدتي زجاج النافذة مرة ثانية. وعلى مهلٍ نهض وتوجه نحو المدخل. وفتح الباب وسأل من بالباب. أما زلتَ متمسكًا بي، هل عرفتني؟ أجابت جدتي في قلب العتمة. ميتزي، أعدتِ، صرخ فيها زوجُها قبل أن يُقبّلها في شغفٍ واندفاع وما لبث أن فكّ وشاحَها. وينهار جدي على الأرض. لقد قبلني قبلة كانت من القوة ما جعل وشاحي يطير مني، تقول جدتي مبتسمة. وعندئذ أفاق الصغار من نومهم. أجل، أقول أفاقوا من نومهم. وفي الحال غفوت. ليلة هنيئة، لاكو نوك!

lahko noč!

Twitter: @ketab_n

صار موعد هدم البيت القديم يقترب كأنه شرٌّ محتومٌ لا مفر منه. يفكر والدي ووالدتي في جنونٍ وتميّج في الأماكن التي يمكن أن يُخزنا فيها أثاث البيت القديم وأوانيه أثناء الورشة. يتحوّل منزلُ القدماء إلى سكنٍ مؤقت، ويُنقَل الأثاثُ الذي تعذر وضعه في الغرف المزدحمة إلى العلية.

قبل أن نفرغ البيت القديم تظل جدتي تجول فيه أيامًا وأيامًا، فتتحسس الأثاثَ أو تجلس على مقعد الموقد وتتأمل الغرفة.

لقد أمضتْ أمسياتٍ جميلةً في هذه الغرفة، تقول جدتي، عندما كان المنزل ما يزال ينعم بالحياة والحيوية، عندما لم تكن الحياة حزينة كحزنها الآن. ففي هذه الغرفة رقصنا، وعملنا، تقول جدتي، بل وقد لعبنا المسرح وقرأنا القصائد الشعرية، في الفترة التي كانت فيه الفتياتُ ماكثاتٌ في المنازل. كانت كتاركا تكتب القصائد ومسرحيات قصيرة كنا نحفظها عن ظهر ثم نمثلها.

أجلس بجانب جدتي وأرى أمامي صوراً ظلية غير واضحة، ومن دون وجوه، وهي تمر في سكينة، أشباحٌ لم تتضح ملامحها إلا بعد حين. أتصور مسرحية وهي تعيد إلى الحياة زمرة الآباء والجيران فأراهم يتقاطرون أمامي. كل الذين كانوا جاؤوا الآن بملابسهم وأثاثهم وشرعوا يغنون لنا. ويوضحون لنا كيف كانوا يتسلون في الماضي وما الذي كان يضحكهم. ويتوقفون ويدورون في حلقات دائرية. ثم يحملون أمتعتهم ويتلاشون في جدار العدم والصدى. ويبدو جزء من الحياة وكأنه ينسحب من جسم جدتي النحيل ويرتفع الى السقف مثل نسمة هواء. ويرتج نفسُها مثل

Twitter: @ketab_n

ذكرى عارية، مثل ظل نفَس، أو ما يشبه النفَس تقريباً. وأخشى أن تنعجن جدتي على المقعد، أو أن تجف، لأنها ها هي ذي تبدأ في الذبول. وبحركة بسيطة من يدها قد يُكسَح جسمُها كسحًا من المقعد المنجّد، مثل نحلة ميّتة.

تنهض جدتي وتمسكني من يدي. المطبخُ، تعلمين أني لا أتخلى عنه عن طيب خاطر. جدك هو الذي هيّأه لي، تقول جدتي. الابتعاد عن الموقد يؤلمها، وعلى أي حال، فهي تريد أن تحتفظ بخزانة المطبخ. أقتفِي نظرة الوداع التي تحول في مدخل المطبخ ودرجه الخشبي المؤدي إلى العلية مع خزائنها الخشبية التي أُتقن صنعُها ودهانُها، والخزائن التي ما تزال تحتوي على المؤن، والصقالة مع العارضات والدعامات، والشرائح الخشبية والألواح، والفتحة الصغيرة في الجزء الخلفي من المنزل، والشرفة بالدرابزين الخشبية في الواجهة، وربطات الأعشاب المعلقة في أوتاد خشبية لتجف. أنا الآن في المدخن الذي اسودت جدرانُه، والتي تذكرني، بحسب الضوء الذي تتلقاه من الخارج، بثمار الكتش المجففة، المتغضنة أو المتألقة. وأمرُّ أمام فم الفرن الذي يشبه محيطه مشهدًا من الرماد بعد حريقٍ مدمر. وفي الخلف خزانةُ الأكل ورفوفها المصنوعة من الخشب الخام، تغطيها الأواني. وعلى الحائط، اللوح الخشبي الذي يحمل أواني الطين المطبوخة المتصدعة التي تمسكها خيوطٌ معدنية. وفي المطبخ الخزانة الخضراء، وخزانة المؤونة التي امتلأت أدراجُها وأبوابها بالثقوب لينساب منها الهواء. وزاوية الربّ في الغرفة الكبيرة، مع الصور والصلبان المقدسة. والمقاعدُ المنجّدة على طول الجدران، والطاولة الخشبية المربعة برسومها المرصعة. ودفّاتُ النوافذ ومصاريعها مع آثار العفن عليها. وفي الخلف غرفتنا التي تتلقى دفأها من موقد الخزف فلا يبرُد جدارُها الداخلي أبدًا. وخزانةُ الملابس، والأسرّة، وخزانة الحائط الصغيرة التي تحتفظ فيها جدتي بالعلاجات والصبغات. وأبوابُ المنزل بأطرها وأقفالها الحديدية. وقبوُ السقف المقبّب، والرفوف التي وُضعت فيها الفواكه. وزاويةُ البطاطا، ودلو الملفوف المخمّر، وبراميل عصير التفاح.

Twitter: @ketab_n

في اليوم الذي يصل فيه الجرّاف إلى المزرعة تقف جدتي على شرفة منزل القدماء وتشرع في النحيب: الآن انتهى كل شيء، كلّ شيء انتهى! الرحمة، يا إلهي، رُحماكَ أيتها القديسة العذراء ! ومن فرط فزعي أبكي مع جدتي. وأستمسك بمئزرها وأزعق زعيقًا حادًّا فتصرخ جدتي في والدي وهو ينظر إلينا حائرًا مشَوَّشًا. حتى الصغيرة فهِمتْ ما يجري، حتى الصغيرة ! تُودا، الحفّارُ، يضع يده على كتف جدتي، اهدئي، يقول لها مُلحّاً متوسلاً. اهدئي، ميتزي، إنّ الشباب يريدون أن يكون لهم شيء... يمتلكونه.

ينقطع بكاءُ جدتي ولم تُرسل سوى تذمّرٍ، عن تحدٍّ وتبجّح، عندما وقعتْ على الأرض آخرُ دعامة، وبدأ الجرّافُ يضرب الجدران القديمة. ثم جذبتني نحو واجهة المنزل المبعوجة وأشارت إلى رقم وقد ظهر تحت الملاط الأصفر. ١٧٤٣ ، منذ ١٧٤٣ وهذا البيت مأهولٌ، والآن فلن يساوي شيئًا، قالت في سخطٍ قبل أن تشرع في التنقيب داخل أنقاض الجدران، بحثاً عن أشياء تائهة. في ذلك الوقت، تزعم جدتي، كان الناس يختمون في الجدران أشياءَ يزعمون أنها تحمي البيت من النحس والتعاسة. ثم خدشتْ بضْع شققاتٍ عثرتْ عليها بين الركام، ثم ألقت بها، خائبةً متحسرة.

في فترات الراحة هذه يجلس تُودا بالقرب من جدتي. ففي الآونة الأخيرة، يقول، انشغل بِهمّ شقيقه كثيراً. ففي لحظات كثيرة يفقد أخوه الوعيَ بالمكان الذي يكون فيه. وفي الليل يهرب إلى الغابة، إذ يخال أنّ الألمان يطاردونه، ويظل يتسكع لساعات كالمجانين، ولا سبيل للتخفيف من روعه. إنه المعسكر، تقول جدتي، ولا شيء غير المعسكر. كان شقيقه لا يزال طفلاً عندما رُحّلوا إلى معسكر ألتوتينغ، يقول تودا. ما الذي يمكن أن يفهمه طفلٌ صغير من كل هذا! الكثير، تقول جدتي، الكثير!

وعلى الفور أتصوّر شقيقَ الحفار وكأنه شخص قادر على أن يرى، هو أيضًا، مواكبَ الأشباح، ويتعقب المفقودين في التلال وفي الوديان، إلى أن يغيبوا عن بصره، هُم وتوابعهم، في غابةٍ مظلمة.

Twitter: @ketab_n

عندما يتأهّب تُودا لحفرِ الطابق السفلي بالمجرفة، يقترح والدي الاحتفاظَ بالقبو القديم مع قبّته، وألا يُسطَّح سوى الجزءُ المخصص للقبو الثاني. ربما لاسترضاء جدتي وإعطائها الانطباع بأنّ المنزل الجديد سيقام على أسس البيت القديم. ويقاوم القبو القديمُ الهدمَ، كأنه ضرسٌ عنيدٌ، عصيٌّ على القلع.

وبينما كان البناءُ ينمو من فوق القبو والحيطانُ ما تزال مختفيةً وراء السقالات، يجد أبي من يقنعه بأنّ البناءَ الذي قُدر له أن يكون على مستوى واحدٍ يحبَّذ أن يرتفِع بطابقٍ واحدٍ، لأنّ العائلة سوف تكبر على أي حال، ولا بد من مكان يتسع للأطفال. ويوافق والدي ويسأل كلّ فضوليّ يأتي إلى الموقع إن كانت الفكرة جيدة. ثم يُشغّل خلاطة الخرسانة، ويحمل الملاط لغاية المبنى في منقلة – الكريولة كما يسميها – ، ويرفع الخليط الثقيل في أحواضٍ بلاستيكية بواسطة الملفاف(الخنزيرة).

ولم تكد أصواتُ المناشير تحل محلّ اجترار خلاط الأسمنت، وأكياسُ الأسمنت تفسح المجال، في الحظيرة الخشبية، للدعامات والركائز والألواح حتى شعرتُ أن جدتي قد أفلتت من عقالها. ففي ذات اللحظة التي ثُبّتت فيها باقة الدعامة فوق الرافدة العليا قرّرتْ أنها لن تُقِيمَ في المنزل الجديد. فلِجميع من يريدون الاستماع إليها ستقول إنها طُردتْ من منزلها، تقول مهدّدة.

وقبل أسابيع من انتقالنا إلى البيت الجديد يزورنا بائعُ المنسوجات القديم.

فتفاوض جدتي في ثمن البطانيات، وفراش الريش، والمخدات والشراشف، مساهمتها في المنزل الجديد، تقول.

وعندما يسلّمها الغجري البضاعة التي طلبتها، كانت العربةُ مليئة إلى أعلى بفرشِ السرير. ويزعم الغجري أنه اختار أجمل القطع لأفضل زبونة.

وتبيّن أن زوجة الغجري لم تضبطْ إيقاعَ أوراقها، لأنّ عمّال الورشة يأملون أيضًا

Twitter: @ketab_n

في آفاق مستقبل أفضل. ويتجلى تكدّسُ البطانيات والشراشف، برسوم أزهارها البيضاء، والزرقاء، والقرمزية، في تباهٍ وفخرٍ على شرفة منزل القدماء، ويظل زوار البيت معجبين بها لأيام عدة.

وننتقل إلى منزلنا الجديد ونرتّبه.

ذات مساءٍ سمعتُ مشادةً بين والدي وميشي الذي جاء يستفسر عن سير الأشعال. ففي رأي ميشي أن والدي، كان حريًّا به بدلاً من أن يقتّر أن يركّب تدفئةً مركزية، فهي الآن مشاعة في البيوت، وتستغرق في التدفئة وقتًا أقلّ مما تسغرقه المدافئ التقليدية. فضلاً عن أن البيوت التي ليس فيها ماءٌ ساخنٌ بيوتٌ عتَقت والزمنُ تجاوزها. ويستاء والدي منه، فهو لا يريد أن يكون مدينًا لأحد، والماءُ في البيتِ جارٍ ووفير، فلم يعد الحال كما كان من قبل، ثم إنّ التدفئة المركزية ترفٌ يمكن الاستغناء عنه. وحين جال ميشي في البيت أعجبَ بأشياء كثيرة، ولاسيما الحمام، وفرن الخبز الجديد الذي بُنِيَ ببلاط الفرن القديم.

ترتّب أمي في صوانِ المطبخ طقْمًا شبه بكرٍ جاءها هديةً في زفافها. وتُجهّز للغرفة الكبيرة ستائرَ ومفارش المائدة تطرزها بزخارف القرنفل الأحمر. وتتشاجر مع والدي بسبب خزانةٍ خشبية طلبتها عند نجار الأثاثِ الفاخر حتى ترتّب فيها كتبَها وأشغالها اليدوية من سردٍ وطرْز وحبيكة، ودفاترَنا المدرسية. تقيم جدتي في منزل القدماء، وأستقرّ أنا في غرفتي الخاصة التي ليس بها تدفئة.

شُيّد المنزلُ الجديد فوق قواعدَ مكشوفة، بعد أن أُزيلتْ التلةُ التي كان المبنى القديم مختفيًا فيها مثل العشّة. هنا في هذا المكانِ حلّ خندقٌ محلّ الممرّ الذي كان فيما مضى يحاذي البيت من الخلف فكان من القرب ما جعل أيدينا تستند إلى جداره دون مشقة. خندقٌ أشبه بوجْهٍ فارغ انتزِعتْ منه فكّاه. أما المبنى الجديد فهو منتصبٌ في هذا الوجه، مكشوفًا، ولا يعرف هدوءًا. الجدرانُ المعزولة عن بعضها

Twitter: @ketab_n

البعض عزلاً سيئًا لا تُخزّن الحرارة. وفي الأدراجِ سرعان ما تظهر بقعُ العفن وآثاره النّتنة. وأما القبو القديم فكلما دخلناه يوقظ ذكرى الماضي فينا. وعلى مرّ الفصول يُلقي بروائح غريبة تسعى لأن تتسرب إلى المبنى القائم من فوقها. لكنّ الجدران الجديدة سرعان ما تلفظ إلى الهواء الطلق كلّ ما لا تعرف الاحتفاظ به. روائحُ وأرائجُ تعوم هنا وهناك في الساحة. العفنُ، وروائح التفاح الحامضة، وأرائج تحمل قليلاً من نكهة البطاطا الحلوة.

Twitter: @ketab_n

لكَمْ أفرح أثناء العُطلِ بعودتي إلى القلعة. ففي غراديش أصعدُ منطنطةً الأدراجَ الخشبية المؤدية إلى الشقة التي يعمل فيها عمي، وأغوص في روائح تخشيبة السقف المختلطة المُطَمْئِنة. أرغبُ في اللعب مع بنات عمي ساعاتٍ طوالا، أو قراءة الرسوم المتحركة، وأنا ممدّدة فوق السرير.

أيامُ الصيف تكشِف عن حوافها الذهبية المتألقة، فتُغيّرُ كل يومٍ لونَ بَشَرتي. فهي مرسومة بألوانِ حديقة عمتي المزهرة، وممزوجة بماء البِركة التي نستحم فيها.

ذات ظهيرةٍ فيما كان الطقسُ حارًا، تشاء إيريس، مساعدةُ مطبخ الكونت، أن تذهب معنا إلى البركة، معنا، أنا وجُوهانا. وتظل عيناها ساهرتَين علينا، وكان هذا قرارنا، فهي في كل الأحوالِ أكبرُ منّا سنًا. نفرش المناشفَ فوق الجسر العائم، وفي حذرٍ نتزحلق في الماء الذي ليس عميقًا جدًا. وترفع إيريس ابنةَ عمي الصغيرة فوق ظهرها وتعبُر معها البحيرةَ عومًا. وتصرخ جوهانا وتتضاحك، لكنّ الأماكن الأكثرَ عمقًا ما لبثت أن صارت موشكةً من خلفِهما.

تضع إيريس جوهانا فوق الجسر العائم وتقترح أن تحملني فوق ظهرها. فأتردّد لأني لا أتقن فنّ العوم. لكنْ أتخيلني أحلّق على ظهرها فأنزلق إلى المياه الداكنة. وفجأة، في منتصف البركة، تتداعى إيريس من تحتي وتتشبّثُ بكتفي. وفي الحال نغرق معًا. وفي إصرارٍ تتشبّث كلٌّ منا بالثانية، ونحاول مرّاتٍ عديدة أن نطفو فوق السطح. لكنّ إيريس تشدني أكثر فأكثر إلى تحت الماء. بيد أن ضغطها عليّ ما لبث أن فتر واسترخى. وفيما أحاول أن أسمو على طول جسدها، وأطلب المساعدة، إذا بي لم أعد أسمع صوتًا واحدًا يأتيني منها، ولا صرخة، ولا تأوهًا، بل أشعر فقط

Twitter: @ketab_n

بشيءٍ يستسلم ويخر. وهكذا وسعني أن أنفصل عنها، وبِركلةٍ ابتعدتُ وسبَحتُ، أو بالأحرى تحركتُ على نحو ما يشبه السباحة. ومن حولي صار الماء كتلةً هلامية، فانسدّت أذناي وبدأت تئزّ. وصارت فكرة البقاء تعضّني عضًا. إيريس قادرةٌ على قتلي، هكذا فكرت. يجب أن أستمرّ في السباحة إلى أن أشعر بالأرض من تحت قدميّ مرّة أخرى، وأقف عليهما. تضحك جوهانا. أنهشُ الهواء نهشًا، وأستدير فأرى إيريس على سطح الماء، وقد انحنى ظهرُها. أصرخ وأطلب النجدة، وأركض نحو القلعة. وأدعو العمال للحضور فورًا، فيهرعون إلى البركة ويسحبون إيريس من الماء، فينزلق الجزءُ العلوي المخطط من بيكينها ويكشف عن صدرٍ أبيض، وسائلٍ فاتحٍ يتدفّق من فمها. الغَداءُ، يقول أحد العمال وهو يحاول إنعاشها. ثم يضع إيريس على جنبها. ويصير السائلُ برتقاليًا. لقد غرقت يقول أحدُهم. أنا التي قتلتها، أقول لنفسي. تأخذنا عمّتي أنا وجوهانا، بعيدًا. وفيما نحن نبتعِد عن المكانِ أستديرُ فأرى إيريس ملقاةً على التربة الرملية، بيضاء، شاحبة، شاحبة جدًا. أنا التي قتلتها، فكرتُ. وفي الحال يصل الطبيب. أقول لنفسي لا ينبغي أن أرى أكثر مما رأيت.

في وقتٍ لاحقٍ تلاحقني الشرطةُ أيضًا، وتريد أن تستفسر الأمرَ مني. لكني لا أتحدث الألمانية، أقول لنفسي، ولا أعرف حتى كيف أقول إني قتلتُها. ولذا بدأتُ أروي هذه القصة. كنا نلعب، وفجأة غرقتْ، واستطعتُ أنا أن أفلتَ بجلدي. كيف؟ لست أدري. وتنال مني الحمى، فأستيقظُ وأنا أصرخ في عزّ ظلام الليل. وأهربُ على ظهْر فحلٍ ملتهبٍ أسود.

في الأيام التالية أرى الأنظارَ وهي تقع عليّ حزينةً صامتة. تظل ملتصقةً بسطحِ جسمي الذي بدأ مثل قوقعة الحلزون ينفصل عن داخلي المجروح، وكأن جلدي، من فرط خوفي، بدأ ينكمش على الالتهاب الملتهب من فوقه. دخلتُ جعبة الموت، وسمعتُ نفَس الموت، ووجدتُ نفسي بالقرب من وجه الموت. لو توغلتُ أكثر لقبض عليّ الموتُ، عليّ أنا لو لم أهرب نحو الحياة، هذه الحياة التي نيّف عمري فيها

Twitter: @ketab_n

على أعوام ثمانية ليس إلا، والتي استقرت فيّ ولا تريد أن تُطرَد كما يُطرَد السارق. بيد أني، رغم ذهولي، أشعرُ أني قد أذنبتُ، لأني نجوتُ وبقيت.

لما أعادوني إلى المنزل قالت عمتي إنّ الذي حال بيني وبين الموت شعرة. كدت أغرق. ولامَت نفسَها ألف لَوْم ولوم. ولكن يا له من أمر فظيع، تقول أمي، من دون أن تضيف كلمة واحدة. وأبتعد من دون أن يحسّ بي الناسُ من حولي، وأجدني واقفةً أبكي على عتبة الباب الأمامي. ولكنْ، هل أنا أبكي حقًا، أم أنني أفكر في البكاء فقط؟ فالشخصُ الذي أترصّده، أو بالأحرى هذه التي هي أنا لا يسعها أن تفسّر إلى أي حدٍ هي مستاءة. جدتي تضع أحد ذراعيها فوق كتفي، نامي معي هذه الليلة، تقول لي، فاليوم تستطيعين أن تنامي معي! أثناء الليل أجثُم في حضنِها إلى الحد الذي يجعلها تؤنّبني وهي في نصف نومها. وأظل أتشبّث بها، فأخال جسدَها العظمي الممدّدَ بجواري كأنه جزيرة حياتي، وخلاصي!

Twitter: @ketab_n

نقف عند مدخل القبو القديم، وأحاول أن أصف كيف ابتلينا بتلك المصيبة. أروي لجدتي قصةً أظنها غريبةً مبتذلة. الشيء الوحيد الذي أحس به عن يقينٍ أنّ وفاة إيريس أمرٌ يتجاوزني كثيراً. ذلك لأني لا أفهم ولا أطيق مُصابنا، ولأني خائفة من الشرطة. ظننتُ أنها ستضعني في السجن، قلت لنفسي في عناءٍ.

تمسكني جدتي من يدي. سأريكِ ما الذي يجب أن نفعله عند وصول الشرطة. يجب أن نرسم باللسانِ إشارةَ الصليب فوق الحنك. عليك أن تفعلي ذلك ثلاث مرات وتكرري ذلك مرات عديدة متوالية، أترين، تقول. وتفتح فاها وترسم إشارة الصليب بلسانها الذي يتحرك ويتأرجح فوق حنكها. فهذه هي الطريقة غير المرئية وغير المسموعة التي تضرعت بها يوم اقتادتها الشرطة وقالت وداعاً لابنها البكر، وابن أخيها اللذين كانا في المنزل في ذلك الوقت. كنتُ أرسم الصليب بلساني، وبِقدميّ أرسم على الأرض أصلبة كثيرة، تقول جدتي. كان علينا أن نصلي حتى نعود إلى ديارنا، وأن نضرع إلى كل القوى الخفية لكي تدعنا نعود إلى ذوينا. ما أكثر الجيران الذين قُبض عليهم معي في ذلك اليوم، في ١٢ تشرين أول ٤٣، ولقوا حتفهم، ماريا موزغان، وبريكل، الخادمة عند هوزغان، ولوكا سيمر، وميها كوزيل، وبُولدي توبكنيك، ورجال الأسرة كاخ، يوري، وهانزي وفرانز، ونساء الأسرة كاخ، ماريا وآنا. جميعهم لقوا حتفهم في المعسكر. ولم يعد منهم سوى الفتاة موزغان، أماليجا، والصغار سيمر، وجوهي وكتاركا، وتشيك والصغار أوبرايش، إيرني وفرانز، وباولا ميلوفرسنيك وهي. وحدهم بقوا من الكوكبة التي اقتيدت في ذلك اليوم في اتجاه إيسنكابل. وفي المعسكر أيضًا كنت كلما نودي بي أدعو في صمت، تقول جدتي. وفي إحدى المراتِ، خلال أول فصلِ شتاء، في عيد الميلاد، مكثنَ واقفاتٍ إلى ساعةٍ متأخرة من الليل. كان الثلج يتساقط، وكان على النساء أن يقفن بحزم

Twitter: @ketab_n

وهنّ في كنزاتهنّ الملساء. وغابت إحدى النساء، ولم يعرف أحد إنْ هي ميّتة أم أنها هربت. ولذا كان عليهن أن يمكثن منتصباتٍ إلى أن يصبح عدد السجينات كاملاً. وظلت النساء مكسوات بالثلوج. كنا نتألم من شدة البردِ بسبب كثرة الثلج الذي عزّ عليه أن يذوب فصار يتراكم من فوق كنزاتنا الرفيعة، تقول جدتي. وحتى ساعة متأخرة من الليل ما انفكت جدتي تردّد تراتيل صلواتها وترسم إشارة الصليب بلسانِها حتى لا تنهار. ولقد نجت بحياتها. أجل، وهل لهذا السبب صارت تحب الحياة كثيراً. هذا ما لا علم لها به بتاتًا.

بدأتُ أخرج من ذهولي شيئًا فشيئًا، وقلت لنفسي إنّ هناك شقاءً أعظمُ من شقائي. ولذا عليّ أن أستنجد بجدتي، فهي بعالم الموت أدرى مني، لأننا إذا اشتمَمْنا رائحةَ الموت مرةً صرنا نستدلّ عليه حين لا يكون بعيدًا عنا، فنطرده، ونُبعده حين نستشعر وجوده بالقرب منا. لست مطْمَئنّة، لكني حذرةٌ ومشتّتة، ومسكوبةٌ مثل ماءٍ يتدفّق من كوبٍ ولا يمكن أن نعيده إلى إنائه، وصار يتحوّل في الأماكن التي ينساب فيها ويتبخّر.

Twitter: @ketab_n

شيئًا فشيئًا استردّ الصيفُ ألوانه فصارت الألوانُ ترقص فوق الأشجار تحت نور الشمس، وتتعبّق بروائح المروج الدافئة. وصارت نهاراتنا تمرّ وفق إيقاع حصاد الكلأ، وهكذا دفنتُ كآبتي في زاوية قصية من وعيي. ومن وقت لآخر، رغم الحر، صار ظلٌّ مثل الثلج يجتازني بسرعة البرقِ ويحصرني في ظلماته.

يجلب العمُّ جوزي جَدْيَيْنِ إلى مزرعتنا لفصل الصيف. ويناطُ بي رعايتهما، لأنّ الجَدْيين من دون مراقبةٍ سوف ينأيان بعيدًا عن المزرعة أو يضلان. ففيما كنت أبكي ذات يوم إذْ بالبهيمتين المتسلّيتين تكتشفان في دموعي سائلا عطريًا فتلعقاه بلسانيهما الخَرِشين الصغيرين. فلا أملكُ إلا الضحكَ، وفيما بعدُ أحمِل إلى المرعى أوراقًا من السلطة حتى أجذب الجديين إليّ، وأدع الحيوانين يُنقّبان في وجهي، وأترك لسانيهما يُنظفان أنفي وأذنيّ. فذاك يدغدغني ويطرد عني الأفكار المظلمة. جسماهُما الليّنان الفاتحان يهدئان أطرافَ أصابعي التي تداعب بلا كللٍ فراءهما حتى تأخذ منه بعض البياض.

قبل بداية الدراسة ترسلني والدتي إلى شاطئ البحر مع مجموعة من صغار المزارعين. تقول لا مفر لي من أن أتعلم السباحة وأكتسب بعض القوة. وتهيّئ لي الملابس الضرورية، وتطرز أحرفَ اسمي الأولى على كل قطعة، وتأخذني إلى مقر التأمين الفلاحي في كلاغنفورت حيث ينتظر باقي الأطفال مع آبائهم الحافلةَ التي ستنقلهم إلى بِيبْيُوني. وفي الحافلة يضعون حول رقابنا علامة برتقالية اللون عليها أسماؤنا ويعطوننا لجمةً وافرة حتى لا يكون وداعُ الأباء مؤلِمًا.

في بِيبْيُوني أُكابد قلقًا نفسيًّا ماكرًا يشلّني منذ اللحظة التي ألج فيها إلى الماء لأتعلم السباحة. فأدنى تموّجٍ يلامس وجهي، وأصغرُ ضربةِ ماءٍ مالحٍ يتدفق إلى قاع

Twitter: @ketab_n

حلقي إلا ويُلقي بي إلى القنوط واليأس. فبسبب عينيّ اللتين تحرقانني في داخل الماء أخشى أن أفقِد بصري إلى الأبد، وفي كل مرةٍ أغوص تحت الماء أخرج منه مثل سمكة جريحة ترفض الموت. خوفي من الغرق يحجب هذه الأيام التي تغمرها الشمس. ولا تملك ألوانُ الشاطئ الرملي الواسع، والبحر الأزرق الرمادي، القدرةَ على طردِ تلك الظلال المشؤومة التي طبعتها في نفسي تلك البركةُ ذات الأسماك عند الكونتْ.

ثمّ ذات يوم حزمتُ أمري وأخذتُ أسبح في مياه أعمق قليلاً. صارت ذراعايَ وساقايَ تتحركُ كما لو كانت تستيقظ من جمودٍ قاتل، فترتعِبُ في البداية، ولكنْ سرعان ما تصير أكثر ثقة وأكثر مرونة. أقول لنفسي إنّ الحياة قد وجدت آفاقًا جديدة، ما دمتُ واثقةً من إحساسي بالأرض من تحت قدَمَي.

أتصادقُ على الشاطئ مع إحدى الفتيات، وفي اليوم الأخير من العطلة أقول لنفسي ونحن نتجوّل على الشاطئ، لا بد من أن أودّع البحر الذي أراه بلا شكٍ لآخر مرة. لم يسعني أن أقول لها أني بدأتُ أولي الأشياءَ نظرةً أخيرة. محيطُ النجوم المتلألئة في سماء الليل، وغرف الشاطئ بمقاعدها، والكراسي الطويلة، ووالدي الجائي في البيت وهو يُصلح منشاره، وأمي العائدة من الحديقة وهي تمسك بربطةٍ من الجَزر في الهواء، والعظاية الغاضبة التي تُغيّر لونها إلى الأخضر كلما أُزعجُها بعصًا حتى أتسلى وأنا أتفرّج على الأبقار في المرعى. وتُلقي إليّ صديقتي نظراتِ الدهشة، ولكني لا أستطيع أن أفسّر لها لماذا أشعر أحيانًا أنّ الحياة ليس لها مآلٌ عندي.

بعد مرور عقدين من الزمن، ستروي لي عمتي وأنا أسبح في بركة الكونت، أنّ إيريس كانت مصابةً بالصرع، وأن أزمة دهمتها وهي في داخل الماء. ساعتها سأسألها ما الذي جعلها تخفي الأمرَ عني طوال هذا الوقت. لأنّ الأمر كان يجب أن يقال قولاً نهائيًا، ستقول عمتي فيرا التي كلما تنساب في هذا الماء إلا استبدّ ذلك الحادثُ بذاكرتها. وسوف أصرخ أني لو كنت عرفتُ لكنتُ تحمّلت في يسرٍ أكبر، نجاتي

Twitter: @ketab_n

من الموت وأنا طفلة، ولَمَا استبد بي الضيقُ في كل مرة أهبط فيها إلى البركة. ولمَا ظللتُ أطفو ليالٍ طوالا في مياهٍ مظلمة، بعيدًا عن كل شيء، متواريةً عن الأنظار، جثة صغيرة تتكلم وتَحْيَا بين الرجال وهم يصطدمون بها.

Twitter: @ketab_n

صار المشجر الكائن خلف منزلنا، هذا الذي أعبُره عند ذهابي إلى ميشي وعائلته لأشاهد التلفزيون، تغزوه اليوم نباتات كثيفة. ظننتُ أنني أعرفه جيدًا. لقد مررتُ من هنا مرات لا تحصى، وبإمكاني أن أمر فيه وعيوني مغمضة. أما الآن فلا مفرّ من أن أحزم أمري حتى أتوغل فيه. فيما مضى كنتُ أعتقد أني أستطيع أن أشتمّ رائحة أدنى جزءٍ من أي دربٍ، وأدنى قطعةٍ من أيّ فرجة، وأني أحسّ الفرقَ بين الأماكن ذات الأشجار العالية، والأماكن ذات الأشجار القصيرة. وأني أرى وأنا مغمضة العينين تسلسل أشجار الجوز والتوت وشجيرات الصفصاف. وكنتُ أعتقد أني أحزر إن كانت أشجار الصنوبر تكشِف عن السماء من فوقي أو أنها تخفيها. لم يعد المشجر مألوفًا، لقد انضم إلى الغابة الكبيرة، واستحال إلى بحرٍ أخضرَ كلّه أشواك حادة وحراشف ذات حواف قاطعة، وحراج متوجة وكثيفة، تكسوها لحيً غليظة. حسبي أن أنظر من خلال نافذة غرفتي، حتى تغمر الغابة عيوني حيثما جالت، بمساحتها المحّززة، والمسنّنة، من وراء المرج. سوف يأتي يوم، وكم أخشى هذا اليوم، عندما تفيض هذه الغابة على كل شيء، وتغادر الحدود، وتغزو أفكارنا، مثلما أخالها تغزو أفكار الرجال الذين يعملون مع والدي، أو الذين يأتون إلينا لكي يرافقوه إلى الطريدة.

الذهابُ إلى الغابة، في لغتنا، لا يعني فقط قطْع الأشجار، والصيد وجمع الفطر. وإنما يعني أيضًا، بحسب ما نسمعه كثيراً، الاختفاء، والهروب، وتنصيب الكمائن. والنوم في الغابة، وطهْي الطعام، وتناول الطعام فيها لا يقتصر على زمن السلم وحده، ففي زمن الحرب أيضًا يذهب الرجال والنساء إلى الغابة. ليس إلى غاباتهم هم، لا، لأن غاباتهم جد مشتّتة، وصغيرة جدًا، ومحدودة جدًا. فالغابات الشاسعة

Twitter: @ketab_n

هي التي كانوا يذهبون إليها. فكم من أناس لجأوا إلى الغابات، ذلك الجحيم الذي يَصطادون فيه الطريدة ويُصطادون فيه مثل الطريدة.

تدور القصص حول الغابة كما تدور الغابة حوالي مزرعتنا.

فهي تحوي الأماكنَ التي نصطاد فيها، والأماكن التي نأكل فيها، وزوايا التوت وأركان الفطر التي لا نُفشي سرّها. وأكثر الخفايا من بين جميع الأماكن السرية تلك الأماكن التي ما من طريقٍ ولا من درب شديدِ الانحدار يؤدي إليها، والتي لا نكتشفها إلا حين نمرّ بدروب الصيد ومجرى الجداول، وأماكن الاختباء والبقاء، والملاجئ التي يقال إن ذوينا كانوا يختبئون فيها.

في هذه السنة أحدثتْ عاصفةُ رياحٍ هوجاء أضرارًا بليغة في سفوح الكونت المشجرة. لقد فتحت العاصفة تدفقًا وحليًا مدمرًا انعكفتْ فيه الأشجار على نفسها وتكسرت، واقتُلِعت جذورُها. وفي إثرها جاء جميع عمّال الغابة، من كل مزارع الكونت حتى يزُيلوا الأضرار التي تسببت فيها تلك الرياح العاصفة. وعلى مدى أسابيع ظل الوهدُ مسرحًا لصريرِ المناشيرِ وضربات الفؤوس المخنوقة وطقطقةِ الجذوع المتهاوية.

في عطلة نهاية الأسبوع يجتمع الحطابون في مزرعتنا لشحذ أدواتهم وتصليحها. وفي سراويلهم تنتشر بقعُ الراتنج وهي تتوهّج مثل مستنقعات صغيرة. وفي دوائر متحدة المركز عند وسط هذه المستنقعات تنتشر نقاطٌ قذرةٌ صغيرة وتخترق نسيج سراويلهم مثل ظلالِ سُحبٍ داكنة. قمصانُ هؤلاء الحطابين مبلّلة بالعرق، وأكمام الكنزات والسترات على أكتافهم رثّة بالية.

يجلس أبي على مقعد ويُصلح منشاره «الأمريكي» كما يسميه. ويطرق النصلَ طرقاتٍ صغيرة فيدندنُ النصلُ ويترنّحُ ترنّحًا موزونًا.

أراكَ تراقِص هذا المنشار، يقول ميشي. يكفي أن أضعه بين يديك حتى يروق

Twitter: @ketab_n

مزاجُه. يقول العمّ جوزي لزملائه أنه يرغب في أن يصبح مذيعًا، وإنه طلب الحصول على مسجلة لدى القسم السلوفيني في الإذاعة النمساوية، حتى يتحدث مع الناس ويسجل المقابلات. وإذا لم يمانع زملاؤُه فسوف يكتب قصة عنهم، عنوانها حطابو الكونت تُورنْ.

لم تعُودوا حطّابين كما كنتم، يقول والدي، لقد قلتُم وداعًا للغابات منذ فترة طويلة.

لا غِنًى لأحدٍ عن لقمة العيش، يجيب ميشي، لا يمكننا الذهاب إلى الغابة كل يوم كما لو كانت الغابةُ هي الشيء الوحيد في العالم، أو كما لو لم يكن من وسيلةٍ أخرى غيرها لكسب المال. انضم ميشي إلى الاشتراكيين. لقد وعدوه بعملٍ في مكان آخر.

أراك ترغب في تعاطي السياسة، قال والدي، لكنْ لم تصبح يومًا رئيسًا للبلدية، فلن يدَعوك تصبح رئيسًا للبلدية، أنت السلوفيني، أبدًا!

أنت لن تفهم شيئًا، يقول ميشي.

أفهم ما أفهم، يجيب والدي.

هذا الأسبوع، يقول أنه عبَر الحدودَ الخضراء انطلاقًا من قمّة مزغان التي يقطع فيها الأشجارَ لحساب المزارعين، وأنه ذهب إلى الجانب السلوفيني ليشرب بيرةً عند كومر. لم تُبْدِ النساءُ كثيراً أو قليلاً من الاندهاش لكونه عبَر الحدود. لقد سألنه عن أخبارِ أهل ليبينا وحمّلْنَه السلام إلى جميع معارفهنّ فيها. شكرًا، شكرًا، قال الحطابون قبل انطلاقهم عائدين سيراً على الأقدام.

جوزي وحده من يركب دراجة نارية وينطلق بعيدًا وهو يلوّح بيده مودِّعًا.

Twitter: @ketab_n

ولكن أين تقع الحدود، أسألُ والدي.

هناك في الأعلى، ويشير إلى القمة الهلالية التي تُغلِق الوادي.

كم أحبّذ أن أعمل معك، هناك، أقول.

يندهش والدي لطلبي أيما اندهاشٍ وفي الحال يعِدني باصطحابي منذ اليوم التالي إلى حيث سيصعد في كل الأحوال ليحمِل بعض العتاد إلى هناك.

في الصباح الباكر تكون دراجته النارية أمام الإسطبل، فهي من نوع «بوتش» ذات خزّان قاتم برّاقٍ كأنه ظهْر دلفين. يُثبّت والدي فوق حامِلة الأمتعة حقيبةَ الظهر المملوءة بالأدوات وأسطوانة البنزين. أجلسُ في المقعد الخلفي، وفي عناية أضع ذراعَيّ حول منتصف خصره. يطلب مني أن أشدّ بقوةٍ على خصره حتى لا أقع أثناء الطريق. أنت تتحركين، تماسكي جيدًا، وإلا سننزلق، يقول عند أول منعطف. في البداية أشعرُ بالخوف حين فرمل ودخل في منعطف، لكني بعد ذلك أنتشي كلما زادت سرعتُه في الخطوط المستقيمة.

يركن دراجتَهَ النارية خلف مزرعة مزغان، ويشد بعض المشابك الحديدية إلى حزامِه، ويضع حقيبته على ظهره. وننطلق بهدوء. البنزينُ يغرغر في صفيحته. ولما يصير المنحدر حادًا، يقول أبي، علينا بالسير وكأننا في فسحة، وإلا لهثنا وضاق نفسُنا. ثم يُسرع الخطى. فأظل في الخلف. وفي مقاطع الطريق أندفع حتى ألحقَ به. أسأله أكنتَ هنا خلال الحرب؟

أجل، هناك، في الأعلى. كان لدينا مخبأ هناك. كان جدّك يُؤمّن لنا البريد. وكنتُ أنا أعِدّ الطعام. كان الحالُ خطيراً جدًا .

أكنتَ خائفًا، أسأله.

بالتأكيد نعم، كنت طفلاً، لم يكن عمري يزيد عن عمرك إلا بضع سنوات.

Twitter: @ketab_n

فجأة نسمع من خلفنا بهيمةً فزِعَة وقد أطلقت ساقيها للريح.

لقد شعرتْ بنا، يقول والدي.

تحت خطّ قمة الأشجار، ما بين أشجار تنوب مهيبة بفروعها الكثيفة التي توشك على السقوط أرضًا نلمح كوخًا منعزلا. كان الكوخ مغطى بالكاملِ بطبقات من اللحاء المسمرّ على طبقاتٍ في جسم خشبي. هنا في هذا المكان كنا ننام في تلك الأثناء، يقول أبي، عندما كنا نسكن الأشجار. ويفتح القفلَ ويرتّب الأدوات وصفيحةَ البنزين إلى جانب أسِرّة المعسكر التي لم يعد لها فائدة.

عليّ أيضًا أن أذهب الآن إلى حيث الأغصان المقطوعة، يقول والدي، وبعد ذلك نستطيع أن نعبُر الحدود.

مكانُ عملِه تحدّه أكوامٌ من الخشبِ توحِي بالنسق والنظام. جذوعٌ منزوعة اللحاء، أو غير منزوعة اللحاء، مصفوفةٌ فوق الأرض، مع جُذال أغصان، أو أغصان منظّفَة من جُذالها، كما يقول والدي. والأرضُ المرصّعةٌ بأكوام صغيرة من رقائق الأشجار المعطَّرة التي زارتها البهائم ونبّشتها. والجذوعُ بحوافّها المائلة، وفروعها التي تلمع مثل صحونٍ خشبية نُحتتْ حديثًا.

يقف والدي في وسط فرجة الغابة ويجيل نظره في قطعة الأرض، ثم يجمع الزوايا المبعثرة ويغطيها بالأغصان. الآن سأشرب بيرةً عن طيب خاطر، يقول وهو يشير بيده إلى ناحية الحدود.

لكَم أدهشُ لحدودِ الدولة التي تمرّ بالقرب من قطعة الأرض الصغيرة. فمِن أعلى قمّة الغابة أرى كلّ الجزء اليوغوسلافي من المنحدر المحرّش. ولكم أدهشُ أنْ يُشْبه هذا الجزءُ الجزءَ النمساوي، ويصبح في النهاية امتدادًا للمشهد المألوف. وحتى نقفِز فوق الحدود يستنِد والدي إلى أحد أوتدة السياج. ويدفعني للزّحف تحت الأسلاك الشائكة بعد أن يرفع السلك السفلي، حتى لا تشتبِك بي رؤوسُ الأسلاك.

وفجأة، ها هو ذا يُسرع الخطى مرّة أخرى. ينحدر بخطًى سريعة عبْر جزءٍ مبعثَرٍ من الغابة. أكاد لا أواكبه. أشجارُ السرخس تداعب وجهي. وعندما أصل إلى قاع

Twitter: @ketab_n

الغابة أجده في انتظاري، جالسًا فوق العُشب، ينظر في الأسفل إلى وادٍ يبدو خفياً بالكاملِ في داخل جَوف.

هناك، وراء ردوها Raduha، يقول وهو يشير إلى حافة أحد الجبال، ذهبتُ إلى المدرسة خلال الحرب. ليس لوقتٍ طويل. ربما ليس لأكثر من أسبوعين اثنين. هنا كنتُ أذهب إلى المدرسة، إلى لوس. كان أبي وشقيقه ضمن مجموعة المراسلين، في المزرعة. وبعد أن فرّا من منزلهما لم يتمكّنا من المكوث في الملجأ سوى أسبوعين مع والديهما. ثم أُخِذا إلى وادي سافينيا التي ظلت منطقة محرّرة. وفي كانون الثاني لم يجدا بدًّا وقد هاجَم الألمان الوادي، من أن يتخلّيا عن مركز القيادة. كانت القذائفُ التي يُطلقها الألمانُ من القوة ما يجعل الأرض ترشنا بشظايا تلك القذائف. كان والدي والمراسلون يُخفون الآلات الكاتبة في داخل التربة. لقد حفروا حفرةً، وألقوا فيها بعض القشّ كوّموا فيه تلك الآلات الكاتبة. ثم القشُّ مرّة أخرى، ثم الترابُ، ثم العشب والثلج، إلى أن تختفي الآلات عن الأنظار كليًا. وفي فترة ما بعد الظهر، ينطلقون ويظلون سائرين طوال الليل. وفي اليوم التالي يستمر الألمان في مطاردتنا، يقول والدي. كان الثلجُ يغطيني حتى الوركين. وقد ظنّ أحدُ القادة أني لن أصل أبدًا.

يبصق بحدةٍ، كما لو رغب في أن يُخفّف عن نفسه بعد هذه القصة.

ولمّا نصل إلى بيت كومر ترحّبُ بنا امرأتان كانتا تعرفان اسمَه. زدرافكو، هتفَتا فيه، زدرافكو، يا لها من متعةٍ وأنت تعود لزيارتنا! وتقدّم المرأتان بيرةَ لأبي، ولي شريحةً من معجون الكبد.

في طريق عودتنا إلى البيت، ينظر أبي إليّ مبتسمًا، شاردًا. أتخيلُ كم أكون سعيدةً أن يبوح لي بأسراره، ويعيد عليّ القصة التي رواها لي، ثم يطلب مني أن أروي له مغامراتي، فلا أملك عندئذ إلا أن أسرّ إليه بأنني أتعرّض للابتزاز في الطريق إلى المدرسة، وأني أحلم بأن أراه يوبّخ زميلاتي الصغيرات، ويطلب منهن أن يوقِفن

Twitter: @ketab_n

تهديداتهن فوراً. وإذْ آملُ في أن أعوّل على والدي أراني أعدِه وعدًا صامتًا بأني لا أفهم نفسي، فأمنحه حقّ مرافقتي على طريق العودة إلى البيت، وعلى طريق المدرسة، وعلى الطرق المؤدية ربما إلى هذا المشهد، أو حتى إلى ذاكرته. وفيما نحن نصعّد السير نحو الغابة أسائل نفسي إن كنت سأبقى في جسمي الطفولي، أو أنني سوف أكبر أبعدَ من قامتي. لكني في ذلك اليوم أمكثُ غارقةً في تنورتي القصيرة، وفي جوربي القطني اللصوق، وجزمتي المطاطية.

ولا نكاد نصل من تحتِ الحدود قليلاً، حتى ندخلَ إلى طريق الجمارك فأمسَحُ الأرضَ الناعمة التي تتشكل فيها البركُ حتى أعثرُ على آثارٍ للأقدام فيها. يقول والدي إن اليومَ يومُ أحد، فلعله يوم عطلة لرجال الجمارك، وفي الحال تجعله الفكرة يضحك.

نصِل إلى الجانب النمساويّ من دون أن يرصدنا أحد. ولـمّا يرى والدي أني أمشي بلا عناء يسألني إنْ كنتُ أحب مشاركته في طريدة. أقول نعم وأقرر التغلب على خوفي من الغابة. وعند أحد الأماكنِ على طريق مزغان إذا بالغابة تعرِض مشهدًا مفتوحًا من المزارع المنتشرة في جميع أنحاء الوادي. فنتوقفُ وننظر من عند الأشجار الخضراء. كأني أرى سمكتين في عشب البحر، أقول في قراري. رأيتُ هذه الأسماك السعيدة على شاشة التلفزيون، وتخيلتُنا أنا وأبي ننظر إليهما بعينين جاحظتين من عند الأشجار المتشابكة في نبْتِ الحراجِ، قبل أن تختفيا فيها مرة أخرى، رافعةً سحابةً من الرمل الذي يعود فيحطُّ ببطءٍ في الماء العكر. يا له من بحرٍ من القش، أُخمّنُ في داخلي. قريبًا سنصِل إلى الشاطئ.

أشعرُ بالسعادة وأنا أركب الدراجة ثانيةً خلف والدي. أضع يديّ حول خصرِه وأستمسك بظهرِه. وعند نهاية الظهيرة ننحدر ثانيةً عبر طريق كوبريفنا المتعرّج. تستمرّ الشمسُ في مستوانا. ولـمّا نصل إلى أحد المنعطفات الواسعة يتوقف والدي ويدخّن سيجارة. هنا، كان سياجٌ، يقول وهو ينفُث دخانَه.

Twitter: @ketab_n

قبل أن نصل إلى أسفل الوادي يجتازُ والدي جسرًا خشبيًا، متجهًا نحو منزلٍ متهدّم مُختفٍ بين أشجار الكتش وأشجار التفاح. وننزل من على الدراجة. نرى جاكي، الحطابُ زميلُ والدي واقفًا أمام الباب الأمامي، متوكّئًا على منجله. والعشبُ المحشوش يرسم موجات فوق الأرض من حول البيت.

لقد بدأتُ بقلع القراص، يقول جاكي. أذهبتُما إلى قطعة الأرض؟ نعم، يقول أبي بإشارة من رأسه.

إذا لم نُحش العشبَ بانتظام فسيعترض العشبُ طريقَنا في كل مكان، يقول جاكي. ويضيف أنه ذهَب اليوم عند عائلة بلاج فوجد العشبَ مكتسِحًا.

يرفع والدي عينيه نحو مزرعةٍ مهجورة، غارقة في الشمس.

يؤسفني أن لا أحد يهتمّ بهذه المزرعة، يقول. مَن كان يتصوّر أننا سنصَل يومًا إلى هذه الحالة؟

بالمناسبة، كم من إخوة لقَوا حتفهم في المعسكر، يسألُ جاكي.

الكبار الثلاثة، جاكوب، وجوهي، وليبي، يقول والدي. جثمان ليبي عاد من ناتزويلر، والآخران ماتا في داخاو.

ما زال اسم داخاو الذي عرفته من قبل يرنّ في أذني، لكنّ ناتزويلر، لم أكد أسمع عنه حتى غاب عن ذاكرتي.

عمُّه سقط أيضًا هناك، في الأعلى، يقاطعه جاكي. سقط فور تخلّيه عن مركزه. هذا ما قاله لي، لأنه شعَر بنظراتي. لقد أُصيب في المعركة الأولى ضد الألمان. وبعد أن اجتاز المرجَ ظل يزحف لغاية عائلة جيكل، إلى أن جنَح إلى أسفل الطريق، خلف غابة فتيّة الأشجارِ، مضرّجًا بدمائه. ومرّت الدوريةُ الألمانيةُ بالمكان ولم تلحظه. لكنّ آخرَ جندي في الدورية ما لبث أن رآه في أخيراً، وبرصاصةٍ أرداه قتيلا. لعلّ عائلةَ جيكل وارته الترابَ هنا، بالقرب من الطريق.

أعرف، يقول والدي، إني أعرف المكان.

الموتى يتركون نَضارتهم في هذا المكان الذي انسحبت منه الشمس. أتساءل إن

Twitter: @ketab_n

كان البرد الذي يجعلني أرتجف سببُه أيضًا الليل والغابات التي تزحف لتحط رحالها عند المنازل. النورُ يصعد سريعًا نحو السماء. ويمكث أبي ثابتًا. أقول له علينا بالعودة إلى البيت، لقد آن الأوان.

نعم، نعم، يقول، ولكنْ عليّ أن أتوقف عن الهذر مثل أمي. لم يقرّر ركوب دراجته قبل أن يجلب جاكي دراجتَه من خلف البيت. وننحدر نحن الثلاثة، فيما الطريق حافلٌ بالحصى. ولكن عند مفترق الطرق ينحرف والدي يمينًا حيث يجب أن ننحرف يسارًا، ويتوقف عند حافة الطريق.

بإمكانكِ أن تعودي سيرًا على قدميك، إنْ شئتِ، يقول. أبي يريد أن يشرب قدحًا آخر من البيرة.

أسلك الطريق المختصَر الذي يمرّ عبْر مرج الأوبرج حيث تضرب بقراتٌ متراخيةٌ شبعانَة الهواءَ بأذنابها. أستعيرُ جِذعَي شجرة وُضِعا بعرْض مجرى ليبينا، وأجتاز المجرى بخطواتٍ قصيرة. ثم أتسلق تلعةً يتناهى إليّ من خلفِها نَخِيرُ خنازيرَ من عندنا.

Twitter: @ketab_n

لم تعد الغابةُ قادرة على حماية عزلتِها منذ أن صار ابن آدم يفتش عن ملجأ فيها. منذ أن فقدت السيطرة على متاهاتها. منذ أن صار الحطابون والصيادون يجوبونها بحثًا عن فريسة. منذ أن أضحت مخبأً لعصاباتٍ منظَّمة.

يقولون إذا عرفنا كيف يَدخُل الشخص إلى الغابة وكيف يخرج منها عرفنا كل شيء عنه. هل كان يحمل بندقية، هل كان يرتدي بنطالين ومعطفين، الواحد فوق الآخر حتى لا يشعر بالبرد. هل كان يعود وقميصه مفتوحٌ، وبنطاله ممزّق وملطخ بالراتنج. هل كان يحمل يحموراً ميتًا في جعبته، أم لحم خنزيرٍ مقدّداً للكوادرِ الخضر المرابطين هناك في الأعلى تحت أشجار صنوبر القمة؟ هل كان يحمل سلةً من الفطر، ودلوًا من التوت الأحمر، أم كان يحمل رسائل في جيوبه؟ هل كان يرتدي قميصًا نظيفًا. هل كانت تفوح منه رائحةُ الراتنج واللحاء، أو رائحة زنَخٍ وقذَر، رائحة التربة وعرق الكآبة، والدم والقشور؟

أصدقاءُ والدي في الصيد يرتدون سراويلَ مكويّةً، وسُتراتٍ بِلون الأشجار. تفوح من شعرهم رائحةُ الطحلب ومن قبعاتهم تبرزُ مكاسِرُ الطريدة. ومن خُروجهم تتدلى جماجِمُ الفريسة ذات الحوافر. لقد توجّهوا إليها وصوّبوا إليها بنادقهم. فهذا الصيد مُغْرٍ ولذا عقَدوا العزم على اصطياده. من خطُمِها يتقاطرُ الدمُّ والعرق، وندى آخِرِ نفَسٍ استنشقته هذه البهائم. على جماجمها الناعمة لا تنغلق عيونها القاتمة إلا بعد حين. أما عظامُ جماجمها التي لا يغطيها الشعرُ واللحم فستظل تغلي في الماءِ المؤكسَجِ طويلاً، إلى أن تُخرَج الغنيمةُ من السطولِ نظيفةً جاهزة.

الصيدُ، يقول والدي، جزءٌ من أسطورة العائلة. فكلُّ يومِ صيدٍ هو يوم احتفالٍ،

Twitter: @ketab_n

وهكذا كانت العادة دائمًا. ما زال أبي كعادته يذهب فجرًا ليتربص صيده، فيُشحِم بنادقه، وينظف منظاره ويحسب خراطيشه. وفي المطبخ لا تزال لحوم الفريسة تُطبخُ فتنضج على نار خفيفة، وكم تثير حساءاتُ ظبي الجبلِ شهيّتَنا. ما زال أصدقاؤه الصيادون يأتون إلى منزلنا وينصرفون بلا انقطاع ليسردوا علينا قصصهم. ينتظر والدي الطريدةَ السنوية بفارغ الصبر، ولمّا كنتُ أعشق المشيَ فهو يريد أن يصطحبني معه.

عندما يحين يومُ الصيدِ نناقش في الصباح الباكر في سيْر الطريدة. سيحصُل الصيادون على شايٍ ساخنٍ وبعضِ الكعك. ونتقاسم أراضي الصيد، ونُشكل مجموعاتنا. أما أنا فسأذهب مع الشيخ بُوبْ الذي أعرفه جيدًا. فهو أكبرُ المجموعة سِنًا، وهو على ما يبدو، أضعفُهم بصرًا. يُروَى أنهم أرادوا يومًا أن يختبروه، هوَ وبصرَه، فوضعوا هِرًّا أليفًا في داخل جِلد أرنبة. وقد غلّفوا القط جيدًا وأمسكوه بالخيط إلى بدنِه. فإذا بالقطّ الفزع يُكشّر عن أنيابه وينطّ فارًّا إلى أقرب شجرة. فلم يصدّق بوبْ عينيه، وكاد يُقسِم أنه لأول مرة يرى أرنبًا يتسلّق شجرة.

تَنْتَحِي بي جدتي ناحيةً وتقول لقد سمعتُ أنّ الصيدَ يجب أن ينتهي في غريغوريتش. وتطلب مني أن أبلغ تحيّتها إلى غريغوريكا. فهي التي، تقول جدتي، أخرجتني من المعسكر عندما حُرّر المعسكر. كنت ساعتها وهِنةً لا أقدر على المشي. فلأيام ثلاثة حملتني، وساندتني، ودفعتني في نقّالة، أجْل، غريغوريكا، في انتظار اختفاءِ وحدات النخبة المسلحة. لقد أصاب غريغوريكا مسٌّ من الجنون في أوشفيتز، حتى قبل نقلِها إلى رافنسبروك. فمنذ تلك اللحظة بدأت تطلق لَعَناتها، فالشيطان هو الذي وضَعها في معسكرٍ، والشيطان نفسه هو الذي أخرجها منه. في شبابها كانت امرأةً قوية، قادرة على منافسة أي رجل، تقول جدتي. وأوافق وأقول إني سأنقل تحيّتها.

يمسك بوبْ بيدي ونسيرُ معًا إلى القسم المخصص لنا في الغابة، فنضرب

Twitter: @ketab_n

بالعِصيّ الأشجارَ والشجيرات من حولنا. لقد وضع الصيادون بنادقهم على أكتافهم وسبقونا. الكلاب تحوشُ الأرانبَ البرية والثعالب في اتجاهها، بيد أننا لا نسمع سوى بضع طلقات متفرقة، ولا نرى الكثير من الحيوانات الفارة تمرّ بالقرب منا.

جدول الصيد لما بعد الظهر، أمام مزرعة غريغوريتش، كان طولُه كطولِ سهرةِ عزاء جنائزية، شُرب فيها ماءُ الحياة على وجه السرعة. نحن مدعُوّون للدخول إلى الغرفة، حيث ينتظرنا لحمُ بقرٍ مطبوخٌ على الطريقة المجرية، لتناول الوجبة النهائية، شوسلترياب، كما يقولون. العجوز غريغوريكا تجلس على المقعد بالقرب من الطاولة. أقتربُ منها لأنقل إليها تحيّات جدتي، وأمدّ يدي إليها. يدُها باردة رطبة. تنبعث منها رائحة البول. غريغوريكا لا تفهم من يُقرئُها السلامَ فتنظر إليّ بعيون فارغة. تحاول سفيرنيسا التدخل، فتقول العجوز المهيبةُ نعم برأسها وتُأرجِح بدنَها الكثيفَ أثناء الأكل. ألمُحها من طرف العين ولا أملك إلا أن أفكر في جدتي وأنا أقول لنفسي إنها هيَ، غريغوريكا التي كانت فيما مضى قادرة على رفْع الرجال إلى السماء، غريغوريكا التي أَخرَجت من المعسكر جدتي المنهكة.

يقول أحدُ الصيادين إنّ جارَه الذي توفي للتو، والذي كان مع أنصار المقاومة أثناء الحرب، روى له ذات يوم أنه رأى أثناء نوبةِ حراسة، وليس حين كان في المرقب، غزالاً أبيضَ، فراوده إلهامٌ على حين غرة، إذ عرَف أن الملجأ الذي يأوي إليه الأنصارُ بات معرّضًا لخيانةٍ وشيكة. فحذّر المقاتلين، لكنّ هؤلاء لم يلقوا لكلامه بالا. وفي اليوم التالي دهمتِ الشرطةُ الملجأ. تلك إشارة، ويجب أن نولي الإشارات اهتمامنا، يقول الصياد. لكنّ الأمر في رأي سفيرسينا سخفٌ ومحالٌ. الإلهامُ، لكنْ أي إلهام هذا، قال مجلجلاً. الخوفُ من خطر الوقوع في أيدي الجستابو ليس شيئًا خارقًا للطبيعة. ففي المرة التي اقتاد فيها كوري إلى الأنصار لم يمر وقتٌ طويل قبل أن تصل الشرطة إلى مزرعة بريك وتدهمها. لا شك أنّ أحدًا علِم بأمره فكان ذلك

Twitter: @ketab_n

كافيًا لأن يقرّر مصيرَه، في طريقه نحو ماوتهاوزن!

يسأل والدي إنْ ما زال الصيادون يذكرون مَن كان في ذلك الوقت أفضلَ قناص في ليبينا. أراكم لا تذكرون، إنها مُزارعة موزغان العجوز، يقول بعد هنيهة، كأنه يُخرج ورقتَه الرابحة. كان لديها يدٌ أسطورية في الصيد وقد اصطادت اليحامير، ومن أجملها. ما رأيكم، يسأل والدي، ألديكم ما تقولونه، أنتم والأرانب البرية التي قتلتمونها. لكُم أن تحلُموا بأن تسدّدوا كما تسدّد مُزارعة موزغان. فعندما تتربّص فريستَها وهي تُحْبِك سردَها، فما إن تأخذ بهيمةٌ في أكل العشبِ حتى ترفع بندقيتها دون أن يرف لها جفنٌ، ثم بانْغ! وتكون النهاية. لكنها لم تنجُ من الموت في رافنسبروك، يقول سفيرسينا، فمثل جوكر أجهزَت عليها. أجل، هكذا، هكذا، أنهَتها.

تميل الشمسُ إلى الغروب عندما ينطلق الصيادون عائدين، وأدركُ أن والدي قد شرب كثيراً. ساقاه تصطكان ويشتكي من الطريق الذي سيقطعه عائدًا إلى البيت. يضعون في يدي مصباحَ جيبٍ ويطلبون مني أن أغادر، سائلين حذري ويقظتي على والدي.

أسير في الأمام محاولةً إضاءة الطريق أمام والدي وأمامي. يقول لي إنه كثيراً ما قطع الطريق وحده، هذا الطريق الذي يعرفه جيدًا.

تتّخم الغابة بالظلمةِ شيئًا فشيئًا. ومن جميع الجهاتِ يغمرنا صمتٌ يقظٌ كأنه يرصد كل خطوة من خطواتنا. أتساءل كيف أجعل والدي لا ينقطع عن الكلام، حتى لا يُهيمين غيابُ الصوت علينا. وعندما نغادر الغابة ونقف وراء مزرعةِ أوبريش أسائل نفسي كيف تُسمَّى المزرعة الكائنةُ في الأعلى، والتي يتجلى ظلّها من تحت القمة المدورة في التلةِ المُشْجرة. إنها مزرعة هوجنيك، يقول والدي، هنا أيضًا عاثت الشرطةُ النازية فسادًا. لقد اقتادت العائلةَ بعيدًا، لكنّ هونيك العجوز أبى إلا أن يمكث في مزرعته، فقُتِل في الحال. وقتِل ابنُه وكنّته، ونُقل الأمواتُ إلى كوخ هونيك،

Twitter: @ketab_n

وفيه أحرِقَت جثامينُهم. وفجأة يتكسر صوتُ والدي. يتحدث بصوت خافتٍ. وهذا يُغيظني كثيراً.

فجأة يهبُ نسيمٌ، فلا نكاد ندخل الغابة حتى تصير الأشجارُ تئنّ أنينًا. صوتُ أوراقِ الأشجار يختلط اختلاطًا خفيًّا بالأصوات والصرخات. أطلب من والدي أن يمسك بيدي. فيضحك ويخطو خطوة كبيرة إلى الأمام حتى يمسك بيدي. في ذات اللحظة يفقد توازنه ويزلج بكامل طوله في المنحدر الحاد قبل أن يوقفه أحدُ الأدغال. مصباحُ الجيبِ الذي جرّه معه وهو يحاول أن يمسك بيدي لم يعد يضيءُ طريقَنا، فلا أكاد أرى والدي في الظلام. أسمعه يقول ألفاظًا نابيةً في الأسفل. إلهي، إلهي، ماذا أفعل حتى أخرج من هنا. ابقَي أنتِ في مكانك في الأعلى. سأتدبّر أمري وحدي. يشرع في تسلّق المنحدر زاحفًا على أربع، وهو يُلصق حذاءَه الجبلي بالأرض حتى يستند إليها. وها هو الآن وقد صار قريبًا مني، فيقول الآن يمكنكِ أن ترفعيني، فأجرّه بكل ما أملك من قوة. يقِف والدي الآن بجواري. إني أتنفّس قليلاً، يقول. ونواصل المسير. ثم يجلس على أرضِ الغابة ويغفو، كما يبدو، في ثانية. أجلس القرفصاء بجانبه، وأشعر بالشهيق يصعد من داخلي. الغابة والظلام يرسلان كل أطيافهما عليّ فتزهقني الأطيافُ وتمزّقني. أرفع رأسي إلى السماء وأحاول أن أرى القمر الذي ظل مختفيًا في تلك الليلة. وأخال أنّ كرةً سوداء تنزل نحوي من السماء. أخشى أن أكون قد أغريتُها بدموعي وبكائي فأُغلِق عينيّ. وتستولي عليّ الظلمة وكأنها ثملة، وتنساب فوق صدري.

والدي الآن ممدّدٌ بجواري، كأن دوخةً أصابته. دهرٌ يمرّ قبل أن يفتح عينيه ثانية ويقول لي، أتعرفين، حين نخاف في الغابة علينا بترديد أغاني أنصار المقاومة. فهذا ما فعله والدي كثيراً وقد نجح فيه في كل مرة. ويسألني إن كنت أعرف شيئًا منها، فأقول لا. حسنًا، يقول، إذًا أنا من سيغنّي الآن، أجَلْ أنا. ويشرع والدي بما يسمح به صوتُه في ترديد أغاني محاربي الأنصار، لكنه لا يذكر منها سوى قليلٍ من المقاطع التي ما انفك يردّدها على طول طريق العودة.

Twitter: @ketab_n

تنتظرنا أمي في المطبخ، غاضبةً قلِقة. لا أريد أن أُخوّفها ولا أن أخبرها بشيء من مغامراتنا. أخشى أن يكون الموتُ قد استقرّ في داخلي، مثل زرٍّ صغير أسود، مثل حُكاكٍ يغطي دانتيلُه جلدي بصورة خفية.

Twitter: @ketab_n

الحرب صيادُ رجالٍ ماكر متستّر. تلقي بشباكها نحو الكبار وتحتفظ بهم أسرى مع أطلال الموت، وما تحمله من أَسقاطِ الذاكرة. حسبُها حماقةٌ صغيرة واحدة، وانخفاضٌ قصيرٌ في الانتباه لتُضيّق شبكَتها وتوثّقها. فهي منذ الآن تشدّ إليها والدي الذي ابتلع طُعم الذكرى، والدي الذي يجري منذ الآن لكي ينقذ حياته. فهو يحاول أن يُفلت من قدرة الحرب الكلية. فهي تطفو فجأة في الجُمل التي تقال على عجلة. تقبَع في الظلام ثم تهاجِم على حين غرة. تهزّ كل الذين تأخذهم في شباكها هزًّا. ولا تكاد تُنسَى بعد أن تختفيَ شهوراً حتى تُعدّ هجومًا جديدًا. وإذا حدَث وصارت ضعيفةً دعوناها نحنُ إلى ديارنا، فنبتسم لدُروعها معتقدين أننا هكذا نكسِب جميلَها. فنحتضِنُها ونُعِدُّ لها سريراً.

كان أبي أصغرَ مؤيدي أنصار المقاومة سنًّا، يقول بيتر، ابن عمه، فيما كنا ذات يوم جالسِين في غرفة المعيشة، نحتفل بعيد ميلاد الجدة. هل يذكر أنه كان أصغرَ أنصار المقاومة؟ كان عمرك بالكاد اثني عشر سنة. نعم، يقول والدي، لكنه يفضل أن ينسى كل شيء. كثيراً ما يفيق من نومه فجأة أثناء الليل وهو لا يعرف أين هو. في هذه الأحلام أراني أركض بأقصى سرعة حتى أفلت بجلدي، كما كنتُ أركض في ذلك الزمان فوق فيليكا، يقول والدي.

مادونا يقول الآخرون، يا لها من عيشة كلاب!

في اليوم الذي قلّتْ فيه المؤونةُ ووصلتْ المفرزة، انطلقنا منحدرين إلى أسفل الجبل، ومررنا وسط الألمان، دون تفكير، يا لها من قصة، يقول والدي. فعند الثانية صباحًا انحدروا متزحلقين عبر سفح الجبل في الثلج العميق، عبر مصبٍّ كان فيما مضى يُستخدم في إرسال جذوع الأشجار نحو الوادي. كان الألمان يراقبون في

Twitter: @ketab_n

كامْنِيكْ، وقد صوّبوا أضواءهم الكاشفة نحو الأعلى، حتى صار المكانُ غارقًا في أضواءٍ لا تُخفَى فيها عن العين أدنى حركة. في الوادي كان الطلقُ غزيرًا حتى صرنا لا نرى منه سوى خطوطٍ زرقاء وحمراء. كانت السماء تمطر الفروع والأوراق، وقد سقط أحدُ الأنصار أرضًا وصار يصرخ «النجدة، النجدة.» لكن والدي ظل يركض وكأنّ الشيطان يركض وراءه، يقول. وأثناء فِرارهم لم يسعهم أن يظلوا معًا، فقد ركض هُو ومناصران آخران في أحد الطرقات فوجدوا أنفسهم وجهًا لوجه أمام رشّاشِ أحد الألمان. جاءَ أجلي، سأموت، فكّر والدي، الآن سيقتلونني. لكنّ الجندي الألماني ما لبث أن أشار إليه بأن يغور فورًا، وطلب منه بأن يمرّ بسرعة. هيّا أسرِعْ، قال له. هذا الجندي كان رجلاً طيبًا، يقول أبي. فلَم ينسَوه أبدًا. وأدركتْ مجموعتُه الصغيرة النهرَ، فصاح فيهم القائد: يجب عبورَ المياه، يستحيل اجتياز الجسر! أوّلُ من عبَر الماء ما لبث أن اختفَى من فوره، بعد أن جُرف مثل القشة. لقد تشبّث بعضُهم بالبعض الآخر وعبَروا الماء. ووجَد هو وشقيقُه نفسيهما في تيارٍ ضخم، في عزّ شهر كانون الثاني. في الحرب يصير المرءُ مثل أرنبٍ مطارَد، ولكن على نحو أسوأ، يقول والدي. أجل، الأمر كذلك، يقول بيتر مؤكدًا. كنا أرانب، وكان الجوعُ قائدَنا.

كثيراً ما تعودُ به الذاكرة إلى الجوع الذي كان يقضمه. كانت معدته مركز هذيانه فتعرّضه للسوء أحيانًا. فعندما يعيد التفكير في الأمر يدرك كم كان هو ولُوجْ يفتقران إلى الحكمة، في مزرعة كِبِيرْ، لأنهما كانا يعتقدان أن صاحبة المزرعة ستُطعمهما خبزًا. ولذا ما زال يقشعر لذلك إلى يومنا هذا. إني أسمع الألمان، يقول بيتَر، كانوا يصرخون فينا: أطلقوا النار، أطلقوا النار، قطّاع الطرق! لوجْ أطلق النارَ أيضًا، من مسدسه. ما من سبيل للتراجع، ما من سبيل لصعود الجبل ثانية. لذا ظلا يركضان عبر الحقول، لوجْ في الأمام وهو من ورائه. إلى أن لحق به كلبُ الشرطة ومزّق سرواله. فسقط على رأسه أوّلاً وفقَد بندقيته. ومن ورائه صرخ فيه الشرطي: قفْ، أيها الجندي، قفْ لكنه ظل يركض كالمجنون. عندئذ بدأ الألمان يُصوّبون

Twitter: @ketab_n

نيرانهم نحوه. رهيبٌ ما يفعلون! كلهم يصوّبون. لكن الجبل ما لبث أن ابتلعَهما، هو ولُوجْ.

Twitter: @ketab_n

في مثل هذه الأيام يحُدث أن يفقِد والدي رباطة جأشه. ففي بداية أيّ حفلٍ نكاد نقول أنه رجلٌ خجول. يريد منا أن نحفّز مزاجه، فيشرب عصير التفاح أو النبيذ بكثرة. ولمّا يرى ذويه في حالة استرخاءٍ يشرع في إطلاق نُكاتِه، فيُقنعونه بأن يمسك الأكورديون حتى يرافق رقصاتِ الحفل بنغماتِه. ويعزف بحماسة، ويدعو الضيوفَ إلى الرقص معه، وينظم الإيقاعَ وهو يضرب بالقدَم الأرضَ من تحته. وبعد برهةٍ يتغيّر نظرُه. إذ ينسابُ رَجُلٌ ثانٍ إلى داخله، فيديرُ ظهره، من خلف محجري عينيه. وتفقِد عيناه تعابيرَهما، فنخال كأنهما استحالتا نوافذَ عمياء لا نستطيع أن نرى من خلالهما، لا من داخلهما ولا من خارجهما. ويتعكّر صفوُ والدي ويغتاظُ فيحارُ الضيوفُ ويرتبكون ويشعرون أنهم لا يستطيعون أن يحملوه على محل الجد، ويُفكرون في الانصراف. وفي حيرةٍ يتهامسون لقد حان وقت الانصراف. ويتنحنحون ويقولون: هذه المرة أيضًا استمتعنا كثيرًا، لا بد من إعادة الكرة مرّة أخرى. ما أمتع أن يلتقي الجميع في مكانٍ واحد، يرقصون، ويغنّون.

ما إن يغادر آخرُ ضيف الحفلَ حتى تستحوذ روحُ العين على والدي، فتنطلق معه في رقصة البولكا الهائجة، فتقذف به في كل الاتجاهات الممكنة، بولكا اليسار تُغرق والدي في خورٍ عميق، فيما تُلقي به بولكا اليمين في غضب شديد تنسكِب في صرخات خارقة، وتحترقُ في خلافاتٍ تافهة.

يدعوننا للخروج من الغرفة، أخي وأنا، فيملؤنا الحصرُ فنرتبك ونحتار. ونظل عالقَين في المطبخ، أو نخرج للهواء الطلق، ويقينُنا يقول إنّ الحرب قد قامت بيننا لبضعة أيام، وإنها ليست على استعدادٍ للتراجع عن المكان.

فيما كان والدي في مناسبةٍ أخرى يصرخ فينا ويهدّد وفي يده بندقية صيدٍ بقتلِنا

Twitter: @ketab_n

جميعًا، هربنا منه لنلعب لعبة أنصار المقاومة. فنتسلق المنحدر بخطىً مسرعة إلى أن نبلغ الغابة، ونجثم خلف أشجار اللوز، ونسدّد بسلاحٍ غير مرئي، ونزحَفُ على طول حافة الغابة. ونرقد في العشب، وننظر إلى منزل الأبوين، ونَزنُ اللحظةَ التي سنغادر فيها مخبأنا، ونعود إلى غُرفِنا.

وذات مرة هربتْ والدتُنا معنا، وهو ما أقلقنا وشغَل بالَنا، من فرط خشيتنا أن تُلفِت انتباهَ والدنا إلى مخبئنا. كانت رئاتُنا الرطبة الباردة بالكاد تتحرّك فينا.

أنظرُ إلى أخي وأتمنى أن لا يفهم شيئًا من كل هذا، ولكني لستُ متأكدة تمامًا. وأنظر إلى والدي، وهو يعلن الحربَ علينا بعد أن يضع على عاتقه شخصًا جديدًا. وأرى نفسي وهي تغادر غلافها الجسدي، وأنظر إليها كما أنظر إلى دميةٍ ممدودة فوق العشب وهي تدسُّ رأسها بين الكتفين. فحتى وإن أُصِبتُ فلن أموت، أقول لنفسي، لأنني هربتُ من جسدي.

كتلةٌ بلا حراك في المعركة، وقنبلةٌ يدوية من الماضي لم تنفجرْ، بعد أن ضلت طريقها في مزرعتنا فاستقرت تحت شجر الكتش. نحن أهداف خاطئة ما كان يجب أن تكون. لكننا أجبِرنا على تجسيدها في خضم المقاومة.

ما إن يغرق والدي في النوم وقد شعَر بالنهك، وسقطت البندقية من يده حتى نتنفّس الصعداء. فتتناول أمي السلاحَ وتُقفل عليه في خزانة الصيد. ونُخلي مخابئنا ونمرُّ بعد أن نحني ظهورَنا أمام والدنا النائم فوق مرفقيه. نخال أنه يتنهّد في نومه، ممدّدًا مثل جذعٍ معقود كجذع شجر الكتش في المرج خلف المنزل، أو على الأرض بالقرب من البابِ، أو في مقعد الزاوية في المطبخ.

رقصة التوجيه الأخرى تبدأ بالاتهامات التي يوجّهها والدي إلى ذاته، والتي يظل يكررها في إيقاعٍ لا ينتهي. فهو لا يساوي شيئًا، ولم يُساوِ شيئًا يومًا. فهو ليس سوى كلبٍ لجأ إلى تحت الطاولة. تعال، تعال أيها الكلبُ الكلبُ، يقول. هيّا أخرجْ من تحت الطاولة. وينادي تو، تو، تو، تو!

Twitter: @ketab_n

لكنّ الكلبَ الكلبَ لا يحرك ساكنًا، لقد لبَد في زاوية، تمامًا مثلي أنا التي تخيّلتُ ما الذي سوف يتبع لمّا يصير والدي خارج البيت. ولكن لا، هذا ليس صحيحًا، أقول له، حتى أهدّئه. كيف له أن يدّعي أنه كلبُ الكلب، وكيف يسعه ببساطة أن يفكر في شيء كهذا، أقول لنفسي. لكني أرى جملتي معلقةً في الهواء، مثل خطٍّ انقطعَ ولم يبلغ غايته.

يتنفس والدي بعمق حتى يجتثّ الصوتَ من قاع بطنه. ويدفعه إلى أن يصل إلى حنجرته، حيث يتلقّى الصوتُ حجمَه الخام الأخير. ثم يُطلق نارَه، منخّمًا إياه مثل قذائف مشتعلة. وفي لحظةٍ ما، في منتصف الجملة، يتوقف، أو بالأحرى ينطلق خارج المنزل مسرعًا. لا جدوى من الكلمات، ولا طائل من التوسل إليه. فحتى جدتي تتراجعُ وتمسك بمسبحتها بشدة. ومن الثقب الأسود الصغير في داخلي تتدفّق مسبوكاتٌ من الظُّلمة.

والدتي تقول إنها لم تعد تحتمل أكثر مما تحمّلت، وعليها على أي حال أن تعرف أين أدبَر والدي، وأن لا بد من تفادي تعرّضِه لأي مكروه. أُمسك بيدها حتى أشعرها وأنا أضغط على أصابعي أني أرغب في مرافقتها، وحتى لا تفكر في التخلي عني. فهي في حقيقة الأمر تريد أن تسحب يدها، ابقَي هنا، تقول، اتركي يدي! لكني لا أريد أن أتركَ يدهَا وأشرع في البكاء. أبكي لأنّ ميّتة البركة تتحرك في نفسي، فتئنّ فأصرخ أنْ يجبَ فعلُ شيء في الحال لتجنب المصيبة. ويُدهشها أن تراني حازمةً إلى هذا الحدّ فتوافق أمي على أن أذهب معها.

نعْبر الساحة نحو الإسطبل. يخفق قلبانا في حلقينا. نصغي في وجلٍ بملء آذاننا، حتى نسمع إن كان هناك شيء يتحرك في العلية، في قلب الجفيف. وتظل آذاننا تتسع للإنصات إلى أن نسمع أصغر خدشٍ من أصغر فأرة. ولكن في العلية يظل كل شيء صامتًا. وفجأة تحت المنحل، نسمع صوتَ عيار ناري. لقد أدركت

Twitter: @ketab_n

القذيفة الطائشة هدفها. لقد هتّكت التنفسَ في رئتيّ، وصارت الحويصلات الهوائية تبعث غازاً يصيبني بالدوار. وأرتعشُ وأندفع خلف أمي التي تهرع في وجلٍ إلى المنحل. وتصرخ فيّ، إذهبي، دعيني وحدي، لكني مصمّمة، وأريد، إنْ لزم الأمر، أن أرى موتَ والدي، وجهًا لوجه.

نتوقف بالقرب من الواجهة الجنوبية لمنزل القدماء، وفي حذرٍ نترصد المنظر عند الزاوية. والدي ممددٌ فوق العشب عند أسفل المنحل، والبندقية مائلةٌ على مقربة منه، كما لو انزلقت من بين يديه عند السقوط. تضع والدتي يديها على قلبِها، ثم تنقلع من الجدار وتتقدّم بحذرٍ تجاه والدي. ولما تقترب بضع خطوات من خلفه تتوقفُ وتطيل النظر فيه، ثم تستدير وتعود إلى مكانها. إنه يتنفس، تقول في همس، إنه لم يَقتل نفسَه. إنه يتظاهر بالموت فقط، فلا نرى دمًا ولا جُرحًا. قولي لجدتك أن تنزل وتأخذ بندقية والدك. فإن لمستُ أنا البندقية فالخطرُ كل الخطر أن يرتمي عليّ. مَن يدري، تقول أمي. في هذه اللحظة كانت جدتي تركض ركضًا وفي يدها كوبٌ صغير من الماء المقدس ما لبثت أن رشّت به والدي. يسوع مريم، يسوع مريم، ما الذي أصاب عائلتنا، تئنُّ جدتي وهي تمدّ يدها نحو البندقية.

يدير والدي وجهَه جانبًا. ويغمغم بشيء لا أفهمه. وأتحوّل عنه كما لن أتحول عنه طوال عمري. أشعرُ أنه يريد أن يعتَب على طفولتي، وأحسّ أنه يفتح ثغرةً في ظهري الذي انحنى قليلاً خوفًا من أن يلاحِظ أحدٌ أن ظهري يتخلى عن والدي وينصرف، حتى وإن لن يذهب بعيدًا، حتى وإن لن يفارقه إلى الأبد.

Twitter: @ketab_n

أراني مغروزةً في طفولتي مثل وَتَدٍ دُقّ في ساحةٍ ليهزّه من يهزّه كلَّ يوم حتى يتحقق من أنه يتحمّل الهزات جيدًا.

أفكاري مبلبلة. ومِن رأسي يخرج صوتٌ ويغزو أطرافي، ويغزو صدري من دون أن أفهم أي شيء.

كم من عجائز يمرّون أمامي فينظرون إليّ بعيونهم الغريبة المبلّلة. وتَعْلَقُ أنظارهُم بكتفيَ، ومحيّايَ. وأحيانًا يلمس فلوري صدري ليرى ما الذي تغيّر فيه. حين أبلغ السنّ المطلوبة سوف يأتي، يقول، إنه يرغب في الزواج مني.

ستيفان، هذا الذي استأجر تخشيبة السقف في منزل القدماء منذ عامٍ أراه اليوم يُخفي وراء وجهِه شيئًا لا قوة ولا حول له فيه. يشربُ فتفوح منه رائحة عرقٍ قديم حامضة. وعندما يتحدث إلى شخص يُوجّه كلامه كعادته إلى الفراغ بجانبه، كأنه عاجز عن أن ينظر في عيون الشخص، وكأن الجُملَ يجب أن تتسلّل من دون أن يحول شيءٌ دونها والوصول إلى قنوات آذان محاوريه. فهو حطّاب عند الكونت، لكنه يجد راحته الكاملة في عائلتنا. يجلس في المطبخ ويسكب قطراته من الخمر في نقيع أعشاب أخي الأصغر. فأشعرُ بالخجل له، ولا أعرف إن كان يليقُ بي أن أخبِر أمي بأمرِه. أمي التي لا شك أنها لن تصدّقني. أمّا جدتي فهي لا تطيق ستيفان، ولكن والدي ممتنٌّ له عندما يساعده في أعمال الغابة، أو عندما لا يبخل عليه بالعون في أوقات جمع الجفيف.

لا يسعني أن أستبطن ما أحياه حقًا. مشاعري لا تألفُها الكلماتُ التي أنطق بها. ففيما كنت أستطيع فيما مضى أن أرسل كلماتي في يُسرٍ نحو الأشياء، والمشاعر،

Twitter: @ketab_n

والنجيليات، فأدركها، فقد صارتْ الكلمات اليوم ترتدّ فوق الأشياء والمشاعر. ففي السابق كنت أخال أنّ الكلمات تحتضنها الأحاسيسُ، أما الآن فقد صرتُ أنزعج من أيّ شيءٍ لا أجدُ له لغة. وإنْ وُجِدتْ لغةٌ فلستُ أجد سبيلاً لاستعمالها.

تحدّدني تحركاتي. أذهب إلى المدرسة، وأعود إلى البيت. أمشي عبر الحقول وأعود، أرفع عينيّ نحو قمم الأشجار، وأتمدّد حتى أطول الفواكه. أمشي لغاية جدول الجبل الذي يملأ فورانُه الوادي ليصل إلى أعلى فقاعاته غير المرئية، مثل حمّام من الرغوة الرنانة. أفكاري أوهامٌ شعثاء، وافتراضات حول الموت الذي يُلقي جلده القديم ولا نعرف بعدُ متى سيظهر من جديد، ومتى سيُظهر كلَّ شيءٍ على حقيقته. إنه التخمين والشبهة.

لأطفالِ الكتبِ المدرسية دائمًا انشغالاتٌ أخرى مختلفة. لذا لا يشغلُهم أمري كثيراً. أفكّر في الانسحاب من طفولتي التي بدأ سقفُها يطير مني، ويُهددني بالانهيار معه. أفكّر أيضًا أني تحمّلتُ من الأشياء فوق ما تطيقه أيُّ طفولة، وأنّ الوقت قد حان لكي أُحلّق نحو ما لا أملك عنه بعدُ أيَّ فكرةٍ جاهزة.

ثم هناك فوقَ كل هذا تلك الكلماتُ التي تقف هنا وهنالك، مثل راقصات الباليرينا على رؤوس أصابعهن، بقرينولياتها الأنيقة. وشائعاتُ إرسالي إلى مدرسة أخرى. هذه الأفكار تتسرب إلى داخلي مثل أصواتٍ بلورية تنبعث من أجراس، فأتخيل كيف يمكن لمدرسة مختلفة أن تجعلني كتيمةً لا أثر للبيئة من حولي عليّ.

وتصير أفكاري الخفية أكثر غروراً. رغباتٌ خجولة، ومصقولة ولامعة، تبدأ في الدوران في رأسي. تفوح برائحة زئبق الوادي، وتبدو كأنها خارجة لتوّها من حمّام معطّر. ترتدي ملابس الأميرات وأحذيةً محشوةً ذاتَ كعابٍ عالية.

بعد المدرسة أحبُّ أن أذهب إلى العمة مالْكا، التي تعيش مع سفيرسينا في كوخ عائلةِ أوبرايش. كانت واحدةً من بنات مزرعتنا، وأصغرهنّ، وأجمل أخوات جدي.

Twitter: @ketab_n

تزوجتْ المزارعَ الأرمل أوبرايش، وبعد أن مات المزارعُ في الحرب ها هي ذي تقتسم حياتها بعد التقاعد مع سفيرسينا.

عمتي مالْكا وحدها تجد كلّ شيء أقوله رائعًا. فهي لا تكتفي بالابتسام لي. يشعُّ وجهُها كلما جئتُ لرؤيتها. تصفّق حين تراني وتداعب خديّ بكلتا يديها. تعانقني وتضمني إلى صدرها. يسوعي العذب، تصيح فيَ، يسوعي العذب، صغيرتي، صغيرتي العزيزة، ماذا تريدين أن أعطيَك. تُعِدّ الفطائر وتطليها بطبقةٍ سميكة من المربّى. تُسرّب لي الحلوى التي تتوهّج في حقيبتي مثل كرات فألٍ صغيرة أظل أحتفظ بها لنفسي ولا أقتسمها مع أي أحد. تجلس بجانبي عندما آكل، وتريد أن تعرف ما الجديد في عائلتي. آه، لا جديد، أقول، وجدّتي بخير. وأبوكِ، تسألني. بخير أيضًا، أقول. لقد تحمّلا كثيرًا، تقول، ما أكثر ما تحملته هذه الأرواح. وتسألني إن كانت جدتي تحدثني عن الماضي. أحيانًا نعَم تحدثني، أقول، إني أعرف بعض القصص. يجب أن أسأل جدتي، تلح عليّ مالْكا، فهي أيضًا روَت الكثير لأطفالها لمّا ظهَر الفضولُ عندهم وحبّ الاطلاع. كيف ألقي القبضُ عليها حين عُرِف أنها من أنصار المقاومة. وكيف رُحِّلت إلى رافنسبروك. وكيف غيّرت الحربُ حياتها في المزرعة. بالطبع، يجب أن لا نُخيف الأطفال كثيرًا، لأنهم قد يصبحون غرباء الأطوار مثل الكبار، وذاك ما تخشاه، قالت، أو حتى مشوّشين مثلها. فهي، مثلاً، تخاف من الطائرات، فلا تكاد ترى طائرة في السماء حتى تسارع بالاختباء. صارت على مرّ السنين تتصرف مثل الصبيان، تقول مالْكا، كما لو أنها تحوّلت إلى فتاةٍ وليس إلى عجوز. هذه الأمورُ لا نجد لها تفسيرًا، مثلما لا نجد تفسيرًا للأحلام المرعبة. أحيانًا ترى مالْكا في الحلم أنها عادت إلى رافنسبروك، ولا يجد سفيرسينا بدًا من أن يهدّئها بلا انقطاع. لكنْ حتى هو أيضًا لا يعرف النوم، فيتحدّث عن ماوتهاوزن، ولكنْ من دون أن يقول عنه شيئًا كثيرًا. لم يكن يومًا ثرثارًا حقًا. لكنْ جدتي، تقول مالْكا، تظل محتفظة بعزّتها وإبائِها. أمّا هيَ فلم تصبح خوّافة مثل جدتي، ولا شرسة مثلها.

Twitter: @ketab_n

في المقابل، عندما يكون سفيرسينا جالسًا معنا إلى الطاولة المطلية البيضاء، أراه لا يلح عليّ في الحديث. لا يسأل أبدًا عن حال والديّ ولا عن حال جدتي. يظل غارقًا في صمتِه. من الجلي أنه يعلم أكثر مما أعلم.

Twitter: @ketab_n

بعد حادثِ البندقية الأخير صار والدي يتحفّظ معنا لأيام عديدة. يعمل في الغابة ولا يعود منها إلا نادراً. صار الحالُ في المزرعة كالحالِ بعد حدوث دويّ قوي. صرامةٌ جوانية تخنقنا، وتجعل كلامَنا صعبًا. أسائل نفسي إنْ كان حال أبي متوقفًا على حالي أنا أو حالِ أمي. وعبثًا أبحث في داخلي عن سببٍ يُحدِث مثل هذه الاندفاعات عند والدي، فألتفتُ إلى والدتي أراقبها بعناية فائقة. ضحكاتُها المدوّية تبدو مشبوهة، فأقول لها معاتبةً ألا تمزح مع والدي بذاتِ القدر من المرحِ الذي تمزح به مع بعض المعارف الذين يزوروننا، أو الذين تلتقي بهم عند خروجها من قداسها.

لكنّ والدي لطيفٌ أيضًا وأنيسٌ خارج البيتِ أكثر مما هو لطيفٌ أنيسٌ في داخله. فطالما هو صاحٍ من سُكره فهو يبتسم بحرارة. يتكئ بساعديه، في استرخاءٍ إلى جميع أنواع المساند والمتّكآت. وهو ثرثار، إذ يقول «أنا» و «أنا» و «أنا».

ظني أكثر وأكثر أنه يشعر حتمًا بالانجذاب نحو الذين كان النازيون يطاردونهم، ويشتبِه في الذين، كما يقول، يتكلّفون ويتعاظمون. لا يدهشني هذا، ولا أذكر أني دهشتُ لهذا يومًا. جدتي أيضًا تشتكي بلا انقطاع من ادّعاء أمي وعُجبها، ولأنها لا تملك أيَّ فكرة عن الناس وعن العالم من حولها. وذلك لأنها لم تعانِ طوال حياتها أبدًا، ولأنها لا تعرف معنى المعاناة أصلاً. أتساءل إن كان يجب أن أتخذ موقفًا في النزاع الكامن بين جدتي ووالدتي، وأقرّر في النهاية أن أنحاز لجدتي، لأنّ حياتها كانت شاقة، ولأن هنالك أشياء كثيرة تؤاخذني أمي عليها.

والدي ينسحبُ شيئًا فشيئًا من حياته الاجتماعية. فذات يوم سأله ميشي إنْ كان يرغب في الغناء ضمن جوقة الجمعية الثقافة السلوفينية المختلطة فراوغ وتلافَى الرد. ليتركوه بعيدًا عن الأنشطة الثقافية، يقول. لم يعد يرغب في الصعود على خشبة

Twitter: @ketab_n

المسرح، انتهى عصر المسرح وحياةُ عازفِ الموسيقا. يأسف ميشي لذلك ويطلب منه المشاركة على الأقل في الرحلة التي تنظمها الجمعية الثقافية مرة في السنة. ففيها دائمًا الكثيرُ من المرح. نعم، يقول والدي أنه سوف يأتي. ويرفض أيضًا الذهاب إلى المدرسة في يوم اجتماعات الآباء والمعلمين. إنها جيدة بالنسبة للذين يعتقدون أنهم أصحاب همّة، يقول. لم يكن والدي يومًا جزءًا من هؤلاء الناس...أصحاب الهمة.

أحيانًا أذهب للبحث عنه عند الجيران الذين يطيل البقاء عندهم، كما يقول، بعد أعماله في الغابة. يحب كثيراً مزرعة برسمان، والجلوسَ في المطبخ مع آنسي التي نجت من الموتِ بعد أن قتلت الشرطة الألمانية كل أفراد أسرتها. في تلك الأثناء كانت في السابعة من العمر، يقول والدي، وقد تلقّت ستّ طلقات نارية. لا زالت الآثارُ باديةً في الذقن وفي يدِها. لقد تظاهرت بالموت، لكنّ الأطفال الأصغر منها سنًّا بكَوا كثيراً، فلم ينجوا من الموت.

عند وصولي إلى بيت الجيران أجد والدي في العادة جالسًا عند أحد أطراف طاولة المطبخ وفي يده زجاجة من الجعة. وأرى آنسي متربّعة بالقرب من الموقد حتى تحتفظ بدفءِ طعامِ أطفالها. ولا أكاد أدخل إلى المطبخ حتى آخذ في البحث عن علامات الرصاص فوق وجهها وذراعيها. لقد تمكنتْ من الاختباء وراء الموقد، تقول آنسي، لكنّ أخاها الصغير الذي كانت تحمله بين ذراعيها لم ينجُ من الموت.

على جبهة البيتِ وُضع لوحٌ من الرخامِ حُفِرت عليه باللون الذهبي أسماءُ الأطفال والآباء والأجداد. يقول والدي أنه لا يستطيع العيش في مثل هذا البيت الذي يعيد إليه ذكرى الأمواتِ مرّات عديدة كل اليوم. كلما غادر البيت، وكلما عاد إليه.

بعد عودتي من المدرسة ذات يوم تقول جدتي إنّ العجوز بِكنيكا فارقت الحياة، وتطلب مني أن أرافقها لسهرة العزاء.

وعند هبوط الظلام نجتاز المرجَ خلف منزلنا ونصعد المشجَر الصغير لغاية بيت

Twitter: @ketab_n

بكنيك. عند المدخل أشخاص يتحدثون بصوت خافت. أدخلُ مع جدتي إلى القاعة التي وضِع فيها تابوت بكنيكا. جيرانٌ جالسون على مقاعد خشبية على طول الجدران، يدعون ويصلون. النعشُ منتصبٌ أمام النافذة، محاطٌ بأكاليل الزهور، ومن حوله الضوءُ الأحمر والأبيض. تقطع جدتي قطعة صغيرة من رغيف الخبز الذي يُقدّم إليها. تناولني لقمةً منه وتقول إنها حين قَطعت هذا الخبز أخذت قطعةً من الأبدية. بهذا الخبزِ نتعارف في الآخرة، بهذا الخبز الذي نأكله عندما نسهر على الموتى. لستُ متأكدة إن كنتُ سآكل هذا الخبزَ، لأن فكرة الالتقاء بالموتى في الآخرة تخيفني كثيراً. أسحبُ الخبزَ من فمي سريعًا وأضعه في جيب سترتي. عند قدَم النعش وُضع على منضدة صغيرة نوعان من الشمع الأبيض، وتمثالٌ لمريم العذراء، وصورةٌ مُبَروزة وقدَحانِ من الشاي مملوءان بالماء المقدس لرشّ المتوفاة. عندها فقط ألاحظ القرنفل الأحمر الذي يحيطُ التابوتَ وقد بدا كأنه ينمو على جانبَي الجثة. تطلب مني جدتي أن آخذ غصنين من نباتِ البقس في كوب الشاي وأرش المتوفية بالماء المقدس. من الفقيدة لا أرى سوى اليدين القويّتين المنعقدتين فوق بطنها. وعند رأس التابوت ترفعني جدتي قليلاً حتى أتمكن من رؤية وجهِ الفقيدة. أجدني في مواجهة وَجْهٍ غريب، ثخينٍ وغريب، محاطٍ بخمارٍ قاتم فوق الكتفين. وفي عجلةٍ أرسم بغُصن البقس حركاتٍ في شكل الصليب. انتهيتُ، أقول لجدتي التي تتذمر تحت ثقلي. وتدعني أنزلق أرضًا، وتضع يدها فوق ساعد المتوفية، وبأطراف الأصابع ترسم إشارة الصليب. وبعد أن نجلس على مقعدٍ خالٍ بالقرب من النعش ألمحُ ميشي جالسًا على هذا المقعد وهو يبكي. أسألُ جدتي إن كان ميشي من أسرة المتوفاة فتقول لا، ولكنّ بكنِيكا كانت تُحسن إلى أطفال الجيران كثيراً.

Twitter: @ketab_n

في طريق العودة تروي جدتي أن بكنيكا أوتْ في عيد ميلاد ٤٤ ميشي وأختَيها زوفكا وبريديكا، بعد أن حاصرت الشرطة بيتَ كوشار، وأطلقت النار على عمّتها ليني، والدة ميشي، وعلى الأنصار الذين كانوا يختبئون في المنزل. ومن حسن الحظ أن ميشي أمسك بوالدته، وهكذا حال دونها والهروب من المنزل، وإلا لكانت الدورية حصدتها كما فعلت مع بريموز الذي هرع إلى الهواء الطلق قبلها. كان ميشي البالغ من العمر سبعة أعوام يرتجف بكل أطرافه حين خرج أمام البيت مع الأختين كنوليك، آني ومالْكا اللتين كانتا من نصيرات المقاومة أيضا. الأختان كنوليك اللتان قُبضَ عليها على الفور سرعان ما اقتِيدتا إلى رافنسبروك. لقد تخطى ميشي جثة بريموز ورأى الشرطة وهي تضرب بعقب البندقية اثنين آخرين من الأنصار بعد استسلامهما. كان أحد الأنصار الذي أصيبوا هو شقيقُه سيريل. تقول جدتي إني أعرفه بالتأكيد. كان الأطفال قد وصلوا إلى بيت بكنيك وعليهم بعض الآثار. وقد هدأت بكنيكا روعَهم وآوتهم إلى أن هدأ روعُهم وتحسّنت حالتهم، بعد أسبوعين، وعادوا إلى ذويهم في لوبنيك.

بعد انتهاء جنازة بكنيكا في أيسنكابل، حيث ذهب والدي ووالدتي، أرهِفُ السمعَ جيدًا لكي أنصتَ إلى محادثة حادة بين والدي وجدتي في الغرفة الكبيرة.

يعلم ذلك جيدًا، يقول، لقد أخبره بذلك بيتي، اللهم إلا إذا كان العجوز بكنيك العجوز، أن الاثنين، في كانون الثاني ٤٤، بعد أن ضربت الشرطة إلى حد الموتِ، يونيك العجوز الذي كان طريح الفراش لإصابته بالتهاب رئوي، وبعد أن قتلت المزارعين، ذهبا إلى بيت هونيك ليطّلعا على ما حدث. في الواقع، سُمِعتْ طلقاتٌ نارية في بيت بكنيك ولوحظ أن شيئًا ما كان يحترق. كان القتلى

Twitter: @ketab_n

ممدّدين فوق كومة الجفيف، نصف متفحّمين. وكان بكنيك العجوز قد ذهب إلى أيسنكابل ليُخبِر بالحدث، ثم جاءت الشرطة أثناء الليل وسكبت البنزين على عائلة يونيك ثم أحرقتها في النهاية. لكنْ لا، تقول جدتي، يونيك العجوز لم يكن مريضًا، ابنُه يوهان هو الذي كان في السرير مع التهابه الرئوي عندما دهمت الشرطة المنزل. وقد طار عقل يونيك العجوز لأن الشرطة لم تكن ترغب في القبض على ابنه المريض فقط، وإنما أيضًا على كنّته أنجيلا، وعلى حفيديه ميتزي ويوهان. لقد حمّلت الشرطة عربتين يجرّهما ثورٌ بالمؤونة والأغطية المسروقة، وأمرت يونيك العجوز باتباعها، بيد أنه بالكاد يستطيع المشي في الثلج العميق بعكّازه. يجلس على حافة الطريق ويقول إنه لن يسمح بأن يُأخذ قسرًا من مزرعته. ولذا لا تتوانى الشرطة عن قتله وهو متكئ على عكازه. لقد التصق دماغُه بالأشجار التي كانت من حول المكانِ، وذاك ما روته ميتزي التي كان عمرها ثمانية عشرة في رافنسبروك، حيث اقتيدت بعد الاعتقال، تقول جدتي. ميتزي وشقيقها يوهان، الذي اضطر لقيادة إحدى العربتين المحملتين، أُجبرا على مشاهدة مقتل أبويهما وجدّيهما. وفوق ذلك قُتلت ميتزي يونيك في يوم إخلاء رافنسبروك على يد جندي من وحدات النخبة المسلحة جعل يطلق النار دون تمييزٍ، لأنه كان في حالة سكر، ولأن ميتزي، في تلك اللحظة كانت قد خرجت عن الصف. يوم الإخلاء، أتفهم، هكذا، بالصدفة، تقول جدتي وهي ترفع صوتها. لم يمنحوها الحق في العودة إلى منزلها وذويها. على أي حال، تقول جدتي بعد هنيهة، كلاري الصغيرة التي تركتها الشرطة وحدها في المزرعة مع أشقائها وشقيقاتها الأصغر منها، لم تغادر البيت ثلاثة أيام كاملة. وبكنيكا هي التي جاءت لتأخذ الأطفال، المرعوبين، الذين تمْتَرَسوا بالخوف والهلع في داخل البيت. كلاري، الصغير ابن العاشرة، وروكي روزيكا التي كانت في الثالثة، وميهاك، وعمره ثلاثة عشرة. وقد أخذتهم إلى بيت بكنيك.

هونيك فوق بكنيك، وكوشار من تحت بكنيك، والنساء بعضهنّ فوق بعض،

Twitter: @ketab_n

وامرأتنا بالقرب من الجميع. أمكثُ واقفة بالقرب من الباب، وأصغي.

وبينما أرهفُ السمعَ إذا بشيءٍ ينهار في صدري وكأن كومةً من الخشب تنهار نحو الخلف، في الزمن الذي سبق زماني. زمنٌ يحاول أن يستولي عليّ، أنا التي بدأتْ تستسلم بقوة الانبهار والهلع. ها هو ذا، لقد أدركني، ها هو ذا لقد أوقعني، أقول لنفسي.

تدرك الطفلةُ أن الماضي هو الذي يجب أن يؤخذ في الاعتبار. فهي لا تستطيع ببساطةٍ أن تُلوِّح برغباتها الخاصة وتُلوِّح بحاضِرها.

إنه الحاضرُ المكتسحُ الذي يستعمله الكبارُ مِنْ على ضفّته كنقطةِ إطلالةٍ على كل ما مضى وانقضى، وهو الحاضرُ الذي ما انفك منذ الزمنِ الذي كان وهو ما يزال حاضراً، يقطع الطريقَ أمام كل إطلالة. الطفولة تستمرّ في النظر نحو ما هو قادم، كأنه بداهةٌ لا لبس فيها. لكنّ المستقبل إنْ قيس بوزن ما مضى وانقضى سيصبح زمنًا بوزْن الريشة. فما الذي يمكن أن يحمِله، وإلى أين سيؤدي؟ أليس يكفينا أن يكون كافيًا لكي نحيا، هكذا يُخمّن والدي، وتُخمّن الطفلةُ أحيانًا.

في الكتب التي أقرؤها تظل أجسامُ البشر سليمة، وتصعد إلى السماء في حلةٍ من الغبطة والبهجة، أو تحاصَر عند سقوطها. وعلى النقيضِ من هذا، وكما أراني أدركُ فجأة، تُبادُ الأجسادُ في وديانِنا المقعرّة وتدمَّر تحذيراً للأجساد الباقية. هنا يعصِف أكثرُ ألوان التبديد خطورة، وهناك يُلقَى بالحياة من النوافذ. هنا تُقطع الأجساد وكم يثيره ذلك من دموع وحزن.

ففيما دخلتُ ذات يومٍ إلى مطبخ الجار المقيم من تحتنا، إذا بِليوني تدفعني إلى

Twitter: @ketab_n

الخارج في إصرارٍ وإلحاح. النجدة، صرختْ، النجدة، إليّ في الحالِ بوسيط روحي! وإذا بي أرى ممدّدًا على مقعدِ المطبخ شقيقَها أنْدِى وهو يئن أنينًا. أبيض اللون مثل البياض. وسكينُ المطبخ مغروزٌ في بطنه. والأمُ تندب وتصرخ، لا تسحبي السكينة، لا تسحبيها، الطبيب بسرعة! يكفي أن أصطحب أخي وأختي، التوأم، لتناول مرطباتٍ مثلجة في راستونيك لأرى روزي وفليكا ينطلقان بأقصى سرعة على دراجة نارية فيقعان في منعطفٍ بعد الإسطبل. روزي وهي تجري في اتجاهي، مضرّجة بالدماء، تطلب المساعدة، فيما شقيقتُها ملقاة على حافة الشارع، مكسورة الرقبة، محتضرة. ولا يكاد نحيبُ الأسرة في موقع الحادث يخمد في رأسي حتى يشنَق ستيفان نفسَه، ستيفان المقيم عندنا، والذي تَرك لأسابيع عدة بُقعَ الزفت والدم على جميع الكراسي والمقاعد التي جلس عليها. شنَق نفسَه بالقرب من مدخل اللإسطبل، تحت الدرابزين الذي يؤدي إلى البيدر، كما لو أنه أراد أن يتأرجح أمام عينَي والدتي التي عادةً ما تكون أوّلَ من يدخل الإسطبل في الصباح. لقد أفلتت أعصابُها منها، تقول جدتي وهي تخاطبنا، نحن الواقفين حول الطاولة، في رُعبٍ بعد هذه الحادثة. يجب أوّلاً أن تهدأ، وعلينا نحن الأطفال أن نمكث في داخل البيت حتى يؤتَى بالجثة. لكننا، نحن الأطفال، ومن دون انتظار عربة الموتى، وبعيونٍ راصدة نسحب الجثة نحو البيت. أخرجناها من تحت الدرابزين الخشبي الذي يخفيها، وبدأنا نتخيل منظرَها المروع، ونتصور أننا جاثمون فوق الخشبة وعيوننا ما بين الألواح تنظر إلى الساقين المتأرجحتين، الساقين المتدلّيتين، خامدتين في لباسِ العمل الأزرق. إلى حين وصول الطبيب. كنا في مرات عديدة قد تخيلنا مثل هذا المشهد من الدرابزين. مثلما نشاهد من على الشاطئ الموجات الهادرة. مِن على شرفة الحياة نشاهدُ الموتَ وهو يعمل، مرتديًا أزرقَ العمل. يريد الموتُ بما وسعه ألا نتعرّف إليه تحت الحظيرة، يريد أن يدفع الجثةَ أمامه من دون أن نراها. ولكنّنا عرفناها وشعرنا بنفَسٍ من أنفاسِ وجودها.

بكت أمي أيامًا عدة. لن يسعها أن تدخل الإسطبل بعد ذلك اليوم غير

Twitter: @ketab_n

مكترثة، تقول نادبة. لقد شنق ستيفان نفسه في الحظيرة حتى يعاقبها، كان بوسعه أن يشنق نفسه في أماكن أخرى حتى لا تكون هي من تكتشفه. تقول جدتي، حسنًا ما فعله ستيفان بها.

ما لبث بيتُنا أن ضاق بالموتُ وصار صاخبًا جدًا. فلجأ إلى مزرعة أوبرايش بعد أن اختفى وطواه النسيانُ بعض الوقت. إلى أن جاء المزارعُ، صديقُ والدي، ليزعجه بعد مرور بضعة أشهر، حين أطلق النار على نفسه. ففي صباح اليوم الذي قيل لنا أنّ فرانز أطلق رصاصة في رأسه، وأنه أخطأ التسديدَ فطارت عيناه من رأسه أحسستُ بالخناق، وشعرتُ أنّ الموت لم يتراجع عن مضايقة والدي، وأنه اكتفى بالالتفاف فقط، حتى يقترب منه أكثر، ويستطيع أن يباغته بضربةٍ على حين غرة. فها هو ذا وقد فعل، يقول أبي. لقد فعَل فعلته على أي حال. أدفعُ فكرةَ والدي إلى منتهاها فتضعُني في الحال في كل حالاتي النفسية. لقد بدأتُ أفهم أنّ الموت بات جادًا. فالآن عليّ أن أقوم بمهمتي. فالآن جاء دوري في إنقاذ والدي.

بعد جنازة فرانز، أتأمل والدي في قلق. أعلمُ أنّ العمل يحميه خلال أيام الأسبوع، ولكن في عطلة نهاية الأسبوع يصبح تَهيُّجه ملحوظًا جليًا. نخال كأنه يلاحظ حياتَه باستمرارٍ، وكأنه في حيرةٍ من مشاعر لا سبيل لهروبه منها. ففي يوم الأحد يحلق ذقنه وهو عاري الصدر في المطبخ، ويغسِل الإبطين بالماء الذي يسبح فيه شعرُ اللحية ورغوة الحلاقة. ويمشط شعره بمشط قديم يغطسه في ماء الحلاقة. يشتمّ عطرَ الصابون، وعندما يحس بنظراتي أحيانًا إذا بابتسامةٍ تلمعُ في عينيه، مثل وخزةٍ صغيرة، مثل إشارة إلى أوقات أفضل كانت موجودة في يومٍ من الأيام، وخيرٌ لنا ألا نفكر فيها.

أيهمني أن أعرف، سألني ذات مرة، ما خطر بباله في جنازة فرانز؟ فأومئ له

Twitter: @ketab_n

بنعم. يقول إن الناس لا يدركون الشخص الذي يفقدونه إلا في لحظة الجنازة. عندها فقط يعترفون بالأهمية التي كان يحملها ذلك الشخص الذي وضعوه في باطن الأرض، ويدركون القيمة الإنسانية التي كان ينطوي عليها في حياته. ففي وقتِ الوداع تتمالكهم المشاعر، فيبكون وينتحبون، لكنْ بعد فوات الأوان، وإلى ما لا نهاية. لأنه لا يفيد الفقيدَ في شيءٍ أن يُدفَن في حفلٍ مأتمٍ مهيب. أأفهمُ هذا؟ وأومِئُ بنعم مرة أخرى. يُكرَّم شخصٌ لأول مرة، فيلقِي الجميعُ الزهورَ على نعشه، ويقيمون الخطب التي يمدح فيها المجتمعُ الأعمال والتضحيات التي قدمها خلال حياته، لكنّ كلّ هذا لا معنى له. فلجنازته هو، يقول والدي، سوف يسهر على أن يوفر البعضُ دموعَهم ونواحهم، وسوف يندهشون كثيراً. سوف يدركون لأوّل مرة بأنهم أساؤوا إليه، ومنذ هذه اللحظة سوف يندمون طوال العمر، لأنهم عاملوه كما يعاملون كلبًا جَربًا. فمِن نعشِه سوف يرفض دموعَهم ويُريهم أنه عنيد، حتى وإن أنّوا طلبًا لغفرانه. هذا هو ما أقسم عليه، يقول والدي.

أتصور موكبًا بشريًا يمشي خلف نعش والدي، والمشيعون الحزانى يضربون بأيديهم على صدورهم من قبيل التوبة، ليجتمعوا بعد ذلك بقليل حول حفرة مفتوحة وتنحني أمامها رؤوسهم. أتفق مع والدي، وعليّ أن أبذل جهدًا كبيراً حتى لا أنفجر شهيقًا، لأني أستشعر أني قد شهدتُ أيضًا سخرية واستياءً.

يزداد قلقي فقط عندما يذهبُ إلى النزلِ بعد ظُهر يوم الأحد. فلا يكاد الليلُ ينزل وأسمعُه عند عودته وهو يشكو ويتذمّر خلف الإسطبل حتى أجلس عند نافذة غرفة المعيشة، من حيث يسعني رؤية الإسطبل، ولاسيما الدرابزين المؤدي إلى العلية. تطلب مني والدتي أن أحسب كم وقتًا يمكث والدي في العلية. فإذا لم يعدْ بعد نصف ساعة، عليكِ بالذهابِ إليه والعودة به. ما أكثر الدعامات والعوارض. العلية مكانٌ يوحي بأفكار كثيرة، تقول والدتي.

Twitter: @ketab_n

ظني أني سمعت والدي في يوم من الأيام وهو يهدّد والدتي بأنه سشنق نفسَه في العلية، لأنها أخفَت بندقيته. فهو صياد وله حقٌّ في خراطيشه. وهي مجنونةٌ لأنها حرمته هذا الحق. ما من امرأة في ليبينا تجرؤ على سحبِ الخراطيش من زوجها. فلا يكاد والدي يشرع في تسلّق الدرابزين نحو العلية وهو يترنح حتى يحترق بدني بالأفكار المجنونة. الحمَّى تلتهمه، بدأ يلين مثل شمْع العسل حين تلمسه النار. في الغالب ينزِل والدي ولا يُطيل. لكنْ في أحيانٍ كثيرة كنا ننتظره طويلاً، لكنْ عبثًا، فيحبِس أنفاسَنا، ونهرع إلى العلية فنجده فوق الجفيف نائمًا.

ذات صباح اثنين، أتفقدُ حقيبتي قبل الذهاب إلى المدرسة. فجأة يدخل والدي إلى الغرفة ويجلس على مقعد الموقد. وهو يمسك في يده حبلَ عجل ويتنهد. هذه المرة أطلقتُ العنانَ لدموعي وجلستُ بجانبه. جعل يتطلع في وجهي، دهِشًا كما لو أنه بدأ الآن فقط يفهم ما أظن أني قد فهمت. هيا، صغيرتي، قال، لا تبكي! فكرتُ فقط في ذلك، ولكن عندما أردت أن أفعل، عندما مرّرت حبل المشنقة حول عنقي شعرت أن شيئاً ما يمنعني، إنه ما يشبه الملاك، صدقيني، أعتقد أني رأيت كائنًا. لا أستطيع أن أفعل ذلك، يجب أن تعرفي! فلن أستطيع أن أفعل ذلك، يقول والدي.

فجأة تقف والدتي أمامنا وتمطر والدي صراخًا. هل يعي ما يفعله لهذه الطفلة، هل يدرك أنني أصاب بالحمى حين يبدأ في بلاهاته. ليكفّ عن إثارة الكرب في نفوس الأطفال، صرختْ، ليفكرْ قليلاً! ذاك لأنها تحبني، هي، يقول والدي في وجهها، وهو ما لا نستطيع أن نقوله عنك أنتِ. ثم على أيّ حال فهو ينوي أن يستقرّ بعض الوقت عند شقيقه.

في هذه اللحظة ينفجِر اليأسُ الذي ما انفك يتراكم في داخلي. فأصرخُ وأتوسل إليه ألا يذهب، وأن يبقى إلى جانبنا، وأستمسكُ به بشدة. سأمنعه، أقول لنفسي، يجب أن يفهم في النهاية أنه لا يمكن أن يغرب من حياتنا.

سيُغمَى عليها. أسمع أمي وهي تتحدث، لم أرها يومًا على هذه الحال. الطفلةُ

Twitter: @ketab_n

فقدت صوابها، تقول. يجب أن أنام الآن، لا يمكن أن أذهب إلى المدرسة وأنا في هذه الحال. الآن رأى والدي ما فَعله، لقد أغاظها، أغاظ طفلتَه.

ويحملاني إلى سريري، فأتلوّى في شراشِفي. تمسك أمي بيدي. فهي جالسةٌ بالقرب مني كما لم تجلس من قبلُ قط. تناولني حليبًا ساخنًا وعصير التفاح. وسوف تأتيني بالكشمشة من محفوظاتِ القبو لو رغبتُها. يجب أن تهدأ نفسي، تقول أمي، لو صليتُ بخشوع. فالربُ سوف يُفرج كربي. أمي مؤمنة، أما أنا فلا.

في ما تلا من أسابيع صار والدي لا يذوق طعم النوم. أضحى يمضي ليالِيَ لا تنتهي يؤرجِح فيها جذعه ورأسه اللذين صارا يوجِعانه. صار يئنُّ ويشتكي من أن صداعَه مطهِّر لروحه. لكنه لا يتصور كيف للسماء أن تكبّده مثل هذا الألم، ولماذا تُعاقبه بمثل هذا الصداع بالغ الألم.

ذات مساء عند المدخل، جعلتْ جدتي من خلف ظهرْه تلقي فوق رأسه جمرًا مبرّدًا جلبته من مقلاة حديد الزهر. لكلِّ ألمٍ جمرة.

اِلقِ بالألمِ من خلف ظهرك، احبِسْ أنفاسك، أدعُ ربّك! الإيمانُ واجبٌ، تقول جدتي. لا بد من استدعاء القديس، لأن الاستماع يعني الطاعة. مخائيل ورافاييل، وغابرييل، وسوريال، وزازييل، وباداكييل! اذهبْ، أيها المرض، الربُّ يطردك! اذهبْ، أيها المرض، الربُّ يطردك!

Twitter: @ketab_n

من فرطِ إرهاقي بدأتُ أنكمش خارج جسدي الذي يحسّ بكل شيء. يُدهشني كثيراً أن لا يفكر أحدٌ في أن يقول لي صيغةً من صيغ الإغاثة تُبقيني في مأمنٍ من كل شرّ. يدهشني أن ينسَى الجميعُ أن يُغطّوني بكلمات واقية حتى أظل بمنأىً عن هذا الواقع الذي يجعلني أرتجف عند كل حادث جديد. في وسعي أن أمسك بكل الأيادي، وأن أجثو تحت كل الأشجار، وأمام كل البهائم التي أمرّ بالقرب منها. أخاطبُ العجول، وأداعب الأبقار الهادئة حين أقتادُها من المراعي إلى الإسطبل.

جدتي كثيراً ما تلقي إليَ بإشارات حتى أُقبل على رؤيتها، لأنها تريد أن تكشف لي أمراً. تسألني إن كنتُ أرغب في أن أمضي الليل في منزل القدماء، إنْ كان يُغبِطني أن أقاسمها سريرها. أحبّذ هذا، حقًا أريد! ولكن، فقط إنْ كانت والدتُك لا تمانع، تضيف جدتي، وقد ملأت صوتها رجفةٌ خفيفة، بالطبع، يجب أن تأخذي الإذن منها.

أحيانًا أسأل والدتي، من دون أن تعلم جدتي مسبقًا. أدعو نفسي ضيفةً عليها، ببساطةٍ وطيبة خاطر. لا أحب أن أكون وحيدة.

غرفةُ نوم جدتي مكانٌ للذاكرة، وخليةُ ملِكةٍ يبدو كل شيء فيها مغموراً في سائلٍ حليبي، أو حاضنةٌ أتغذى فيها بالخلاصات المغذية، غذاء العطف الأمومي الذي لا حد له. ففي هذه الخليةِ الجرثومية أتشكل، وهو ما فهمتُه بعد سنين طويلة. من هنا لا سبيل للهروب من الآثار التي تطبعُها فيَ جدتي. إنها حواسي التي ستنقُل إلى العالم ارتجاجاتِ جدتي، والتي سوف ترى في كل الأشياء احتمالاتِ الهدم والتدمير. والتي تترصد الاقتراناتِ السعيدةَ، والأوقات القليلةَ التي يصبح فيها

Twitter: @ketab_n

التغييرُ ممكنًا، لأن الخلاصَ يجب انتظاره والسعي لإعداده، لكن من دون اقترانٍ سعيدٍ يصبح هذا الخلاصُ زوالا وعدَمًا.

منذ اللحظة التي تقرّر فيها جدتي أن أشاركها في هذين العامين اللذين أثّرا في حياتها أيما تأثير. كُتَيّبات نساء رافنسبروك، وهل هذا يهمني؟ التي جلبتها من حفل تذكاري من رافنسبروك، مكانُها فوق منضدتها إلى جنب صبغة زهرة العطاس وسائِل الأرطماسية المر. من وقت لآخر، تسلمني جدتي واحدًا من هذه الكتيّبات وتطلب مني أن أقرأ لها منها. أجلس على طاولة المطبخ القديمة وأقرأ: في رافنسبروك كان هناك قائد المعسكر، وقائد الاعتقالات الوقائية، ومدير الإدارة، ورئيس العمل الإجباري، وموظفو القسم السياسي للجستابو، وأطباء المعسكر، وممرضات وحدات النخبة المسلحة والمراقبات، ومصالح المراقبة التابعة لحرس وحدات النخبة المسلحة

هـاتِ، تقول جدتي وهي تستولي على الكتيّب في حركة متلهّفة. تتصفح الكتابَ وتشير بإصبعها إلى مجموعة من النساء الجالسات على مقعدٍ المتّهَمين. وتشير إلى امرأة شقراء بعينها. هذه المرأة كانت أسوأ النساء جميعًا، تقول جدتي. كان عندها كلبٌ تُهيّجه ضد السجينات لمّا ينهَرن عندما يُنادَى عليهنّ. ما زالت تذكر هذا الكلب البوليسي وهو يسحب زمامَه قبل أن ينقضّ على امرأة مُنهارة. سبق وأن عضّ هذا الكلبُ امرأة بولونية تقيم في جناحها. وما لبثت ساقاها أن امتلأت بثقوبٍ بارزة. وجاءتْ طبيبة بولونية ونظّفت جروحَها بالبول. ونصحت النساء بأن يغسلن جروحهنّ بالبول، فهو فعّال. ولا يوجد شيءٌ غيره، لا ضِمادات، ولا شيءٌ آخر بتاتًا.

إنها هيَ، المراقبة، تقول جدتي وهي تضع السبابة على وجه المرأة التي اختفت تحت إصبعها. كانت شابةً جدًا وسيئة جدًا، وعدوانية جدًا. يا إلهي، ما أسوأ بعض الناس، تصيح جدتي، وتبصق على الصورة. ثم تمسح الصفحات بكمّها حتى لا تلتصق.

Twitter: @ketab_n

قد يحدث أن تبصق أحيانًا على صورة طبيبةِ حرس وحدات النخبة المسلحة في المعسكر، لتنوب عن أطباء حرس وحدات النخبة المسلحة الذين التقت بهم لما اقتيدت إلى العيادة. كم أساءت هذه المرأة الطبيبة إلى النساء! كودنو، كودنو، čudno، čudno، تقول جدتي التي، هذه المرة أيضًا، تنطق بكلمة غريبة، وتعني بها: رهيبة

تعتقد أنها بفضل هذين الكتابين، لا أحد يستطيع أن يدعي أنها تخترع ما تقول. لا أحد يستطيع أن يتهمني بالكذب، تقول.

أحيانا تُخرِج من درج الطاولة دفترًا ملطّخًا أحمر اللون. هذا كتابي من أيام المعسكر، تقول وهي تفتح الدفتر. أنظري، في داخل الغلاف، كتبتُ knjiga od zapora Maria H، كتاب سجن ماريا.هـ. هذا الكتاب أهدته لي زميلة في المعتقل ونحن على طريق العودة. وهذه السجينة تلقّته من امرأة فرنسية. لقد مزقت منه بضع صفحات، لكنْ انظري، تقول جدتي، في برنزلو بدأتُ أدوّنُ الملاحظات. وتقرأ لي في ٢٨ نيسان أخرجونا من المعسكر، كانت الرحلة رهيبة،čudovita، لأن كلمة رهيب بالسلوفينية لم تحضرْها هذه المرة أيضًا. لقد أخذهنّ حرسُ وحدات النخبة المسلحة عبر طول الجبهة في الشمال، أو في الدوران في حلقات مفرغة، كما تقول. لا أحد كان يعرف أين نحن ذاهبات. لا تذكر جدتي سوى الأيام الأولى لما بلغت من الوهن والإعياء ما دعا غريغوريكا لحملِها. فذات مرة، وهي لا تزال تذكر ذلك، قطعن غابةً شاسعة لا نهاية لها. ففي كل مكانٍ أمواتٌ وأشخاصٌ أنهكهم التعبُ، وسياراتٌ محترقة، وآلاتٌ حرب. هناك تعثر غريغوريكا على نقالةٍ، فتضعها بداخلها وتدفعها. ثم يحلّ أوّلُ مايو فيختفي حرسُ وحدات النخبة المسلحة، وكأنهم تبخروا في الهواء. ولم يبق من حولهنّ سوى الرعد وإطلاق النار. وتنحدر النساء في مجموعاتٍ على طول خطوط القتال. أما مجموعتها فتمضي الليل في حظيرة خنازير. ويطلق الروس النار على المبنى فلم تجد إحدى النساء بدًا من أن تخرج في زي معتقَلي المعسكر المخطط حتى يفهم الروس أنهن معتقلات. عندئذ يقتل الروسُ

Twitter: @ketab_n

خنزيراً ويُعدّون طعامًا للجميع.

في اليوم التالي يواصلن رحلتهنّ، عبر الدمار، والقرى المقصوفة، وتحت الطائرات المحلقة فوق رؤوسهنّ على ارتفاعات منخفضة.ويسعين في البحث عن غذاءٍ وعن ملابس من المنازل المهجورة. كانت مجموعتهن تحت قيادة امرأة من يوبليانا، فقد بقينَ معها بعد أن قيل أن السلوفينيات سوف يُقتدن في مجموعاتٍ إلى منازلهنّ. وتظل النساء السلوفينيات ينتظرن شهر آب حتى يعُدن إلى ديارهن. أما النمساويات فقد آثرن أن يُدبّرن أمورهنّ بأنفسهن حتى يعُدن لديارهنّ فور انتهاء القتال، تقول جدتي.

لا تكاد جدتي تشرع في خلع ملابسها حتى أبدأ أنا في التخلي عن ثيابي.

تجلس على السرير وهي في قميصها، ثم تفكّ الضفيرة الرفيعة التي تمسك بها جديلة شعرها. وأجثو فوق السرير من خلف جدتي وأشرع في تسريح شعرها. يتدلى شعرُها الأشهب فوق عظام كتفيها. وتضع بالتناوبِ يدَها اليمنى ثم يدها اليسرى على الجزء الذي أمشطه من رأسها. إحذري، تقول، إحذري، بعد تنهدٍ أحيانًا. دخلتْ جدتي إلى المعسكر يوم ١٣ تشرين الثاني. النساء اللواتي اقتِدن معها إلى المعسكر مشيًا على الأقدام، عبر فورستنبرغ، خلعن ملابسهن فور وصولهن. وفي الساعة الأولى سمِعن استنفارًا جويًا، فاضطررن إلى البقاء عارياتٍ، ساعتين كاملتين، قبل أن يبدأ فحصهنّ. ثم حُلّق شعرهن. فلم تكد جدتي تنطق بلفظ الحلق حتى دفَعت بيدي دفعًا كما لو كنت لمستُ شعرها دون إذن منها. ثم ضفَرت شعرَها من جديد في حركات سريعة وثبّتتها في جديلة بواسطة دبابيس صغيرة. وتنهدت. كان عليها أن تتمدّد فوق طاولة، تقول، حتى يحقنوا مهبلها. وقد حرقتها الحقنةُ حرقًا فظيعًا. ولعل الحقنَ كان بسبب «أشياء» النساء المعروفة. كانت إحدى النساء في فترةِ طمثها فصار كل السيل يتدفق بين ساقيها. وقد أخذ الرجال بزيّهم العسكري

Twitter: @ketab_n

ينظرون إليها نظرة استخفافٍ وازدراءٍ. كانت عند نصفِ العمر تقريبًا. أمّا الأصغرُ منها سنًّا فقد لَقين بعض العناءِ بسبب جمالهن. لقد أُخرِجن من العنبَر الثاني عشر الذي ظلت جدتي محبوسةً فيه أربعة أسابيع، قبل أن يُقْتَدْنَ من جديد إلى هنا، تائهاتٍ مذعورات. ففي كل يوم، صباحًا ومساء، وُقوفٌ لساعتين في انتظار النداء. وتدافعٌ، ودموعٌ وبكاء. ويستمر هذا الحالُ فترة طويلة قبل أنْ يبدأ عدّهنّ. ثم كلُّ تلك النظرات المتعالية المستخِفّة التي تقيّمكِ وتَحكم إنْ كنتِ تصلُحين لهذه المهمة أو تلك.

أجدني فجأة أنظرُ إلى ملامح جدتي من خلال النظرات التي تسبرها. أرى العيون الغريبة تمتد مثل شبكة من فوق جسدها، وأتساءل إن كان الجلدُ ما زال يحتفظ بآثار الخوف عليه، لكني لا أرى الذعرَ مرتسمًا فيه. فالذعر لم يترك ندوبًا مرئية. جسدُ جدتي بارزُ التقاطيع مثل هيكل عظمي تمامًا. الترقوةُ المائلة والكتفان وشوكة الفقرة العنقية البارزة، والأضلاعُ، وعظم العضد الذي يتمدّد الجلد فوقه مثل شاشٍ خفيف. ليس لديها عضلات أو صدر. أُنظري، تقول وهي ترفع قميصها، صدري ليس أكثر من طيّة كبيرة. أنظرُ إليها بعينٍ واحدة، لكن جدتي تلوي فمها وتقول لي ألا أخاف من عجوزة. لقد رأت الكثير في حياتها، نساء عاريات، عاريات بلا تكليف. لقد رأتهنّ في جميع الحالات الممكنة. نساء، يا إلهي، تقول، كبيرات وصغيرات، هشّات، ومضروبات يتدلى الجلد منهن إربًا إربًا. وميّتاتٌ جلدُهنّ مثل الورق، الورق الأصفر، لو شئنا أن نقشّر هيكلهن العظمي لقشّرناه دون عناء. في البداية نظّفت جدتي المراحيض، من المستحيل أن تتصوري رائحة النتنِ فيها. كانت رائحة النتن تعلق بها، ولم يكن يسعها أن تغتسل من النتَن الذي يغزوها. أنجيلا بيسكميك، المعلمة، تضايقت كثيراً من رائحتها، لكنْ ما ذا كان يمكن أن تفعله ضد تلك الرائحة. القذارةُ هي القذارة، والبرازُ هو البراز، تقول جدتي.

تمرّر يديها فوق فخذيها المُغطّيين حتى الركبتين بملابس داخلية قطنية، وتحاول أن تمدد ظهرها وهي تستند إلى ساقيها. وتطلب مني أن أخلع خُفّيها. وأنزل من

Twitter: @ketab_n

على السرير وأخلع جواربها الصوفية. آثارُ المطاط ترتسم حول ربلة الساقين. تقول جدتي أن ساقيها تنتفخان كثيراً في المعسكر. ففي المعسكر بدأت ساقاها تنتفخان، ورجلاها تثقُلان، وتتورّمان. وفي المعسكر بدأت تشعر بآلام المفاصل والعظام، حتى شقّ عليها الوقوف أحيانًا. وتسألني إن كنت أرغب في رؤية إصبع القدم الكبير الذي يؤلمها، فأميل نحو قدميها.

ظفر إصبع قدمك الكبير يشبه مُلبّس من السكر، أقول. ويُضحكها هذا التشبيهُ كثيراً. مثل مُلبّس من السكر، تقول متسلية، لم أكن أعلم أني أحمل في رجلي ملبّسات من السكر! جلدُ جوفِ الركبتين مُزرقّ، والشعيرات الدموية تطفو مثل شبكة شعرية صغيرة فوق ربلة السيقان وعظم الساق الأكبر، وتغطي القدمين بضفيرة تشبه دلتا النهر.

أنأكل بعض البسكويت قبل أن نتمدد، تسألني جدتي بعد برهة.

فأوافق وتذهب إلى خزانة المطبخ لتحضر صندوقًا معدنيًا مع البسكويت الجاف. البسكويت الذي تفضل مصنوع من عجين الفتات الذي يذوب في الفم في الحال، تقول وهي تفك طقم أسنانها بالمنديل الذي تتركه دائمًا فوق منضدتها. جدتي لا تستعمل طقم أسنانها إلا لتناول الطعام. بعد وفاة جدي قررت ألا تحمِل طقم الأسنان أبدًا، ما الفائدة، تقول. فعلى أي حال فما من رجلٍ واحد سيرغب فيها. طقمُ الأسنان يجب أن يكون في متناول اليد، ولذلك فغالبًا ما تحمله في جيب مئزرها. ففي فمِها كثيراً ما تُشعرها الأسنانُ الثالثة أن لا فائدة منها، تقول.

عندما أتمدّد على السرير، وهي جالسةً تتحدث عن المعسكر، يطيب لها أن تذكر ميسي، ربيبتها. آه، وتتنهد، آهٍ لو كنتِ تعلمين هيئة ميسي عندما وجدتها في ساحة المعسكر! لقد ارتمت ميسي في حضنها، تروي جدتي، وهي تصيح مامًا، مامًا، ماذا تفعلين هنا! لم أتمالك ذرف الدموع، لفرط حزني عليها! لقد روتْ لها

Twitter: @ketab_n

ميسي أنها في اليوم الذي غادرت فيه المنزل متجهة إلى أيسنكابل لمراجعة الشرطة التي استدعتها، مرّت مروراً سريعًا عند عائلة سرتيف لتسأل إن كان من الأفضل أن تنضم إلى أنصار المقاومة. كان الأنصارُ قد بنوا ملجأ بالقرب من منزل سرتيف، تقول جدتي. لقد قال لها الأنصار، قالت ميسي، أن لا تحمل همًّا، فالشرطة لا تستطيع أن تُثبت شيئًا. فهي صغيرة جدًا، والانضمام إلى الأنصار قبيل فصل الشتاء يستعصي كثيراً على امرأة. فخيرٌ لها أن تنتظر في هدوء ما دام خطر الموت لا يهددها. وعليه تقدّمت ميسي إلى الشرطة. وهناك قالت لها الشرطة إن أشخاصًا قالوا إنها تتعاون مع الأنصار. ونفت ميسي عنها كل شيء، جملة وتفصيلاً. لكنّ الحُكم في حقها كان قد صدر، فرُحّلت إلى المعسكر. كانت ميسي وسخة، حائرة مرعوبة، تتذكر جدتي. شعرتْ أنها لن تبقى على قيد الحياة في المعسكر، وأنها أقرت بإخفاقها. في ذلك اليوم أحسّت أن ربيبتها لن تستمر طويلاً على قيد الحياة. وبعد ثلاثة اشهرٍ كتب إليها وِيني قائلاً إن جثمان ميسي قد نُقِل إلى لوبلان. وهنا انهارت جدتي. بكيتُ طوال الليل، تقول. وقد حثتني النساء في الثكنة أن أتمالك نفسي لأن المشاعر العميقة في المعسكر من مؤشرات الموت. لقد عُرّضت ميسي للغاز في لوبلان، عُرّضت للغاز في لوبلان، تكرّر جدتي، كأنها تريد الوقوف على الحقائق مرة أخرى. ومنذ ذلك اليوم، صارت لا تقدر على العمل خارج البيت. صارت بالكاد تستطيع الوقوف على ساقيها، تضيف. ولكن، انظري، في ١٠ أيار، تقول جدتي وهي تتصفح دفتر المعسكر، رأيتُ إشارةً في السماء. رأيتُ أخي ميكلاز، زوج كتاركا. وقد رويتُ ما رأيته لكتاركا التي كانت أختَ جدك. في تلك الأثناء كانت كتاركا تعاني المرض، وكانت في المستوصف. وقد وصفتُ لها رؤيتي وأخبرتها أن هذا لا يبشر بأي خير. وبعد فترة وجيزة، تقول جدتي، علمتْ كتاركا أن ميكلاز توفي في داخاو. وكهذا فقدت الرغبة في البقاء على قيد الحياة. كانت تقول إنها ترغب في الالتحاق بزوجها. كانت ما تزال تكتب الشعر وهي على فراش المرض، ولا تتوقف عن كتابة القصائد. كان الحال خطيراً جّدا. لأن امرأةً روسية

Twitter: @ketab_n

هناك في المعسكر تعرّضت للضرب حتى الموت بسبب القصائد التي كانت تكتبها. لكن كتاركا كانت تأمل في أن تخرج قصائدها إلى نور الحرية. فهي لا تعرف إنْ هي نجحت في ذلك، تقول جدتي. لقد زارت كتاركا، وظلت تزورها باستمرار حتى بعد أن نقلت هي نفسها إلى المستوصف، وأمضت فيه خمسة عشر يومًا بين المريضات المحكوم عليهن.. كان أمواتُ المستوصف يكدَّسون أثناء الليل أمام الحمّامات، فرقدت الجثث الهزيلة هناك على الأرض، مثل خشباتٍ مدوّرة تتعثر فيها الأقدام. كانت كتاركا تحمل جروحًا في الظهر، تقول جدتي، وأنا مستلقية على السرير أتخيل ظهر كتاركا الذي يشبه في مخيلتي، قطعة قماش مرسومة، مبلّلة من أقصاها إلى أقصاها بدوائر ملونة تنعكس منها أضواء حمراء ممزوجة ببتلات وردٍ مذبلة، تغطيها دمل متقيّحة. فأجدني وأنا ممدّدة من خلف ظهر جدتي، وعيناي مسمّرة فوق ظهر كتاركا أسبحُ في الماضي كما لو كنتُ في قلب قطرةٍ من الزمنِ تحوم في رأسي.

تتنفس جدتي بمشقة وتجتهد في استعادة أنفاسِها. تمضي أسبوعين في المستوصف، كما تقول، وبعد ذلك يتحسّن حالُها قليلاً. في المستوصف ترى طبيبات تشيكيات يتحدثن الألمانية، وكنّ يبذلن قصارى جهدهن لمساعدتها. التشيكيون متضامنون، كان ذلك واضحًا. فبعد أن تتماثل للشفاء تكلّفها بلوكوفا بالعمل في الداخل، فتغسل الأحواض الكبيرة في مطبخ السجناء. وهذا هو ما أبقاها على قيد الحياة، تقول جدتي، لأنه صار في إمكانها في أوقات كثيرة أن تسرق البقايا وتأكلها. كانت تضع جانبًا ما يتبقى وتعطيه لزميلاتها السجينات. وقد وسعها أيضًا أن تُسرّب لكتاركا باستمرار قشرةً من اللفت أو البطاطا، فكان ذلك حظًا ونعمة، لأنّ وجْبات السجينات تتكون من فضلاتٍ لو كنّ في بيوتهن لأعطينها للخنازير أو ألقينَها. توفيت كتاركا في ١ تموز، يومَ سبتٍ بعد الظهر. اقتربتُ من نافذة مخيم المريضات، ونظرتُ إلى الداخل فرأيتُ أن سرير كتاركا بات خاليًا، تقول جدتي. لقد أومأت إليها إحدى التشيكيات بأن كتاركا قد رُحّلت. وما انفكت جدتي تفكر

Twitter: @ketab_n

فيها وتتمنى ألا تكون كتاركا قد ليقت مصيراً كمصير جيرسي فيفودا القادمة من وادي لوبنيك. لقد أُلقِي بجيرسي حيةً بين الأموات، لكنها تمكنت من التخلص من كومة الجثث، وفي مرات ثلاث عادت إلى الجناح وهي تزحف. صليتُ من أجل أن تكون كتاركا قد لقيت الموت، تقول جدتي، حتى يكون مصيرها غير المصير الذي لقيته جِرسي الصغيرة من أعلى لوبنيك.

عندما تذكر جدتي حصصَ الغذاء في المعسكر تأخذها في الحالِ نوباتٌ من الجوع الشديد، فتفتح علبةَ البسكويت وتتناول جرّة من الفاكهة المطبوخة بالسكر من الخزانة التي تحتفظ فيها بمعلباتٍ كثيرة، وجرايات مُقوّية.

فإنْ وضعَتْ على الطاولة بوقالاً من العنب المطبوخ أعلمُ أنها قد سعِدت بالسهرةِ أيما سعادة. تتناول ملعقةً كبيرة في الدرج، ملعقة المعسكر الخاصة بالكبار، تقول جدتي، سرقتها من مطبخ المعسكر. اُنظري، تقول، وتُريني ما هو منقوشٌ على ظهر مقبض الملعقة، RAD «مصلحة عمل الرايخ». ثم تغطس المعلقة في فاكهة العنب المطبوخ وتُخرج من البوقالِ بضْعَ حبّات من العنب وتدعها تنزلق في فمها. أمّا القطعة الثانية فهي لي. فأغمِضُ عينيّ وأفتح فمي، فتُدَحرِج جدتي بضعَ حبّاتٍ من العنبِ فوق لساني. ويحدثُ أن أبتلع الحبات بالعرضِ، لأن فمي مليءٌ بالملعقة. لكنْ، ليس بهذه الشراهة، تقول جدتي، ليس بهذه الشراهة ! وقد جلبتْ من المعسكر ملعقتَها الخاصة أيضًا، ملعقة بسيطة من الألومنيوم، وضعتها مع الوثائق، حتى لا تضيع. وثيقةُ إثباتٍ، كما تقول.

من حينٍ إلى حينٍ تتناول من الخزانة علبةً رمادية مليئة بالصور. أين هي، أين ميسي، تغمغم وهي تفتش في الصور بالأسود والأبيض التي نرى فيها مدعواتٍ لحفل زفاف. أتطلع بمشاعر بعيدة المسافة إلى الصور التي تضعها لي على السرير. عندما كنتُ طفلة لم يكن يهزّ مشاعري سوى ميسي، وربما أيضًا نظرة كتاركا السوداوية.

Twitter: @ketab_n

ينصبّ اهتمامي الحقيقي على اللقطات التي أرى فيها جدتي وهي في سني. وألاحظ أنها تشبهني. وتقول جدتي أيضًا بعد أن تفكّرَ برهةً أننا ربما متشابهتان حقًا، لكنها غير متأكدة. أراكِ على هذه الصورة بفستانٍ جميلٍ أبيض، أقول وفي نفسي إعجابٌ، فتمرّرُ جدتي في حنانٍ إصبعًا فوق رأس الفتاة المزيّن بتاج من الزهور البيضاء. وبعد ذلك تأخذ في سرْد أصعب أيامِها في المعسكر.

منذ بداية العام ٤٥، ارتفع عددُ القوافل التي تصل إلى رافنسبروك. لم يعد هناك مكانٌ شاغر في المعسكرات فصارت النساء ينَمن ثُلاثَ أو رُباع على السرير الواحد. وصلتْ بولنديات وسلوفينيات كثيرات، ونساءٌ من الحضرِ قدِمن من فرنسا، وبلجيكا وهولندا. يا إلهي، هؤلاء النساء كنّ دومًا يكافحن دفاعًا عن ملابسهنّ وفرائهن. في الأيام القليلة الأولى مكثن جالسات أمام جناح الوافدات، ولم يصدّقن ما تراه عيونهن. أما نحن فقد كنا مرهقات، تقول جدتي، لقد هيّئنا أنفسنا لنصلح لأشياء كثيرة. فقدتْ جدتي من وزنها الكثيرَ خلال فصل الشتاء، بعد أن صار الأكلُ يقل يومًا بعد يوم، وصار يغيب أيامًا كاملة فلا يأتي منه شيء. ورأت النساء وهنّ يُنقَلن في الشاحنات، لتعود جثثُهنّ بعد ذلك وتنقَل إلى المحرقة. ولما جاء الربيع اختيرت جدتي أثناء النداء للإشراف على غرف الإعدام بالغاز. يا إلهي، كنت مستلقية على القش في مخيمات المصابين بالحمى الصفراء، في انتظار القافلة المتوجهة إلى غرف الغاز، تقول جدتي. وفجأة إذا بامرأة من فيينا تقول لها، نحن النمساويات، يجب أن نتكاتف فيما بيننا! لقد استبدلتْ هذه المرأة رقمَها برقم إحدى المتوفيات، وقد نصحتها بالاختباءِ فأغلقت على نفسها في داخل مرحاضٍ قبل مجيء القافلة، تقول جدتي. يا له من مشهد رهيب. لم يتوقّف طرقُ الباب. منظرٌ لا يطاق. فلن تكرّر ذلك مرة أخرى أبدًا. ومنذ ذلك اليوم لم تحضر النداء، وصارت تختبئ في المخيم تحت الأسرّة المنضّدة، وتتمَتْرس خلف الطرود التي تتسلمها النساء من ذويهن. وفي النهاية أمضت الوقت في المعسكر، مثل ميّتةٍ أخفَت موتَها.

أريد أن أقول لك شيئًا سوف يرافقكِ في الحياة، تقول جدتي أخيرًا: لا تُغلقي

Twitter: @ketab_n

على نفسك أبدًا في المرحاض بعد أن يقع عليك الاختيار أثناء النداء. تقاسمي الرّزمَ مع الآخرين، طالما تصلك رزمٌ من ذويك. اعتني بالأشياء القليلة التي في حوزتك. لأن في المعسكر يسرقون كلّ شيء في كل وقت. حافظي على علاقات جيدة مع زميلاتك في السجن، حتى لا تموتي وحيدة، ومن دون مساعدة.

منذ أن دخلتُ إلى المدرسة الثانوية صارت تطلب مني أن أساعدها على كتابة رسائل إلى تلك المرأة النمساوية. عليها فقط أن تفتش عن العنوان والاسم بالضبط، وبعد ذلك نستطيع كتابة الرسالة، تقول. لقد كتبتْ رسائل بعد عودتها من المعسكر، لكن بعد ذلك تباعدت المراسلاتُ، وانقطعت الصلات.

تُخرج جدتي بطاقةً بريدية من علبة الصور.»هيا، اقرئيها! تقول وهي تضع البطاقة تحت عيني. فأقرأ: *٩ . ٣ . ١٩٤٦ ، عزيزتي ميتزي، أشكرك على رسالتك اللطيفة، كم يسعدني أن تكون عودتكِ على ما يرام. كيف حالك؟ هل أنت في صحة جيدة وكيف حال أطفالك، هل تعرفين شيئًا عن زوجك؟ من جهتي، أنا بخير، وصغيري أيضًا مثل السحر، سيصير عمره أربع سنوات في يونيو/ حزيران. عزيزتي ميتزي! أفرِج عني في ١٣ شباط، وفي ١٦ شباط وصلت إلى المنزل آمنة سليمة. لا شك أن الحظ حالفني فأفلت من قبضة حرس وحدات النخبة المسلحة. عزيزتي ميتزي! ما أخبار سابين باور، هل كانت ما تزال معكِ؟ اكتبي لي عن أخبارها. ثم لدي سؤال آخر: هل تعرفين عنوان سابين شوايجر، أود كثيرًا أن أكتب لها. في انتظار أخبارك منك قريبا! صديقتك آنا وتلانر.*

أعيد البطاقة إلى جدتي. تبتسم. ثم تناولني رسالة. يشقّ عليّ فكّ الخط: *٣٠ نيسان ١٩٤٦. لم أتمكن من الرّد قبل اليوم على رسالتك اللطيفة، وأود أن أشكرك من خلال هذه الرسالة. هل تذكرين كل تلك الساعات التي مررنا بها أنتِ وأنا، والتي ذقنا فيها الأمرّين معًا. رغم كل شيء فقد نجونا: فاليوم صرنا ننعم بالحرية،*

Twitter: @ketab_n

ولا شيء يحول دون شعورنا بهذه الحرية! ولكن أخبريني، ما الذي حدث معك في فيسنبرغ؟ لماذا عدتِ في وقت متأخر جدًا إلى بيتك؟ كنتُ أنا في غراتس في ١٠ يوليو/ تموز. ماذا تفعلين الآن؟ أما زلتِ مسؤولة عن المزرعة؟ حسنًا، آمل أن تكوني قد استعدتِ كلَّ شيء! من جهتي، ليس عندي الكثير. فحتى الآن لم يسلموني جزّدًا عن شقتي. هل ما زلت تحتفظين بـ المعطف الجميل» ؟ – شيء من ذكريات رافنسبروك. سيكون لدينا الكثير «للندردش» فيه، فقط لو تكون الصلات أكثر يسرًا. سأكتفي بهذا القدر اليوم وأرجو أن تعطيني قريبًا أخبارًا عنك. والآن سأذهب لأحتسي قهوتي في «باكيت دامور»؟ لا حاجة لنا اليوم إلى «السرقة»! مع أطيب تحياتي الودية، رفيقتك في الآلام إليِس سيبغل، غراتس. «كلارا زيتكن». وتعود جدتي إلى ابتساماتها. فهي لا تعرف من هي هذه التي تدعى زيتكن، تقول. فحين يأتي اليوم الذي أستطيع فيه أن أجيب عن هذا السؤال تكون جدتي قد فارقت الحياة.

تضع كتابَ المعسكر والرسائل على الطاولة، وتطفئ الضوء وتشرع في الصلاة في سكينة. وأستدير جانبًا وأشد ظهري إلى أضلاعها. وبعد أن ترسم إشارة الصليب تلتفت إليّ وتحيطني بذراعها. تقول أنه أفضل وضع. وجدي أيضًا كانت تتكوّر في حضنه بعد أن تطوي ساقيها. أضغط بظهري على صدرها وأتمنى أن تضمّني إليها بقوة أكثر. في بعض الأحيان تقرصني بأظفارها الغليظة، حين يخطر لها أن تُريَني كيف كان الناس يسحقون البق قديمًا. فكلما انفجرت بقةٌ أحدثت طرطقة، لكن البقة نادرًا ما تأتي بمفردها، ولذا ما من سبيل للنوم، تقول جدتي. ومع ذلك فإلى جانبها أستغرق في النوم بسرعة، وفي الصباح الباكر أفتح عينيّ مندهشة.فالمكان فارغ بجواري. جدتي بالفعل نهضت وركضت نحو المنزل. وعندما أدخل إلى المطبخ، ستكون واقفة أمام الموقد وستقول إنها بردت. ثم نشرب قهوة الملط في صمت، كما لو أن حميمية مفرطة ملأتنا طوال الليل.

Twitter: @ketab_n

في المساء يمكث الطفل واقفًا في المرج خلف المنزل، قرب الباب المفتوح على الليل، القصر الملكي الذي يسمو فوق المشهد الطبيعي، مع لآلئ النجوم الشجية، وتنفس الغابة، وحفيف الساقية في أسفل الوادي. يدخل الطفل إلى منزل الليل ويخرج من منزل الليل. يقف بين مساحات الزمن ويفكر أنه يرغب في الموت، أو بالأحرى أنه سئِم الحياة، وألا يستسلم لمثل هذه الأفكار. الطفل يفكر أنه يرغب في الموت لأن الموت يقترب منه. الطفل لم ير يومًا حفرة مفتوحة، وإنما أناسًا فقط يذهبون إليها، ويفكر أنه لابد من أن يفارق هؤلاء الأمواتَ الذين ما انفك يجرّهم من خلفه، مثل جواد منهكٍ، وأن يدفنهم. الطفل يريد أن يدفن موتاه، فتاة المطبخ التي غرقت، والموتى المجهولين في قصص الجدة.

الطفل يريد العودة إلى الأشياء المباشرة، حيث ما من كلمة تندسّ ما بين الطفل والعالم، حيث لا شيء يخفي شيئًا. الطفلُ يريد أن يلتقط الكلمات من على الأشياء، اسم الصرصور من على الصرصور، اسم نبات القراص الأبيض من على القراص الأبيض.

الطفل يجلس القرفصاء في العشب ولا ينهض مرة أخرى. يضيق حتى يصبح حجرةً داكنة، وبرّاقة، تحوي شرارات متلألئة، مثل الماء والنار، ومتشعشعة مثل الهواء. أنفاسُه تجذب الأثمار في الصخر، وضحكتُه تتدفق خارج نواة الحجرة، مثل أعمدة من سحاباتٍ جامدة في عز نموها.

الطفل يلقي بنفسه في الداخل، في الثقب الذي ما زال يشيع الدفء، الثقبُ الذي يؤوي، ويُخفِي.

Twitter: @ketab_n

هذه الفتاة الصغيرة التي تنهض من العشب، مع جسمها المرن المرتبك، لعلها أنا، الأنا الغريب الذي يكتشف البكاء، ذلك المصدر الذي ينقل من أعماق الجسد كل ما تراكم فيه، ويكتشف أن الدموع يمكن أن تكون أوعيةً يدلي بها إلى قاعدة الجسد، ليجلب منه معدنًا نحو وضح النهار، معدنًا يسمّمه ويغذيه. في تلك الليلة أتعلّمُ وأنا أشهقُ كيف أتقدّم نحو شيء مخملي ودافئ، غامضٍ وفاتح، يطحنني، ويصالح بيني وبين نفسي، ويجعلني أرى الطفلَ بعيدًا عني كما أراه في داخلي.

أنا منذ هذا اليوم، كما يبدو لي، الفتاة التي لم تنمُ كما كان يجب أن تنمو، الفتاة ذات الأضلاع المفككة، وصاحبة الأفكار التي تطير عالية إلى أبعد مما يحق لها. ذراعاي صارا أطول، وساقاي المثبّتتان كيفما اتفق تتدليان في رخاوة مع جاذبية جديدة. رأسي صارت فارغة، بعد أن صارت حرة لكل شيء وإلى لا شيء.

أعود إلى بيت الوالدين، وأستلقي على سريري، وأحدّق في الظلام. وفي الصباح أشطف بالماء البارد جفنَيّ المنتفخين وأذهب إلى المطبخ، والدوار ما يزال يملؤني.

من خلف الباب المغلق، أسمع أمي تقول لأبي إنّ الوقت قد حان لعمل أيّ شيء في حال دخول الصغيرة إلى المدرسة الثانوية. تقول إنها تحدثت إلى الأساتذة وإلى القسيس. كلهم يؤيدون تغيير المدرسة. سبق وأن فاتها الموعدُ النهائي للتسجيل، ولكن إذا عملت الفتاة واجتهدت تستطيع أن تنتقل إلى الصف الخامس ابتداء من هذا الخريف.

يسأل والدي ما الذي يعنيه الانتقال إلى المدرسة الثانوية. ها هي ذي مرة أخرى تتخذ قرارات من وراء ظهره. أما هو فلا يرغب في أن يرسل الطفلة إلى مدرسة في أي مكان آخر، ولن يسمح بذلك. كل ما تريده هو أن تأخذ الطفلة منه، ولا شيء غير ذلك. تتوسل إليه أمي أن يعقل، على أي حال لِم لا تستغَلّ الفرصُ التي

Twitter: @ketab_n

تتيحها منحة الحكومة. ميشي أيضًا سيرسل ابنته إلى المدرسة الثانوية، وبنات أخيه يدرسن منذ فترة طويلة في كلية سلوفينية.

ولكن لتتركْ شقيقَه خارج كل هذا، يصرخ والدي، فلا يهمه ما يفعله تونسي والآخرون. فلن يدع الصغيرة تذهب. انتهى الموضوع! لقد وضع كل أمواله في بناء المنزل، فمن أين يأتي بالمال من أجل المدرسة. ثم عليها ألا تطمع في ماله. وأسمعُ صدمةً وزجاجًا ينكسر على الأرض. أدفع باب المطبخ وأتوقف خائفة. كسَر والدي زجاجَ دفة الصوان العليا، ومازال يمسك في يده بفنجان القهوة الذي جلبه من على الرف. والدتي بالقرب من الباب تتحدثُ بصوت مرتجف. ها أنتِ مرة أخرى تظهرين ما أنت قادرة عليه. على الصغيرة أن تعرف أين وصلت، ولن ننتظر عامًا آخر حتى نعرف. يلقى والدي بالكأس على الأرض ويخرج من المطبخ مسرعًا. ولكن لتكفَّ عن معاملته وكأنه معتوه، يقول وهو يصرخ.

أقول لأمي إن والدي لا يملك مالاً، إذًا فلن أذهب إلى المدرسة.

ولكن، بلى، تقول أمي وهي تلتقط الكوب الصغير، سوف نرى، سوف نصل إلى نتيجة. ستُسجلني في المدرسة الثانوية، وبعد مرور امتحان الدخول سينتهي تسجيلي.

في بداية الدراسة نستقل حافلةَ البريد للذهاب إلى كلاغنفورت. وفي الطريق إلى المدرسة الداخلية التي سأقيم فيها أرفض لأسبابٍ لا يسعني تفسيرها الذهابَ إلى أبعد مما ذهبنا، فأصرخ في وجهِ والدتي، فيملؤها الخجلُ لأني أرفض الذهاب إلى المدرسة، ولأني لا أريد الالتحاق بالنظام الداخلي، ولأني لا أرغب في الذهاب إلى كلاغنفورت! تقول لي أمي انتبهي جيدًا إلى الطريق، حتى لا تتوهي وأنت عائدة من المدرسة إلى المحطة. وأجيبها وأنا أصرخ فيها أن الأمر لا يهمني. فلن أذكر أي طريق بالتأكيد، لأن عودتي لن تطول أبعد من اللحظة التي نحن فيها. لوجا تقول لي أمي، وتعني في لغتنا صغيرتي بيتا، حين يشق علينا أن نقول غبيّة. أنا حقًا لوجا، ولا

Twitter: @ketab_n

بد من أن أكفّ عن كل هذه الجلبة، لأنّ الناس بدؤوا ينظرون إلينا.

أشعر أن والدتي عنيدة ولا تلين، وفجأة أحس بيأسٍ ملتبس يلبسني. أفكر أني لا أستطيع أن أترك والدي وحيدًا، وأني لن أغفر لنفسي إن هو أساء إلى نفسه. لا أستطع أن أتصوره ينفق عليّ القليل من المال الذي لديه. لا أريد هذا، أقول لنفسي. وأدع دموعي تسيل. تقول أمي في استياءٍ، تحركي، تحركي، هيا تحركي، هيا إذًا!

وعندما أصل إلى المدرسة الداخلية وأجلس على السرير الذي خُصّص لي، وفي يدي مفتاح خزانة الملابس، أبدأ في محو آثار الدموع. أشاهد الأطفال الآخرين وهم يُقبّلون أمهاتهم وآبائهم عند وداعهم، وأدرك أني لم أقبّل والدتي يومًا وهي تودّعني. وترسل والدتي نظرة أخيرة في أرجاء الغرفة، وتقول وهي تمد لي يدها إنها أنهتْ كل شيء مع إدارة المدرسة الداخلية. كُوني عاقلة، تقول لي على سبيل الوداع، وتغادر الغرفة.

في تلك الليلة لم أذق طعم النوم. أشعر كأني خائنة. أمسح في الفرش الدموع التي تشق طريقها وهي تحترق. الحزن يغمرني مثل سُكْر لا أطيق إلا وأنا ممدة. أقرر ألا استسلم بعد اليوم لهذا الإنتشاء وأعد نفسي بألا أتحدث عن مشاعري وبأن أفعل كل ما يطلب مني. ليس من حق أي أحد ان يعرف ما لا أريد أن أبوح به. أن أبقى جانباً، وذاك هو التعبير الصحيح.

ولما كانت المدرسة الثانوية الخاصة بالسلوفينيين لا تمتلك غرفًا فقد وجدتُني مضطرة لأن أعوّد نفسي على دروس ما بعد الظهر. فمنذ أكثر من عشر سنوات والدروسُ تُستضاف في مبنى مدرسة أخرى. فعند الظهر يعود طلابُ الألمانية إلى ديارهم، بينما نظل نحن السلوفينيين ننتظر بالقرب من مدخلٍ جانبي موعدَ الدخول إلى المدرسة من خلال غرفةِ خلع الملابس في الطابق السفلي. الحياةُ في المدرسة الداخلية، والانتظارُ المشترك خارج المدرسة، والدروسُ بالسلوفينية، كل هذا يُدمجني في المجموعة. أشعر أنني صرتُ جزءًا منها، وأنه من الصعب أن أختبئ عنها.

Twitter: @ketab_n

في إحدى عُطلِ نهاية الأسبوع التي قضيتُها في المنزل، اشتكى والدي من غيابي لآخر مرة. ففي الليل، ونحن غارقتان في سريرينا إذا به يسحبنا من النوم على حين غرة. لأمي ما تستأهله، يقول وهو يصرخ في الدرج، لقد أرادت ذلك، وعرّضت الصغيرة للخطر. ما الذي جنته من إرسال الصغيرة إلى المدرسة، ما حاجتُنا إلى الذهاب إلى كلاغنفورت، الآن وقد صارت اللافتاتُ المكتوبة باللغتين تُنزعَ في كارينثيا. لكنْ لا، إنها تريد دائمًا المستحيل، وتركب رأسها. فهو أيضًا كائنٌ بشري، وله هو أيضًا رأيٌ يقوله. إش بن إين مينش، يصيح والدي باللغة الألمانية.

يحزنني أن أشعر بأنني سببُ الغم الذي يجثم على صدرِ والدي. على أيّ حالٍ هذا ما أتخيله، وكل ما يهمّني يحيّرني ويُثقِل ضميري. جسدي المبنيّ من بذورٍ يشعر وكأن السرعة التي ينمو بها سرعةٌ أكثر من فائقة. ظني أيضًا أني لن أقدر على ارتداء ملابس أهل الريف، التي تبدو فيها هيئتي أسوأَ مما أراه محتملاً.

ظني أن أمي قد أعلنت الحرب على طبيعتي العنيدة، لأنها صارت ترسلني في عطل نهاية الأسبوع التي أقضيها في المنزل إلى القداس في الكنيسة. تشعرني أنها لم تُتِح لي الإفلاتَ من مراقبتها لي إلا على مضض، وأنه علي منذ الآن أن أتدبر أمري بمفردي، وأني صرت مسؤولة عن ملابسي وعن نجاحي في الدراسة. من على سنواتي الإحدى عشرة أحمِل مسؤولية خاصة، لأني ملكت الحق في أن أغادر بيتًا حميميًا مضيافًا، وذاك هو البيت الضمني الذي تمنحني إياه وأقْبل به مثل عبءٍ ثقيل، عن تحدّ أو عن يأس وقنوط.

أمي تتمسك بآخر واجباتها التربوية نحوي، وتنشُط في أدائه. تعتقد أنّ من واجبها السهرَ على أدائي لفروضي المسيحية كاملة. تثير احتجاجاتي، وبالمناسبة تُصالِح والدي مع مجرى الأشياء. فيكفّ عن مقاومته للمدرسة، ويقتنع بأن السبل التي تسلكها ابنتُه سوف تظل غريبة عنه، وأنه لا يستطيع أن يسلكها.

Twitter: @ketab_n

جدتي وأنا بدأنا نبتعد كلّ منا عن الأخرى. صارت هيَ تداري قواها حتى تخرج من أزمتها، على الرغم من أن صحتها تزداد هشاشة وهزالاً، فيما أنا ما زلتُ أسير نحو شيء أراه في آفاقِ المستقبل غامضًا مبهمًا. جدتي لا تحاول أن تكبحني، بل لها طريقها، المهينة أحيانًا، في أن تدعني أسير وحدي في طريقي. صارت حساسةً أكثر فأكثر، وفاقدةً للصبر أكثر فأكثر. ذات يوم، فيما قرّرتُ أن أهدي قُبلةً لأبي وأمي وأنا أفارقهما كل يوم اثنين صباحًا للذهاب إلى مدرستي الداخلية إذا بها ترفض مداعباتي، فلا أكاد أميل عليها حتى تهزّ رأسها بقوةٍ وتصدّني عنها صدًا.

في ذلك الصيف لبستُ بيكيني لأوّل مرة في بيتنا. فلم تكد جدتي تراني حتى سارعت لإحضار مقلاة حديد الزهر، وجعلت تُبخّرني برائحة الأسلِ النفاذة، وهي غاضبة هائجة. فأسارع إلى ارتداء ملابسي، وأسرع إلى غرفتها حتى أهدّئ من روعها. لا نُظهِر لا مؤخّرتنا ولا نقودَنا! المرأة الشابة يجب أن تعرف ما يناسبها، تقول جدتي وهي تُخرج من درج الصوانِ السفلي طقمًا من الساتان الأزرق الداكن. هذا اللباس لِبسَتْه ميسي لزفاف العم. كانت فيه جدّ أنيقة، تقول جدتي وهي ترسل إليّ نظرة عاتبة. المرأة يجب دائمًا أن تتزيّن بباقةٍ من الزهور أو بمشبكٍ على صدرها. أما هي فقد كانت دومًا تحمل وهي ذاهبة إلى الكنيسة باقةً صغيرة من القرنفل العطر، مع زهر العيْهُون والليمونة. فمن هذا النبات تفوح رائحةٌ عطرة، وفي أيام الأفراح تُلقي بأثرها الطيب من حولها. وإن وضعت في الخزانة بعد جفافِها طردت منها العثّة، تقول جدتي.

درْج الصوان المفتوح يكشف عن شموعٍ مصفرّة وشمعدانات فضية مزينة بشكل جميل، وصليب بقاعدته، وعن أقمشة وشراشف بيضاء مطرزة برسوم طقوسية. في

Twitter: @ketab_n

أيامي، تقول جدتي، كان جهاز العروس لا يكتفي بغطاء السرير، وإنما يجب أن يضم كساء الميت أيضًا، حتى يكون البيت الزوجي الجديد مجهزًا بكامل مستلزماته الضرورية. لقد أعدّت مؤخرًا لوازم تجهيز النعش. وعلاوة على ذلك لديها نصيحة تريد أن تقدمها لي. عندما تأتي دورتك الشهرية لا تضعي في مهبلك ورقًا أو أي شيء آخر أبدًا. في المعسكر أمرت طبيبةٌ بولندية النساء في وحدتها بأن لا يفعلن ذلك، لأنّ بعض النساء فارقن الحياة لأنهن استعملن أوراق صحف متّسخة. فهي تريد أن تقول لي هذا منذ فترة طويلة، ولكن لم تاتِ الفرصة ما دمت لا أعود إلى البيت إلا نادرًا، تقول جدتي. هذه المحادثة تنهي تواطؤًا بيننا. فلن نكون بعد اليوم قريبَتين كما كنا، لأن جدتي تنسحب تدريجيًا نحو تضاؤلها.

في عُطل نهايات الأسبوع التي أقضيها في المنزل أسمع جدتي وهي تشرح لوالدي تشعبات عائلتنا الصحيحة، عندما يُخلط هو بين أبناء بنات العمومة والخؤولة من جدّ أو جدة واحدة وبين أبناء وبنات العمومة والخؤولة من الدرجة الثانية. وتعدّ جميع المزارع المجاورة، والناس الذين كانوا يسكنون فيها قديمًا، والذين كُتبت لهم الحياة، والذين رحلوا عن الدنيا. ترسم المزارع دون كتابة، فتربط عُقد النسيج الرفيعة في شبكة تنتقل من مزرعة إلى مزرعة، وتوثق عرى الأسماء من على التلالِ، في تشابكٍ فريد، وتجاوُرٍ سريّ بين أولئك الذين صُرِعوا أو صُعِقوا .

عن وادي ليبينا تذكر جدتي مزرعة ديمنيك، وتذكر كنوليك، وسرتيف، وغوبانك، وهرتل، وغريغوريك، وأوبريك، ويونيك، وسكوتل، وكوخ هيفلنيك، ووينكل، وكوزيل، وباترنيل، وسيمر، وبلاج، وكوكيز، وبوتونيك، ومورغان الذ في الأعلى. وعن وادي رامشنيغ كاش تذكر ماكيز، وبابيز، وكرنوكروه، وكوخ ستروز، وسوبار، وبوموفكار، ومزرعة تونوف. وعن وادي لوبنيك فيفودا تذكر بريك، وتوبكنيك، وميكيج، وستوبار، وولف، وتافيمان. وفي إبرياش كوخ بيروك، وجريب، وبغرين، وكوخ بغرين، وسمارتنيك، وساجدنيك، وأور. وفي فيليشا سين، كريستان،

Twitter: @ketab_n

وبودبسنيك، وكوخ فيجنيك. أسماء المعسكرات معلقة بأسماء الذي اغتيلوا وأسماء الذين نجوا، مثل عناوين صغيرة، ويتلاشون مع أسماء الذين رحلوا بعد ذلك. يختفون مع المزارع والحقول، ويغمرهم العشب والأحراش، لا يكاد يبقى منهم أثرٌ، أو كومة من الأنقاض، أو لحيقةٌ منخورة، أو دربٌ مغبَر.

كما هو الحال دائمًا يقوم الموتُ بجولاته السنوية. ترى جدتي جارةً شابة تنتحر شنقًا فيثير انتحارُها هوْلاً بين الجميع ليس كهولِ أيّ انتحار سبقه. فها هي ذي واحدة أخرى تذهب، كما يقال، في وقت مبكر جدًا. وها هي ذي أخرى تنزلق فتسقط بالمقلوب على رأسها. فيما يتشبّث الأحياء بالحياة ويرفضون النظر إلى الهاوية التي تصيبهم بالدوار. تقول جدتي إن الوقت قد حان لكي نذهب حالاً. فهي تنتهز الأجل الذي يمنحها الموتُ إياه، كما تقول، حتى تجلس وتتحدث إلى معارفها. تتضاحك مع مالكا كنوليك التي تحمرّ وجنتاها أكثر عندما تتذكر مع جدتي عودتهما الناجحة من معسكر رافنسبروك. وتأخذها تونسي إلى كنّاتها. فتجلس والوشاح على كتفيها مع سلفاتها في مطابخهن الجديدة التي يقدّمنها إليها في فخر، فتتنفس هي بصعوبة، وتضع يديها الرقيقتين اللتين يغطيهما جلد مبرقع فوق ركبيتها. لقد تقلص رأسها وخرج أنفُها وذقنُها من جمجمتها مثل نتوءين مدبّبين. جدتي صارت كأنها خلاصةُ نفسها. هيكلٌ عظمي يحفظها مستقيمةً ويؤوي نفَسها الضعيف. ها هي ذي قد وصلت إلى هدفها، تقول، الآن صارت في النهاية تشبه امرأة في معسكر اعتقالها.

Twitter: @ketab_n

ملجئي في المدرسة الداخلية هو المكتبة السلوفينية في الطابق الأرضي من المبنى. هناك أتواجدُ كل يوم تقريبًا. القلقُ الذي يسبّبه لي والدي وقصصُ جدتي بدأتْ تشكل في داخلي عالمًا ذهنيًا أراني أسهر عليه بعناية. فهو يحتوي على سرّ، السر الذي يهدد ابن آدم. أعتقد أني لا أستطيع الحديث عن هذا السر، لأني أشعر أن الأمرَ لغزٌ غاية في الصعوبة، ولأني أشعر أن الكلام في هذا السر قد يكشف بلادتي وحماقتي، وعن مخاوفي التي تشكل خصوصيتي، والتي هي نواة جوهري.

التدابير المتخذة لفرز الأقلياتِ في كارينثيا تفيدني كثيراً، وأدرك الرسالةَ التي يروج لها الشعارُ الذي يتلألأ على الملصقات: إذا كنتَ لا تريد أن تكون سلوفينيًا عليك باختيار الألمانية. في هذا البلد، أقول لنفسي، السلوفيني شيءٌ غير مرغوب فيه، وأقرر أن أنحاز إلى ما هو محتقَر، لأنّ هذا مهمٌّ في نظري، وفي نظر أولئك الذين أعيش معهم، ولأني لأوّل مرة أفهم ما الذي يمكن أن تعنيه كلمة انتماء.

صرت الآن أنتمي للمجموعة، وفي أحد أحلامي أراني أمشي في طليعة موكبٍ من السلوفينيين. أعرف الناس لكنْ يبدو أن الناسَ لم يروني، رغم أني عارية. وفي اللحظة التي أكتشف عُريي أقول لنفسي أن لا شيء سيحدث لي ما دمت ميّتة. ولا أحد يستطيع أن يضر بي لأني صرتُ غير مرئية.

على الرغم من هذا الخفاء الليلي يراوغني جسدي، فأخال كأن جسدي يعمل ضدي من داخلي بلا هوادة. فهو يتكاثر من تحت جلدي، ويتواصل ويتمدّد، ويتخمّر. لا يسعه إلا أن ينمو وينمو. ولا يفتأ يثير الانتباه إليه، فيما أنا أسعى

Twitter: @ketab_n

لأن أختفي منه تمامًا. يقترب جسدي مني، من خلفي، ويقرع بابي على حين غرة. يريد أن أدعه يدخل في داخلي، يريد أن أنفتح عليه، لكني لا أفكر في هذا بعدُ. أحيانًا يظهر مثل أخمص صغيرٍ في قدمي ويحدق في وجهي، فيَ أنا وفي وحْمات ولادتي، ويبرز في شكل حلمة، أو يتحرك مثل حلزونٍ وبرٍ ما بين فخذيّ. ويتذمر فوق كتفي، أو يقف فوق رقبتي، ويتقدم برأسه في جمجمتي، ويشق لي طريقًا نحو الأعلى، نحو لساني.

أفيض لغةً، وتشكيلاتٍ لغوية سلوفينية أَدَعُها تسقط مني في الفراغ، لأني لا أدري ماذا أفعله بها. عباراتٌ تغلّفني مثل ضبابٍ طار من الكتب إليّ. عباراتٌ مثل جزيئاتٍ لفظية غير مهضومة تتحرك بحرية، يمكنني أن أزفرها، ويمكنني أن أطردها من رئتي. عباراتٌ مثل غشاءٍ دهني أستطيع أن أربط به عن بعدٍ أي شيء يمكن أن يُمَسَّ أو يقال، ولكن ليس مني أنا. أنا، كما يقال، مزّاحةٌ تضع قناعًا حتى تحوّل نظرَ السوداوية التي تجتاحني وتغزوني. على مدى شهورٍ أُحِسّني مثل حيوان جامدٍ أثناء الانسلاخ عصِيَ على جلده أن ينتزع منه فظل عالقًا على قمة الرأس، واستحالت إزالته. فإذا اقترب مني أحدٌ فقد أضربه، اللهم إلا إذا لم يراودني شك من أي شيء.

Twitter: @ketab_n

منذ اليوم الذي لم تغادر فيه جدتي سريرَها صارت مزرعتُنا تستغيث من سوء حالِها. الشتاءُ الآن في عِزّه. أمي تضع للتو طفلَها الخامس. بنتٌ لا يريد والدي أن يعترف بها طفلةً من صلبه. يُغيظني هذا كثيراً، لكنّ والدي لا يقيم لغضبي وزنًا.

جدتي الثانية، التي أدعوها بيكا، وليني، وهي أخت جدي، تتناوبان في المزرعة للمساعدة. تشتكي جدتي من اختناقها، وتقول إن قلبها لم يعد يريد. في شباط تستدعي الكاهن للمسحة الأخيرة. صار خدّاها نشفَين، واستسلمت بشرتُها نهائياً ومن دون تحفظٍ لشكل العظام. نعرف أن الجيران والأقارب الذين يتظاهرون بالمرور بالصدفة يأتون ليقولوا لها وداعًا. في شهر شباط هذا الذي لا يكف الثلج عن التساقط فيه يظل والدي طوال اليوم منهمكًا في إزالة الثلوج. وفجأة يتحول الطقس فيصير أكثر دفئًا، ويذوب الثلج في سرعة غير عادية. وفي أواخر آذار تصير التربة جافة، إلا في زوايا وثنايا مناطق الظل حيث تبقى بقع رقيقة من الثلج، كما لو أنها تُتَبِّل الهواءَ بهبّة من برد الشتاء.

في المدرسة الثانوية صارت الدروسُ بعد الآن في الصباح، لأنّ السياسة قررت أخيراً أن تشيد مبنًى دراسيًا جديدًا.

ذات صباح، في منتصف آذار يأتي أحدهم إلى الصف يسأل عني، حتى يبلغني أنّ جدتي فارقت الحياة. فأرتجف وأنتفضُ كثيراً رغم أني تحسّبتُ. وأراني فيما بعدُ أقفز قفزات عديدة ثم أقاوم فأنتصب في داخلي. وفي الحافلة التي تأخذني إلى البيت لا أفكر إلا في خوفي وهلعي.

لمّا أصل عند نهاية الظهيرة أجد جدتي ممدّدةً فوق منصة النعش. لقد رفعوها قليلاً تحت إحدى نوافذ غرفة الطعام المطلة على الجنوب. وُضع التابوت على سقالة

Twitter: @ketab_n

مؤقتة، مغطاة بكساء جنائزي استُكمِل بشراشف أمي التي تزيّن مطرّزاتُها مقدمةَ النعش. وكالعادة وُضعت طاولة صغيرة أمام النعش مع شمعدانان فضية، والصليب الأسود وإناءين من الماء المقدس لرش المتوفاة. وبالقرب من رأس جدتي وُضع شمعدان آخران بشموع لن تضاء إلا عند قدوم المساء. جثمانُ جدتي الآن في ثوبِ الأيام الجليلة. فهي ترتدي طقمًا أسودَ ووشاحًا فضيًا. ويداها الشاحبتان المشبوكتان فوق صدرها، والمحزومتان بمسبحة، مصوّبتان نحو الأعلى.

أقصد لغاية التابوت وأضعُ يدي فوق أصابعها الباردة الجامدة. أتطلّع من خلال دموعي إلى وجهها الذي يملؤه الوضوحُ في ذروة تجرّده. ألقي نظرة إلى جثة جدتي التي صارت مثل دارٍ مغلقة. أودّ أن أنادي، أن ألفت الانتباه، ولكني أظل خالية الوفاض، على ضفة الحياة. وفيما أبكي إذا بجدتي التي رحلت عني، تدخل إلى داخلي. في ذهني أراها تمسك بالمِمشاط المتكئ على جدار المنزل، وتبدأ في جمع العشب المحشوش من تحت شجرة الزيزفون قبالة المدخل. تريد أن تقنعني بأن أضع خلسةً بعض الحجارة في شنطة ظهر أحد الضيوف الذي يريد أن يشتري منها بعض الشحم حتى يكون معه شيئًا يحمله معه. تُربّت من فوق رأسي بأصابعها الطويلة وتقول نحن متفاهمتان جيدًا، أنا وأنت، أليس كذلك؟

والدي جالسٌ على مقعد الموقد وعيناه تلمعان بالدموع. ليني، المنهمكة، تذهب إلى المطبخ نحو خزانة الأكل ثم تعود. توحي بأنها تمسك بالبيت جيدًا، كما كان الحالُ فيما ما مضى، بعد اعتقال الجدة.

أوّل الزوار يَصِلون. تمتلئ الغرفة تدريجيًا. يؤمّ بعضُهم الصلاةَ فيجثون بالقرب من النعش، ويُسندون سواعدَهم إلى المقعد الخشبي. تبدأ الصلاة الجنائزية، مثل خورسٍ هامِسٍ، مثل أنشودة رتيبة.

أجد من الوقت في البيتِ ما يكفيني لكي أعوّد نفسي على المتوفاة. والدتي ما

Twitter: @ketab_n

تزال تعمل في الإسطبل وأختي الصغيرة تنام في عربتها في الطابق العلوي، من فوق الراحلة.

ما بين الصلوات، يقدَّم الشايُ وعصير التفاح والكعك. في المطبخ تراقب العمّة ليني وبيكا الطناجرَ الكبيرة المُدخّنة. والدي وتونسي يرغبان في السهر على المتوفاة في هذه الليلة، بينما نرغب نحن في الذهاب إلى النوم، لأننا نتوقع في اليوم التالي دفقًا من الزوار من أجل الصلوات. لأن معظم الأقارب لن يصلهم نبأُ وفاة جدتي إلا في يوم الغد، يقول تونسي الذي يتكفل بإبلاغ الجميع.

تُسلَّم إلينا الأكاليلُ الأولى في الصباح الباكر، فنضعُها عند جدار غرفة المعيشة، من وراء النعش. وقبل وجبة الفطور أقترب من المتوفاة. أشعر للحظةٍ وجيزة أنها نامت الليلة الماضية، مثلنا، وأنها غادرت المكان توًّا. عينا الجارة ميمي، الجالسةِ على مقعدٍ خشبي بالقرب من التابوت، مسمّرتان على المتوفاة. دموعٌ كبيرة مدوّرة مثل البازلاء تتدحرج من على وجنتيها، على فترات متباعدة، وتسقط من ذقنها فوق يديها. منذ أن عرفتُ ميمي وأنا ألاحظ دائمًا يديها القويتين اللتين تُشكلان كلاً متكاملاً مع مجموع جسمها الممتلئ. جدتُك، تقول ميمي، وجدتُها في الثكنة. كانت خارجةً لتوها وهي تزحف زحفًا من المكان الذي كانت تختبئ فيه من خلف الصناديق. كانت هيئتها غاية في البؤس، لذا بالكاد تعرّفتُ إليها. ولبضع لحظات صارت دموعُ ميمي تبدو كأنها تتدفّق بشكل أسرع. لقد حوّلوها من المعسكر إلى أوكيرمارك، وهو معسكر مخصص للمراهقات في رافنسبروك، وقد قيل لها إن تذهب إلى الثكنة رق ٦ حيث لا يوجد سوى السياسيين. وهناك التقتْ بجدتي وجارات أخريات، ومعهنّ عادت بعد خروجهن. لقد عدنا معًا، تروي ميمي. إني أعرف، أقول، لقد حدثتني بذلك جدتي. تمسح ميمي دموعها ووجنتيها بمنديل، وتستعيد وضْعها في الجلوس مثل البداية.

Twitter: @ketab_n

أقصد إلى المطبخ، حيث تُسمَع أصواتُ الآخرين. ليني تقدّم القهوة وتُسلط لسانَها على والدي. خليق به أن يكون سعيدًا بمجيء طفلة أخرى إلى العائلة، لأن البيوت التي تكبر فيها بناتٌ بيوتٌ عامرة دائمًا، لا نشعر فيها بالملل، ويأتي الأولاد للزيارة، فلا نظل وحدنا طويلاً. الفتياتُ يجلبن السعادة دائمًا، تقول ليني. ويرسم والدي ابتسامةً على مضضٍ وهو يغمس قطعة من الكعك في القهوة. أريد منكَ أيضًا أن ترسل أطفالك إلى المدرسة، تضيف ليني، وأودّ عندما يأتي أجلي كما جاء أجل والدتِك، بعد أن يُنزلوا نعشي في الحفرة أن يلتفّ حول قبري أناسٌ نهلوا من العلم والمعرفة، أتفهم! الشباب لا بد من تكوينكم، وتعليمهم أشياء في هذه الحياة! طيب، حسنًا، يا طاطا، يقول والدي. للحظةٍ خلتُ كأن صبيًّا يتلقى توبيخًا من والدته، ويبدو حقًا أن الصبيّ قد أدخل رأسه في كتفيه.

ظني أن هذه المحادثة تلهيني، وأتمنى من صميم قلبي أن لا تتوقف ليني عن مواعظها. وبالفعل تستمر في الوعظ بعد هنيهه، لا يمكن أن تستمر على هذا المنوال، زدرافكو، لا يجوز أن تُنفق كل وقتك في التفكير في الموت. يجب أن تتوقف عن هذا! أنا أعرف كيف نشعر عندما لم يبق عندنا طعم للحياة. ولكنك ستهدم الجميعَ من حولك. يصفرُّ وجه والدي. فينهض ويضع قهوته فوق صفيحة الفرن الساخنة.

حتى عند الإفطار لا ننعم بالهدوء والسكينة، يقول والدي قبل أن يغادر الغرفة. تستدير ليني نحو بيكا التي سمِعت المحادثة وتسألها هل أنا على حقٍّ، قولي، ألستُ على حقٍّ حقًا، هيا قولي؟ تقول بيكا نعم برأسها. لكن الخطأ خطأ ابنتي أيضًا، تقول بعد هنيهة. هل هي على حق في مشاكستها التي لا تنتهي، وفي استفزاز زوجِها ضدّها.

في الصباح تنهمك النساء بالطهي في المطبخ. نُعِّد الكعكَ للساهرين. فرنُ الخبز في غرفة منصة النعش يبعثُ حرارة لانكاد نطيقها فنترك النوافذ مفتوحةً حتى

Twitter: @ketab_n

لا تُعجّل درجةُ حرارة الغرفة في تحلل جثمان المتوفاة. طوال اليوم ننجذِب إليها ونظن أن من واجبنا أن نظل جاهزين لأي خدمة بالقرب من التابوت. نتحقّق من الشموع المضاءة، ونزيل الشمع الذائب، ونقطع فتائل الشمع المسودة، ونُصوّب وضْع الأكاليل على الجدار، ونُملّس الكفن المحفوف بالدانتيل الأسود والأبيض، ونغيّر الماء في المزهريات، ونضيف الماء المقدس في الأقداح. المتوفاة طفلتُنا المدللة التي يجب أن نعتني بها ونزيّنها للضيوف.

تطلب مني والدتي أن أترك غرفتي للأقارب. فلعل أحدهم يرغب في قضاء الليلة، ولذا يجب إعداد بعض لوازم النوم الإضافية. أقول، من دون تفكير طويل، أستطيع أن أنام في سرير جدتي هذه الليلة.

وكما ظننا يبدأ الناس في وقتٍ مبكر في الوصول، لأداء صلوات العزاء. فمن لم يجدوا مكانًا للجلوس في الغرفة يظلون واقفين عند المدخل أو في العتبة، ويرددون الصلوات مع المصلين وهم يمدّدون أعناقهم حتى لا تغيب المتوفاة عن عيونهم. منزل المتوفية يتضخم بلغطِ الناس الذين يتدافعون حول المتوفاة. الجو كئيب. نخال وكأن كل واحد يحضن في قراره شيئًا يشبه الحداد على المتوفاة، ولكنه في الحقيقة شعورٌ يظل مكبوتًا في نفوسهم زمنًا طويلا، عقدةٌ تنتظر من يفكها. أسائل نفسي إن كان هؤلاء الباكون في الحقيقة لا يذرفون الدمع على أنفسهم. المتوفاةُ ونعشها يعطيانهم إمكانيةَ عزاء أنفسهم من حيث لا يلاحظهم أحد، وإظهارَ حزنهم من دون أن يكونوا سُخرةً في نظر الآخرين.

في فترات الاستراحة أقدّمُ الشاي والبسكويت الجاف.

وفي وقت لاحق، وما إن يغادر الجزءُ الأكبر من الساهرين حتى يتخذ بعضُ العنود والعوانِد مكانًا في المطبخ، ويُهيئون أنفسهم لسهرة العزاء واحتساء الشاي.

.

أقصد إلى منزل القدماء، وأستلقي في سرير جدتي، ومن فوري أغوص في النوم

Twitter: @ketab_n

مع شعورٍ عميق بالحنوّ والحنان. وعند منتصف الليل أستيقظ مذعورةً. أدركُ فجأة أني أنام في سرير الموت. وفي ذات اللحظة تتبدّد ألفةُ البداية. أفكر في القفز من السرير، لأنني أشعر أنني لن أكون في مستوى الحصَر الذي يعصف بي. نذيرُ الشؤم من الموت ينهال عليّ. كل شيء يهاجمني، الجمود، والبهوت، والجثة، وكلمة مُرور، والبحر الهائج مع القارب وصواريه الميتة، والأشرعةِ السوداء من على المياه الميتة، والحجر الجيري المكلّس حتى الموت، والكثيرُ الكثيرُ مما لا يطاق. أنظر من خلال نافذة المطبخ المضاءة في البيت الرئيسي، وإلى غرفة المعيشة الغارقة في ضوء الشموع الدافئة. أرتدي ملابسي وأخرج. الليلُ مشرق، بعد أن كسحت الريحُ الغيوم في السماء، والنجومُ واضحةٌ متلألئة. عند أسفل المنزل ثلاثةُ رجال يتبوّلون، وظهورُهم نحوي. يتحدثون ولا يشعرون أني مُقبِلة. أستبينُ والدي والسيجارة في زاوية فمِه. يروي ستانكو أنه إذا رأى سيجارة مضيئة ليلاً، أو قُطربًا يطير، أو مجرد شخص يحك عود ثقاب أخذه الخوفُ، لأنه لا يملك إلا أن يفكر في أنصار المقاومة الذين يدخّنون في الظلام. فهُمْ يَظهرون فجأة خلف منزل والديه، أو من خلف ظهره في قلب الليل. ففي ظنه أن الإضاءات الصغيرة إشارةٌ إلى أن الوضع أصبح خطيراً مرّة أخرى، وأنه لا بد من إسعاف جريح أو إعداد الأكل للأنصار.

نعم، يقول والدي، ويبصق. أتعُودُ معنا إلى البيت؟

لا، يقول ستانكو. سيعود إلى بيته وهو يتمتع بالليل الهادئ. ويغادر، لكني، رغم أنفي، أجدني ألاحظ عن نفسي أني صرتُ أيضًا من بين اللواتي يلقين الروع في نفوس الآخرين.

يحلبُ والدي عصيرَ التفاح من القبو، ويدخل إلى المطبخ معي وسفيرسينا. أنا لا أستطيع النومَ في سرير جدتي، أقول حتى أشرح أني يقظة. الجو في المطبخ مرتخٍ وهادئ. يجلس سيريل مع ليني على الجانب الآخر من الطاولة ويُفرك يديه لأنه فاز لتوّه في جولةٍ في لعبة الورق. شخيرٌ مُدوٍّ يأتي من غرفتي، من فوق المطبخ. إنها زوجتي، يقول سيريل، مضيفًا أنها تنام في سريري. ففي بيتهما يظل شخيرُها يرتفع

Twitter: @ketab_n

إلى أن يصل إلى الشارع. يتحرّك سفيرسينا نحو الجانب الآخر من الطاولة ويقول ما دام زدرافكو لا يحق له أن يشارك في جولة من لعبة الشنابسر، فهو يريد أن يغتنم الفرصة ويسأل ليني كيف كانت الأمورُ تسير في الأثناء التي تولّت فيه إدارةَ المزرعة. هذا، أستطيع أنا أيضًا أن أرويه لك، يقول والدي. ما الذي تريد أن ترويه إذًا، تُقاطعه ليني، ألم تكن غارقًا في قلقك واضطرابك عندما قلنا لك إنّ أمّك أُخِذت للمعتقل. لقد ألقيتَ بنفسك على الأرض وجعلتَ تأكل العشب. أتذْكُر، تسأله ليني. يهزّ والدي رأسه. أرأيت! بعد مرور أسبوع على وَجعِك إذا بأمك تُأخَذ إلى المعتقل. كان ذلك كثيراً جدًا عليك. ما زلتُ أراكَ، صبيًا في العاشرة، تقول ليني، كنتَ ما تزال ترتجُّ تحت تشنّجاتك.

ها أنذا صاحيةٌ تمامًا. أسائِل نفسي ما الذي حدث. لقد علّقوه، تقول ليني. ألحُّ وأصرّ حتى أعرف حقيقة الأمر. أبوكِ، تقول. كيف هذا، أراني أسأل، لأنّ ما من شيء آخر يخطر لي. هيّا احْكِ، تقول ليني لأبي الذي لم يستسغ كلامها، فجأة. يحكّ رأسه ويقول إنهم أرادوا أن يعرفوا إن كان جدي يعمل مع أنصار المقاومة، وإذا كان يعود إلى البيت أحيانًا، وهذا كل ما في الأمر. هكذا إذًا، هذا كل ما في الأمر، أسأل. لقد جاءت شرطةُ إيسنكابل إلى المزرعة في الصباح الباكر، وكنتُ ما أزال أرعى الأبقار قبل ذهابي إلى المدرسة. وهكذا حاصروني هناك، بالقرب من الطاحونة. سألوا عن الجد، وإنْ كنتُ أعرف متى يعود، يقول والدي وهو يراقب الآخرين للتأكد من أننا نريد حقًا أن نسمع ما يقول. ويلاحظ دهشتي ويواصل حديثَه. قلت لهم مراتٍ عدة أني لا أعرف شيئًا. عندئذ أخرجتْ الشرطة الحبالَ من حقائب الظهر ووضعوها حول رقبتي. ثم علّقوني في أحد الفروع، فرع جَوْزَة كانت بالقرب من الطاحونة. وبالحبل رفعوني إلى أن صرتُ أرى النجوم في وضح النهار. وبعد ذلك أنزلوني من الشجرة. ثم رفعوني مرة أخرى، ثلاث مرات متتالية. عندئذ هبطتْ جدتي من المنزل وتوسّلت إليهم أن يفرجوا عني. فأفرجوا عني، بحق السماء،

Twitter: @ketab_n

أيعقَل أن أغيب عن المدرسة؟ المدرسةُ لن تذهب إليها اليوم، تقول الشرطة قبل أن تصعد إلى البيت وتُبعثر فيه كل شيء رأسًا على عقب. بعد ذلك، يواصل والدي، أخذوه إلى مزرعة سِيمَرْ، وهناك كانت الشرطة قد اعتقلت جوهي سيمَرْ للتو وأوسعوه ضربًا حتى بلغ حالُه من السوء ما جعل والدي لا يطيق النظر فيه. وتَحدّث إليهما الشرطي بالسلوفينية وقال إنه سوف يظل يضربهما حتى يُفصِحا بالحقيقة. ليبْصُقا الحقيقةَ في وجهه إذًا! وقد ظل يقتادهما، طوال اليوم، هو وجُوهي، من ملجأ إلى ملجأ من الملاجئ التي كشفَا له عنها، لكنهم لم يعثروا على أي شخص فيها. وفي الثانية صباحًا أخذوه إلى مركز إيسنكابل حيث أجبروه على النوم على الأرض. لقد ألقوا عليّ بطانية، وتركوني هكذا، يقول والدي. وعند الفجر أخذوني إلى غرفة أخرى وعلّقوني من ملابسي في محجن على الجدار، يشبه المعلاق. عندئذ جعل الشرطي يضربني بالسوط. مادونا! يقول والدي، اضربْ الطفلَ بالسوط! كان السوط فظًا، به الكثيرُ من شرائط الجلد المستطيلة. وما انفك الشرطي وهو يضربه بالسوطِ يسأله إن كان الجدُّ في المنزل. ولكني لم أقل شيئًا، يؤكد والدي. ثم أفرجوا عني. ويكلّفه الشرطي بأن يطلب من ميسي أن يحضر إلى مقرّ الشرطة. بعد ذلك ركضتُ بسرعة فائقة. وفي طريقي إلى البيت جاءت أمي لملاقاتي. لقد ضربوني ضربًا مبرحًا حتى ملأ الأزرقُ والبنفسجُ وجهِي وساقيّ. آهٍ من الهلع والجبن الذي ملآني، يقول والدي، وهو يبدو مندهشًا لحديثه الذي طال كثيراً.

لكَمْ كنتَ فزعًا عند عودتكَ فلم تتلفّظ بكلمة واحدة. كان عندك كدمات على الرقبة، وكانت ساقاك محزّزتين بالأزرق، لكنك لم تُرِد بأي ثمنٍ كان أن تبوح بأيّ شيٍ كان. أجل، هكذا كان، يقول والدي قبل أن يغوص في صمتِه المطبق.

أراني في ذروةِ التهيج وأريد أن أنهض في وثبة واحدة، وأطرحَ الأسئلة التي لا

Twitter: @ketab_n

يسعها أن تصاغ في جُمل كاملة. تروح الأسئلة وتجيء في نفسي، سِهامًا مجنونة تتلاحق في كل الاتجاهات ويصطدم الواحد منها بالآخر. أحاول أن أنظر جانبيًا إلى والدي الجالس قربي، لكني لا أستطيع أن أحرّك رأسي. يخيفني أن أنظر إلى عينيه، فلو فعلت لكان ذلك جريمة ضد شيء لا أعرف كنهه. ألاحظ أن قصته أضحتْ قصتي، وإنْ كنتُ في تلك اللحظة لا أرى شيئًا بعينِه، وأشعر فقط أنه يروي لي جزءًا من قصتي. أتراجع خوفًا أمام هذه الفكرة، مثلما أتراجع أمام قصة والدي، هذه القصة التي أجدها مروعة وغير مفهومة، هذه التي أسقطها على نفسي ولا أفهمها، وأشعر بالغضب لأني سمحتُ لنفسي أن أفكّر في أشياء كهذه. لا أرغب في أن أجبِر نفسي على التفكير في كل هذا.

تشهدُ القبض على جدتي، تقول ليني، فتمسك ببريديكا وتهرع إلى مزرعتنا. كانت في حالٍ لا تصدقونه. البيتُ كله انقلبَ رأسًا على عقب. في القبو كانت إحدى الجارات تحاول أن تملأ كيسًا بالتفاح. لهذا السبب تقرر البقاءَ في المزرعة ما دامت متواجدة فيها في تلك اللحظة. وإلا لكانوا أخذوا البيت بكامله وأفرغوا الإسطبل. في مطلع تشرين الثاني، بعد ثلاثة أسابيع من إلقاء القبض على جدتي يناديها جدي بعد أن اقترب من المزرعة مع أنصار المقاومة، ويدعوها لأن تذهب إلى الغابة. إنها المرّة الأولى التي أرى فيها أخي في زيّ أنصار المقاومة، تقول ليني. لقد أخذ اليأسُ من جدي بسبب القبض على زوجته كل مأخذٍ، لكن ليني طمأنته ووعدتْ بأنها ستبقى في المزرعة وترعى الأطفال حتى نهاية الحرب. ثم تذهب لتأتي بالسكر والملح والفواكه المجففة، وتحْمِل كل هذه المؤونة إلى الغابة. وبعد بضعة أيام تبدأ القصة. فحتى هذا اليوم لا أدري مَن أخبر عني وقال إني حملتُ سلةً مملوءة بالمواد الغذائية إلى الغابة، تقول ليني. منذ تلك اللحظة صار الأطفالُ هم الذي يقفون في الحراسة كلما جاء إلينا أحدُ أنصار المقاومة. وفي أواخر ديسمبر، كان الثلجُ الكثيف يغشَى المكانَ في الخارج، وإذا بأخي يدخل إلى المنزل، فأراه فجأة في

Twitter: @ketab_n

مطبخ الخنازير فيما كنتُ أقطّر المياهَ الروحية مع الأطفال. لقد جاء بمفرده عن طريق غلوباسنتز. لقد تفرّق أفراد مجموعته بعد أن سمِعوا إطلاقَ النار وفرّوا جميعًا. وفي تلك المعركة قُتل أحد أصدقائه. كلُّ هذا هُراء، يقول أخي. سيُسلّم نفسَه، إنه يُغرق في الشقاءِ كلّ الأسرة، ولم يعد يطيق هذه الحياة. أخذ أخي يبكي مثل الأطفال، تقول ليني. وقد أعدّت له عجةً من البيض وشرابًا من الأعشاب، وأعطته ملابسَ نظيفة ونشرتْ معطفَه المبلول ليجف. تطلب منه هيَ وتونسي، الابن الأكبر، ألا يتسرّع في أي خطوة جديدة، لأنّ الجستابو سوف يأخذه إلى معسكر الاعتقال فورًا، وسوف يُنكّل به أيما تنكيل، فلا معنًى للاعتراف، وليس الاعترافُ هو الذي سيُعيد إليه زوجته وربيبته. بعد ذلك يهدأ جدُّكِ. ومع الفجر ينطلق سرًا إلى الغابة، تقول ليني. يا لها من أيام مهولة!

كانت حياةً قذرة، يقول سيريل. لقد رأى فيها أيامًا شديدة قاسية، فضلاً عن غيابِ اليقين، ونقص الغذاء، والبرد، والحاجة الدائمة لأُهبة الاستعداد. بين الأنصار لم تعدْ النكتةُ تستهويه، على الرغم من أن شيئًا مثل الزغزغة يظل يحثه على ارتكاب حماقة من الحماقات، وإنْ كان في تلك الحماقات دائمًا ما قد يُعرّض أحدَهم للخطر. سورلي، مثلاً، وهو من رُسل نقل الأخبار، يقول إنه يهوَى العزف على الأكورديون ويعشق اصطياد النساء. وهكذا إلى أن وقع في قبضة إحدى الدوريات فأصيب بجروح قاتلة في مزرعة فوجيل، فيما كان يحاول ذات يوم والأكورديون على بطنه أن يقفز من نافذة القاعة. لقد علِق الأكورديون بالنافذة وهكذا عرّض حياته للخطر بسبب بضع ساعات من اللامبالاة. وأكثر من ذلك أيضًا. هكذا كان يأخذنا الخبلُ أحيانًا، يقول سيريل. وهو أيضًا لا يمكن أن يتخلى عن الصيد، فهو يعشقه ويتلهّف إليه. لقد ذهب ليُحضر بندقيته وهناك حدث الذي حدث. ففي اللحظة التي قفز منها من على ذلك السياج اللعين، كانت الطلقة قد خرجت واخترقت يده. أيْ يسوع المسيح! يقول سيريل. فحتى تلك اللحظة كنتُ أنا نفسي من يعكف على المرضى والجرحى في الملاجئ، والآن جاء دوري في تلقّي الإسعاف

Twitter: @ketab_n

والعلاج سرًّا. كان لا بد من بناء ملجأ قرب مزرعته حتى تأتي زوجته لعلاجه في السر. صارت شقيقته تُدبّر الضمادات والأدوية لدى طبيب البلدية الذي كان يعمل مع الألمان. ارتاب الطبيبُ واشتبه بالطبع، فلِمن تذهب الأدوية، لكنه مثلما فعل في حالات أخرى صرَف له الدواء وهو يدمدم، ولم يُمسك منهما أحد. ولما شُفيتُ أخذوني إلى وحدة الحماية المخصصة للقادة. كنت أعرف كل الطرق، وجميعَ المسارات، وكان الجيران يثقون بي، يقول سيريل. لكن ربّ ضارة نافعة، فلعل هذا الجرحَ كان يجب أن يأتي هكذا، يقول سيريل. وبعد أن قرر في فنلندا، أثناء عملية الدفاع الجوي، أن يفرّ من الفيرماخت، طلب في كلاغنفورت من طبيب عجوز في كارينثيا أن يضع ضمادة على ذراعه حتى يتمكن من العودة إلى بيته. سألني الطبيب وهو يلقي إليّ نظرةً من تحت لتحت إنْ كان يمكنه تضميد ذراعي السليمة، ولم يقل كلمة زائدة. لا شك أنه كان يعلم أني أخطّط للهروب، يقول سيريل.

إلى حدٍّ ما كان الناسُ سُذّجًا تمامًا، يقول سفيرسينا. لقد طال هذا الحالُ كثيراً قبل أن يدرك سكان أوديَتنا أنه كفاح على الحياة وعلى الموت. فلبعض الوقت ظل المزارعون، والخدم والفتيات في المزرعة يعتقدون أن أنصار المقاومة مغامرون، ويمكن أن تُكال لهم عبارات القدح والذم. لا أحد كان يفهم معنى المؤامرة. فكثيراً ما كان يصدَع رأسه وهو يسأل نفسه لماذا كثير من أهل الأودية وجدوا أنفسهم في معسكرات الاعتقال، يقول سيفرسينا، وكيف كانت الشرطة منهم دائمًا على بيّنة كاملة.

عزيزي سيريل، تقول ليني، ظني أننا منذ أن قُبِض علينا، أنا وأنت، كنَصيرَي للمقاومة، في ذلك الشتاء، لم نكن مجتمعَين كما نحن في هذه اللحظة. ثم تنهض فجأة. كنتَ مقاتلاً شجاعًا، إذا تركنا جانبًا حادثتك مع بندقية الصيد إياها. بل وقد جمعتَ القنابلَ التي ألقتْها الشرطةُ في بيتنا، وقذفتَ بها إلى الخارج. لقد أنقذتَ حياة أطفالي الذين كانوا جميعًا في البيتِ عندما تعرّضنا للخيانة. والآن، مهما

Twitter: @ketab_n

انشغلتَ بمنحوتاتك الخشبية دون أيّ شيء سواها، وفقدتَ كل تعاطفٍ نحونا، نحن السياسيين، فأنت رغم ذلك ساهمتَ بلا حسابٍ في تحرير بلادنا.

فظيعٌ، يقاطع سيريل، ذلك الحالُ الذي وضعوا فيه بريموز وما كيل إليه من تعذيب في السجن.

لم أنتهِ بعدُ، تقول ليني، وهي تأخذ نفسًا عميقًا من الهواء. فهي تظن أن سهرة عزاء هذا اليوم كانت سهرة خاصة، وربما تكون ميتزي، سِلفتها في النعش قد سمعت ما قيل في هذه السهرة. فهي فخورةٌ بالشعب السلوفيني الذي لم يستسلم أمام النازيين، وأخذ يكافح من أجل بقائه. ما زالتْ في بعض الأيام تشعر في الرقبة والأرداف والظهر، بندوبِ التعذيب التي بقيت معها بعد استجواب الجستابو معها. إنه الماضي الذي يطرق بابي، تقول ليني، إنه يناديني ويبدأ في تعذيبي. وإذا بها تدرك أن من واجبهم، هُم الكبار، أن ينقلوا ما يعرفونه للصغار، حتى لا يبقوا يومًا واحدًا من دون ذكريات ذويهم، تقول وهي تؤكد أنها سعيدة بأنّ زدرافكو لم ينطق بكلمة أعلى من الأخرى طوال السهرة، ولأنه ظل هادئًا. وفيما يرتسم ابتسامٌ متضايق فوق شفاه الجميع، إذا بوجه والدي يتقلص من جديد. ويسألني إن كنتُ أرغب في السهر على المتوفاة، لأنه سيذهب لكي لينعم بقسط من الراحة. فأوافق، لأني آملُ في أني سأجعل أفكاري تهدأ قليلاً في هذه السهرة.

ليني تقصِد معي نحو المتوفاة في الغرفة الكبيرة، وبمنديلٍ تمتص الماء المقدس على وجه جدتي الذي تبلل كثيراً من فرط ما تلقاه من رش. وتغيّر الشموعَ، وتخرج من الغرفة القهقرى، كأنها تؤدي تحية الإجلال لجدتي مرة أخرى.

أمكث وحدي، جالسة في الغرفة مع النعش، أشاهد ألسنة النار المتأرجحة فوق الشموع. تبدو بضعُ قطرات من الماء المقدس كأنها تقاوم من فوق ثوب جدتي، مثل فقّعات صابون صغيرة. وأسمع قادمةً من المطبخ، أصواتَ مقاعد تُزحزَح عن أماكنها. أفتح النافذة، وأجلس ثانية على مقعد الموقد. أحس بأفكاري تهبط في

Twitter: @ketab_n

بطني، تبحث فيه عن منطقة مظلمة تستقر فيها.

ينبعث من التابوت شعورٌ بالهدوء. في الخارج نسمع تغاريد الطيور الأولى التي تصل إلى الغرفة في موجات صوتية من الزقزقات والتغاريد. غناءُ العصافير يتدفّق من حول نواةِ المتوفاة الصامتة، فيُغلّف جدتي في قلبِ شيءٍ هو الشيء الذي تعود إليه، هو الشيء الذي يُشدّ رحالُها نحوه. يخرج سيريل من المطبخ ويقول أن سفيرسينا قد نام فوق مقعد المطبخ. أما هو فيسترسل في الصلاة لروح شقيقته. يجلس عند رأس النعش، ويُخرج من جيبه مسبحتَه. وفي صلاةٍ صامتة تتلو أصابعُه السبحةَ حبّةً حبّة. أما أنا فأتمدّد على المقعد وأنام.

والدتي التي أفاقت من نومها لكي تذهب إلى الإسطبل تأتي وتوقظني. تدعوني لأن أنام في سريرها. أرى سيريل الذي ما زال جالسًا بالقرب من النعش وهو يكاد يسقط من فرط النعاس. أقصد إلى غرفة والديّ. وعندما أصحو تكون الساعة منتصف النهار. ويكون كل الذين أقاموا سهرة العزاء قد غادروا منزلنا.

في المساء يُحضِر الساهرون باقاتٍ وأكاليلَ أخرى. فتنتشر رائحةٌ عذبة في غرفة المعيشة، وتتحوّل عند صباح اليوم التالي إلى رائحة أكثر حدة كرائحة الزهور الآيلة للذبول. وبعد منتصف الليل، عندما يغادر آخر الساهرين المنزل، يقرر والدي أن يضع غطاءَ التابوت فوق المتوفاة، لأنها بدأت «تفعل فعلتها»، كما يقول. فنفتح النوافذ ونُبخّر الغرفة. قبل أن يؤتَى بغطاء التابوت إلى الغرفة تقترب أمي من منصة النعش وتُمسك فجأة بيد جدتي. ثم تئنّ أنينًا خافتًا، ثم بصوت حازم، بل ومن الحزم حتى أفهمَها، فأفهمُها: عندما كنتِ على قيد الحياة لم تكوني طيبة معي، ولكني كنتُ أحترمكِ دائمًا. تغمّدَك الربُّ بسلامِه. لقد صنعتُ السلام معكِ. ولكَم أتحير أمام هذا التجلي المنفعل الذي يبلغ الذروة فيصير شهيقًا قبل أن يسقط. وعندما يضع الرجال الغطاء على التابوتِ تتنحى أمي عن النعش. تتمخّط وتشرع في الصلاة بصوت أجش. ولا نجد بُدا من مداراتها في صلاتها فنقف متأثرين في

Twitter: @ketab_n

الغرفة التي تصير فجأة مثل مطْيرةً تطفو على قمة جرف صخري، من حيث يُقذَف بالمتوفية نحو الأعماق.

تشيك سيضطلع بسهرة العزاء الأخيرة، ليقول وداعًا لرفيقته في المعسكر، كما يقول. تاجُ مجمْع معسكر رافنسبروك، مع المثلث الأحمر في وسطه، وقد أُسنِد الآن إلى رأس النعش، متألقًا لمّاعًا.

في الصباح يصل حملة النعش إلى المزرعة. تُرفَع المتوفاة في نعشها وتُخرَج من النافذة. ثم توضَع للمرة الأخيرة على عتبة البيت حتى تودّع بيتَها وذويها. بعد ذلك يرفَع النعش على مقطورة تغطيها أكاليلُ الزهور، ثم تُنقل إلى المقبرة.

جنازة جدتي مهيبة. أتحرك مع الحضور الكثيفِ وكأني أجدني لأول مرة داخل جسدي. وفيما يُنقَل الجثمان عبر ساحة السوق إذا بزوجٍ من السمنة يرقص مغرّدًا من فوق الموكب والأكاليل المهيبة.

بعد الجنازة تُقَدَّم إليّ التعازي أنا أيضًا، وهو ما يدهشني كثيراً، لأني حتى هذه اللحظة لم أكن أحسّني شخصًا بالغًا. وفي الغداء الجنائزي ألاحُظ والدي وأقول لنفسي إنّ هيئته توحي كأنه فقَدَ للتو عائلتَه جميعًا.

في المنزل أجلس في غرفة المعيشة حيث ما تزال رائحةُ التحلل الخافتة تطفو في الفضاء. مع هذه الرائحة التي تنسحب ببطءٍ من الغرفة تنسحب مني جدتي أيضًا. فهي تتحرك في داخلي وكأن الوقتَ حان لكي ترحل عني. فتنهض وتضع سردَها فوق الطاولة، ثم تُخفي النافذة، والبابَ وترحل. وفي المكان الذي كانت تقف فيه يستقرّ ألمٌ عنيد، ألمٌ لن يخفّ إلا بعد وقت طويل. تظل عيناي محطوطتَين فوق زهرِ الحوذان في الخارج، عند بداية المرجِ الذي بدأ يصعد أمام البيت. كل شيء سوف يتغيّر، أقول لنفسي.

Twitter: @ketab_n

في اليوم التالي، بعد أن ساعدتُ أمي في تنظيف المنزل وغسْل أرضية الغرفة تكوّرتُ في حفرة دافئة على حافة الغابة من وراء منزلنا. أنظر نحو الوادي وأبدأ أسائل نفسي إن كان يليق بي أن أضع كل هذا على الورق. فالكلماتُ قد تأتي إليّ من دورانها الذي لا يتوقف، ولعلني أستطيع أن أنتزعها من مسارها المظلم وأجعلها تروي أشياء تخصني. لكنّ ما يخصني ليس سوى وهْمٍ خادع.

بعد وفاة جدتي أخذ نظامُ الأشياء مجرًى آخر. قُسِّم إرثُها، فكان نصيبي منه قبّعاتها المصنوعة من القش وأوشحتها، وتنوراتها من الكتان الأبيض، وبضع كؤوس الشاي، وأواني زجاجية، وبعضُ الصور الفوتوغرافية. هذه الأشياء هي إكسسواراتي البدنية، هكذا ظني، فهي أوّلُ ما يمنحني شكلاً.

تنظم أمي شؤونَ أسرتها وفقًا لأفكارها. اشترت دراجة، وإذا لزم الأمرُ تركبُها وتذهب بها إلى بلدة المنطقة الرئيسية، وهي ليست قريبة، لكي تتسوّق وللإجراءات الإدارية. تُرتّب مشترياتها في حقيبة ظهْرٍ كبيرة تضعها فوق الكتفين، أو في حقائب تُعلّقها على رفّ الأمتعة. تتكفل تدريجًا بشؤون العائلة. يقول والدي عاتبًا أن أمي قد فاقته، لكنه يترك لزوجتِه تدبيرَ الشؤون الرسمية وتنظيمها.

يبدأ والدي في خوضِ حياتَين مختلفتين، واحدة للجيران والأخرى للأسرة. أمام الجيران يحاول الخداعَ مع احتفاظه بِوهْم اللامبالاة وخلو البال. فعندما يكون وسط الناس يحرص على الظهور بمظهر المغتبط، الوثوق، والعامل الدؤوب. يسعى لأن يسلك سلوكَ العامل القوي، والصياد الأوفر خبرةً، والأكثر يقظة بالمكان. يريد أن يكون درّاجًا جريئًا، وأكثرَ عازفي الكلارينيت والأكورديون وَسامة في القرية. يريد بحركاته ومشاريعه الشهيرة أن يبقى في ذاكرة الجيران. وفي فصل الشتاء، حتى وإن كان لا يعرف فنّ التزلج، يرتدي الزلاجات ويُقنع نفسه حتى يسعِد الحضور، بنزولِ

Twitter: @ketab_n

المنحدر في مسارٍ جهنمي. وفي سباق الزلاجات يقدّم عرضًا كوميديًا فيقود زلاجة قديمة ثقيلة من زلاجات المزرعة. ويلتهم البيض النيِّء إلى حد الغثيان، ويصعد في العربات المثقلة بأحمالها، وفوق جميع الأشجار. يكفِي أن يُطلب منه ذلك. وإذا شرب أفرط في الشرب، لأنه لا يؤمن بما له وزنٌ أو قياس، لأنه على مدى ما تُسعِفه به الذاكرة لم يواجه في حياته قط إلا التجاوزات والمبالغات. ففي البيتِ يكفي تافهةٌ من التوافه أن تفكّكه، أو تُغضبه أو تفقِده أمله. فسرعان ما يفقد صبرَه. وعندما لا يفهم شيئًا، أو عندما يُعارضه أحدٌ يظل أيامًا من دون أن ينبس ببنت شفة.

Twitter: @ketab_n

بعد وفاة جدتي لم يعد يذكر خططَ انتحاره. فالغضب المدمر الذي كان والدي يوجّهه نحو الداخل صار ينفجر الآن خارجه. فإنْ كان ثملاً صار جسدُه أداةً لإنتاج الصراخ الهادر الذي يصمّ الآذان. يقفزُ صوتُه من قفصه الصدري بجميع الإيقاعات وبكافة ألوان الحدّة الممكنة. نوباتُ غضبه تُذكّر بصرخات أحد المحكوم عليهم بالإعدام. فعندما يكون في هذه الحالة يندفع من غرفة إلى أخرى، أو يختبئ وراء طاولة المطبخ ويُطبّل فوقها. يهدّد، ويصرخ فينا أنه سوف يُظهر لنا من هو حقًا، ويقول لنا أننا، نحن الأطفال وأمهم، لا نريد شيئًا آخر سوى تدميره. يُطلق العنانَ لكربه، ويقصِفنا بنوبات غضبِه، بوساطة كلمات تُدثّرنا مثل حجارةٍ لا نستأصل أنفسنا منها بعد ساعاتٍ، إلا في مشقة وعِناء.

أفكارُ والدي تدور حول الموت. يستهويه كلّ ما يدمر. فعندما يُنفق طاقاته جسديًا، أو عندما يعود من راستونيك، يأخذه الهذيانُ حول جرائم القتل التي وَقعت في منطقتنا قبل وأثناء وبعد الحرب. يقول وهو يصرخ أنه يعرف مَن قَتل قبل الحرب، كاتارينا الشبقة، التي عُثر عليها مطعونةً بالخنجر في سيلِ ليبينا، وأنه يعرف قاتل بترنيل أثناء عودته إلى ذويه بعد الحرب. وأنه يعرف من قتل أنصار المقاومة في وهدِ بتيناك. يصرخ بأنه مهدَّدٌ، وبأنه سيُقتَلُ هو أيضًا ذات يوم، وأن القاتل زوجتُه لا محالة، لقد خطّطتْ لكل شيءٍ، وهيأت الفأسَ والمعزقة لدفنه بعد اغتياله. وهو على يقين راسخ أن اكتئابه خطأٌ ارتكتبه والدته في حقه. فهو يأخذ عليها إذلالها لفحولته، وخيانتها، وقولها في كل مناسبة ما لا ينبغي قولُه. يقول إنها لا تفهمه، وأنها تتصرف تصرفًا يحطّ من قدره وحُظوته، وأنها لا تملك نحوه ذرةً من الرحمة والشفقة. ويأخذ عليها أنها لا تقرّ بفضله عليها، هي ابنةُ المرأة المياومة، التي

Twitter: @ketab_n

استطاعت أن تتزوّج صاحب مزرعة، وترتقي به اجتماعيًا.

والدتي لا تكنّ لوالدي ذرة واحدة من الشفقة. فهي تُلقي إليه بنظرات التحدي وعدم الرضا، لأنها تشعر بالإهانة والإساءة. فهي تُشعره أنه خيّب أملها، وأنها تحلم بحياة أخرى، وأنها على يقين من أنّ زواجَها كان خطأً فادحًا.

لِنَوبات والدي تأثيرُ سُمّ هادئ نتجرّعه نحن الأطفال نقطةً نقطة. ننظر إلى مشهد والدنا الذي يقود نفسَه بنفسه نحو الفشل، ويجعل منا رفاقًا لا يملكون إلا أن يتحمّلوا غيظه الذي يقدح شررًا، ويشدّنا إلى رُعبِ أيامِ العُمر الخوالي، ويحاول أن يُقرّبنا إلى آلامِه التي لا نملك إلا أن نتخيّلها من دون أن نفهم كنْهها، ويريد أن يمحُوَ ذُعرُنا ذعرَه، ويجعلنا ندرك جوهر الحياة في قلب هذا الذعر نفسه. يُحس أنه خُدِع من الناسِ جميعًا، ويلقي بنا غدرًا في أحضان من هيّأتهم نفوسُهم لأن يُصدّقوا شكوكَه. ولمّا تهدأ العاصفة، حين ينتشي وتستأنف الحياةُ مسارَها، يمكثُ والدي أيامًا كاملةً هادئًا هدوءَ الرّعب والندم، وهدوء الخجل والرضا، رضاهُ عن نفسه التي وسِعها أن تُعبّر عن أعماقها مرةً أخرى.

ليس من اليسر أن أتعاقَ من ويلاتٍ تثيرها في نفسي ليلةٌ أمضيتها في السهر على والدي، ليلةٌ لم يهتد فيها أيٌّ منا للنوم بعد أن أبت عليه نفسُه الهدوءَ والسكينة. أتضايق من نوباتِ غيظِه المدمرة، ولا أجد كلمات قادرة على وصف عنفِ نوباته الغاضبة. ما أكثر حرَجي وتِيهي، وما أكثر خجلي لوالدي، لكنّي إنْ سعيتُ للحديثِ لا يُثمر سعْيِي سوى ثغثغاتٍ وجِلة وصمتٍ وسكون.

ومع ذلك فإني أضعه تحت حمايتي، مثلما تضعه باقي العائلة في حمايتها، بقوة الغريزة. يبدو أنهم اتفقوا على مداراةِ نوباته، لأنهم قدّروا أن طلبَ النصيحة من أيّ كان عبثٌ وسخَف، مادام، على أي حال، لا يمكن الاعتمادُ على فهم أو مساعدة. يقينُ الجميع أنْ لا مفر مما هو قدَرٌ محتوم. لا مفرّ من تحمّل هذا القدَر،

Twitter: @ketab_n

كما نتحمّل لقَب العائلة الذي تلوّن بدبْغ السنين وقِدَمِها. لأن الذين فرّوا يتيهون الآن بعيدًا، بعد أن تبدّدوا في مهبّ الريح.

أكتبُ قصائدي الأولى، أبحث عن كلماتٍ تلمّسًا وتحسُّسًا. وفي مدرستي الداخلية أعيش، قبل البكالوريا، في ما يشبه أرضًا من دون كائنٍ بشري عليها، تُمنح لي فيها وقفةٌ أستطيع أن أملأها بأحلام اليقظة، والأوهام الليلية. أمنّي النفسَ بأن أجد اللغةَ الصحيحة يومًا، وأتصوّر أشباحًا من الجملِ ألقِي بها نحو مستقبل بعيد. وبعد حينٍ، وليس الآن، كلُّ ما أفكر به، أو أحسه، وكل ما يخالجني وأخشاهُ سوف يصبح لغة، وسوف يلتقي أو يجتمع في جملةٍ واحدة. آملُ أن يتحقق ذلك يومًا، حين تحين الساعة.

Twitter: @ketab_n

على خلافِ ليني، التي تملك حسَّ القتالِ، والتي سيَّستْها الحرب، فما يزال والدي يخشى السياسة ولم ينجرف وراء المظاهرات التي جرت في السنوات التي أعقبت الهجومَ المعادي للسلوفينيين على لوحاتِ أسماء مواقع المدن والقرى، لأن في رأيه لا ينبغي الاستهانة بالمصاعب وتحريك المواجع. فهو ورفاقُ سنوات الحرب لا يملكون أيّ رغبة في تلقي شتائم الناس وبُصاقهم في الشوارع. بعد مظاهرة سُلوفينيّي كارينثيا في كلاغنفورت، حتى ميشي يرى أن سكان كارينثيا الألمان سوف يظلون يحقدون على السلوفينيين لعقود عديدة، ويحقدون على أطفال المزارعين والعمّال، وعلى موظفي ذلك البلد، لأنهم تمرّدوا وتظاهروا لتطبيق معاهدة الدولة، وتنفيذ المادة ٧ ، من أجل أمرٍ لا شأن له في نظر الأغلبية التي تَعتبِر معاهدةَ الدولة، على العكس، معاهدةً عقابية أملتْها قوى الاحتلال ما بعد الحرب.

لم يعد والدي يملك القناعة بأن الانخراط في السياسة يمكن أن ينطوي على أي معنى من المعاني، ومَن يدري فلعل هذه القناعة لم تتملكه يومًا أصلاً. أما فكرة القدرة على الوصول إلى شيء بالعمل عليه فهي غريبة عنه تمامًا. والدي يعتقد أن السياسة لا تُمارس إلا مقابل ثمن الحياة وحده. يعتقد أن لكل شيءٍ في أي وقتٍ دورًا، وأن الأمر ليس مجرد مصالح خاصة. فهو لا يستطيع أن يفصل بين هذه المصالح وبين بقائه حيًّا في هذه الدنيا، ولذا فهو ينظر بارتيابٍ إلى أيّ كان يراه تحت حماية منظمة سياسية، أو يجد مَعالمه في قناعة إيديلوجية. لا يذكر والدي صيغة سياسية واحدة يمكن أن يمنحها إيمانه. فالشيء الوحيد الذي يذكره عن سنواته لدى أنصار المقاومة أنه، وهو طفل، لم يُجنَّد وفي وحدات المعارك، وأن أنصار المقاومة أنقذوا حياته، وأن الإحساس بأنه في حالة فرار دائمة ظل يلازمه بلا انقطاع تقريبًا.

Twitter: @ketab_n

أذكرُ أني قلّما رأيتُ والدي يخرج طوعًا من تكتّمه إلا بعد إحدى رحلاته النادرة إلى سلوفينيا مع اتحاد أنصار المقاومة.

فبعد عودته من الرحلة امتلأ حماسةً ونشوة عندما بدأ يروي الاستقبالَ الذي خُصَّ به أنصارُ كارينثيا في يوغوسلافيا. فيصف الأبهة التي ظهر بها أنصارُ سلوفينيا، والطريقة التي أظهروا بها للدولة وللسلطة، هيئتَهم المتسمة بالروح القتالية، وهو ما لا نجده بين أنصار كارينثيا إلا عند قياداتهم. فيذكُر التلاحمَ المهيب الذي ميّز أنصار المقاومة القادمين من تريست. وحتى يزداد انتعاشًا بدأ يدندن ببضعة أناشيد عسكرية حتى يُظهر أنه ما زال هو أيضًا قادرًا على أن يغني أو يدندن بالأناشيد وألحان السير العسكرية. عندنا يُعامَل الأنصارُ كما يُعامَل قطاع الطرق، يقول، كما في ذلك الاحتفال في كلاغنفورت، عندما سُلّمت إلينا أوسمةُ الرئيس اليوغوسلافي تيتو لمزايا مقاومتنا في الاشتراكية القومية. هناك انتظرتْ جماعةٌ معاديةٌ للسلوفينيين أنصارَ كارينثيا خارج مركز البلدية في كلاغنفورت، وأهانتهم عند خروجهم من المركز. فحدث شغبٌ هاجم فيه شخصٌ متشدّق فظّ ابنَ عمه بيتر وألقى به في الأحراج. في ذلك الوقت، يقول والدي، أحسّ أن روح القتال القديمة لا تزال سارية. أما هو، على أي حال، فقد سارع بالعودة إلى أيسنكابل مع بعض الرفاق، وقد طلب الغولاش والبيرة في نُزل كولر. أما الشهادات فقد تركناها في السيارة، يقول والدي، وإلا لكنا شهدنا في كولر معركةً أخرى.

بعد مرور بضع سنواتٍ يتسلم من رئيس الفدرالية النمساوية وسامًا تقديراً لمزاياه خلال تحرير النمسا. هذا التكريم يبعث فيه الفخر والاعتزاز. سيُبَرْوِز الشهادة، يقول والدي. على الرغم من كل شيءٍ فهو مقتنع أن السياسة مخادعٌ تفرِض إرادتها على المخادعين مثلها.

المناسباتُ السياسية على طريقةِ كارينثيا، والجنازاتُ والزيارات العائلية كثيراً ما

Twitter: @ketab_n

تُغلق على والدي في الماضي، فيلقَى عناءً جمًّا في الخروج منه. يظل لأسابيع عديدة يعاني من آثار وجبةٍ تناولها في نُزلٍ قال له شخصٌ شرب معه فيه إنّ خطأ سوءِ طالعِه خطؤُه هو. وإن الخطأ خطأُ والده ووالدته أيضًا إنْ هو وجد نفسَه في هذه الملابسات. فلو لم يلتحق والدُه بأنصار المقاومة ولم يحارب ضد هتلر ولصالح السلوفينيين لما أصابه مكروهٌ قط. إذنْ، ما الذي يُغضِبه. عليه أن يرتضِي بحاله، يضيف ذلك الثرثار الفظ، الذي لم يحاول الآخرون الاعتراض عليه، لأنهم كانوا كلّهم تحت تأثير الكحول. والدي متأثرٌ أيما تأثر، وأنا مشوّشة، لأنني أشعر كم كان حساسًا عندما شرب، وضعيفًا في مواجهة أدنى استفزاز، وأدنى تلميح، وأدنى إشاعة، ما يجعله في الحال يشك في أمرِه ويصدّق كلَّ من يضحكون عليه.

زياراتُ أقربِ الأسر إليه، وزيارةُ شقيقه وذويه، وأبناء وبنات الأعمام، الذين عبَر معهم سنوات الحرب، وحدها التي تجعله سعيدًا سعادة لا مثيل لها. ونحن الأطفال نشعُر أيضًا بالسعادة عندما تمتلئُ الغرفةُ الكبيرة ويشرع الضيوفُ الجالسون من حول الطاولة يثرثرون في غبطةٍ ومرح. فنضحك ونغني ونروي القصص. أحيانًا يقف أحدُ الضيوف ويلقى كلمة. ويبكي والدي من دون خجل، وأحيانًا الآخرون هُم الذين يبكون، وخاصة ابنةُ عمه زوفكا، التي يُكنّ لها وُدًّا خاصًا. فعندما يتذكرون ذلك اليوم المأساوي الذي أُلقِي القبضُ فيه على جدتي، وعندما يصف بيتر وتونسي الضربات المؤلمة والمهينة التي نزلت عليهما من أحد ضباط الشرطة أثناء التفتيش، لا يفوتهم أن يذكروا في كل مرة ذلك الموظف، وكان رجلاً أشقر، في سنّ النضج، متحفظًا ومعتدلاً، الذي ملأت الدموعُ عينيه وهو ينظر إلى الأطفال اليائسين. وتستثير دموعُ ضابطِ الشرطة الذي شهد اعتقالَ جدتي دموعَ الذين يسردون، كما لو كانت الانفعالاتُ التي شعر بها رجلٌ مجهول ضروريةً لجعل حزنهم ممكنًا، كما لو أن حزنهم قد تجسد بصورة أكثر واقعيةً وأكثر صدقًا في عيني ذلك الشرطي، أكثر مما يتجسد فيهم. ويَذكر ميشي ابنتَه سبورن التي كانت في مثل سنّه، أي طفلة. فعلى

Twitter: @ketab_n

الجسر بالقرب من بيت كوبِتز، في وهدِ ريمشيتغ ضربتها الشرطةُ على رأسها بأعقابِ بنادقها، لأن أهلها انضموا إلى أنصار المقاومة. وزميلُها في الصفِ الذي أصبح فيما بعد زوجَها هو الذي رافقها إلى المنزل في ذلك اليوم، وكادت الشرطة أن تضربَه ضربًا مميتًا هو أيضًا. لا يزال قفصُه الصدري يحمِل إلى اليوم آثارَ التعذيب، يقول ميشي. والدي يعرف هذا. ويؤكد أيضًا أن الكونت تُورنْ هو الذي أنقذ حياة الأطفال. فلمّا تمادت الشرطة في ضربِهم فيما كان هؤلاء الصغارُ يئنّون في الأرض، ويفقدون الوعيَ، تدخّل الكونت وسعَى لعِلاج الصغار لدى كوبِتز. وفي وادي ريمشينغ كاد عددُ العائلات التي أخذتها الشرطة في يوم واحدٍ أن يصل إلى ثلاث عشرة، لو لم يتمكن بعضُها من الهربِ من الاعتقال واللجوءِ إلى الأنصار، يقول ميشي. فضلاً عن أن كل الذي حدث كان في وادٍ لم يُنيّفْ فيه عددُ المزارع على عشرين مزرعة.

Twitter: @ketab_n

في خلالِ سنواتي الثلاث الأخيرة في المدرسة الثانوية لم يهتمْ والدي إلا في استحياءٍ بمسيرتي الأكاديمية. ولم يُعبّر عن شعوره إلا بشكل عابرٍ وفي تحفّظ جمّ. يطّلع على كشوفي الدراسية، ويقرأ أسماءَ المواد، لأنّ الأسماء تعجبه حين تكون بلغتين. فذات يومٍ اثنين من أيام الشتاء التي أجدني فيها مضطرة لأن أغادر إلى كلاغنفورت في وقتٍ مبكر، ويكونُ الثلج فيها سميكًا، ولا يستطيع فيها ميشي الذي يرافقني دائمًا في بداية الأسبوع إلى ايسنكابل، أن يُخرج سيارته من المرآب، في ذلك اليوم إذًا يستيقظ والدي في الرابعة صباحًا ويحرك جرّاره ويشرع في فتْح المداخل، فيسير لغاية بيت ميشي تقريبًا، ثم وفي الاتجاه المعاكس يقوم بدفع كُتل الثلج إلى حواف الطريق. وفي لحظةٍ بعينها يقف في الطريق وينتظر وصولَ السيارة، فيتوقف ميشي بسيارته بالقرب من الجرار وينزل منها. ويدخّن الرجلان سيجارتيهما الأولى في عتمةِ الصباح ويتحدّثان عن الطقس. وهكذا ينحَفران في ذاكرتي. هذا الرجلان وهما يرتجفان، واقِفَين في الثلج أثناء سقوطِه، حتى يشُقّا لي طريقًا نحو المدرسة.

عندما يتسلم والدايَ الدعوةَ لحفل توزيع شهادة البكالوريا، يرفض والدي تلبية الدعوة. لا يسعه أن يتخيل الذهاب إلى حفلٍ مدرسي. أبدًا يقول والدي. فهو يعتب على أمي، لأنها، يقول، تتزيّن بريشِ الطاووس.

بعد أن أنهيتُ الباكالوريا لم يعد المستقبلُ يظهر لي في صورة حقلٍ من السحب البيضاء، ويبدو أن والدي كان يريد تلك الصورة، ذلك الإقلاع نحو عالمٍ مجهول المعالم.

والِدايَ يتحفظان كثيرًا، فمَا مِنْ مُقترح واحدٍ ينطق به لساناهما. فهما يتركان

Twitter: @ketab_n

لي الخيارَ في ما يعنّ لي من دراسة، لا يحاولان أن يتدخلا في ما هو غريبٌ عنهما، ولم يفكرا فيه يومًا. لتفعلْ الفتاة ما تريده، طالما لا تجلب لهما خجلا أو عارًا. لأن مفهوم العار مألوفٌ عندهما أكثر من كلمة دراسة. فهما يستعملانه في حذرٍ، مثل كل الكلمات الأجنبية. بعد بضعة أشهر فقط نطقتْ والدتي، بعد تردّد، بذاك الذي اخترتُه أنا: دراسات مسرحية. أمّا والدي فهو لا يحاول أن يتذكر هذه الكلمات. فإن سأله سائلٌ ما الذي تدرسُه ابنتك أجاب بأنّ لِمَا تدرسه صلةً بالمسرح. ويكفيه هذا، لأنه لا يفقَه في العمل الفكري شيئًا، ولا علاقة له مع المسرح، ولا يريد أن يفكر فيه البتة.

قرارُ التحاقي بالدراسات المسرحية جاءني من صميم فكري، فهو نتيجةٌ للعديد من الأمسيات المسرحية التي تفرّجت عليها، ومن أنّ المسرح يمكن أن يكون فضاءً أواجِه فيه دون خطرٍ كلَّ ألوانِ اليأس وعراقيل الحياة. على خشبة المسرح تصبح الكوارثُ محدودة، فكم نقتُل من أبطالٍ لكنّهم يظلون أحياءً طوال الوقت. يُظهرون خيباتهم، ومراوغاتهم وأحلامهم، وحبّهم وكراهيتهم. يستسلمون لمشاعرهم، ولأفظع مخاوفهم. فالتمثيلُ لا يمكن أن يبدأ إلا من البداية، ولا ينتهي بالضرورة نهايةً طيّبة. لكن في جميع الحالات هناك نهاية. المسرحُ لا يمكن أن يطعنَنا من الخلف، كما تطعنُنا الحياة، حتى لمّا يتخبط في كافة الاتجاهات. كل شيء لعِبٌ، وكلُّ شيء يظل مُعلّقًا.

في فيينا، أعود لمحاولات الكتابة وأكتب بالسلوفينية كما لو كانت هذه اللغةُ تعيدني إلى وعْيِي مرة ثانية، وكأن السلوفينية تستطيع أن تعيدني إلى مشاعري التي أضحت غريبة عني. فالحزنُ الذي لا يعرف حتى الآن من هو ولا كيف يُسمَّى ينتظر مَن يضع عليه عنوانًا. ينتظر مني أن أفكّ لغزه. يريد أن يتقيّد بي عبر الكلمات، مثل كل المشاعر التي تتحرك بشكل عشوائي في داخلي. جُملي مرتبِكة كما لو حِيكت بمقاطع كلمات ممزّقة. نخالها أحرفًا لا نعرف منبَعها، ولا نهتدي إلى أثرها، أحرفٌ

Twitter: @ketab_n

لا تريد أن تكشِف عن مؤلفها الحقيقي.

في إحدى الرسائل تكتب لي أمي أنها تفكر في مغادرة المنزل، وأنها لم تعد تطيق نفسها فيه، وأنها ستذهب للبحث عن عمل.

في أعياد الميلاد، عندما أعود إلى المنزل، تخبرني أنها تفاهمت مع والدي، وأنه أعطاها الوعد بأنه سيغير من سلوكه، تقول بصوتٍ تعوزه الثقة، كما لو أنها تعلم أن لا مفر من أن تتنازل عن جزء مما تأمل فيه. لقد قررتْ أن تستمتع ببعض الحريات، وأن تذهب للعلاج، وتشترك في رحلات أو تقطع مشيًا على الأقدام مسافات طويلة يوم الأحد. فهي في حاجة للخروج من المنزل من وقت لآخر، وإلى التفكير في شيء آخر، حتى تتحمل أسبوعها بصوة أفضل. وأشجّعها في نواياها وأسألها كيف تصورت الحياة في المدينة، وإن هي فكرتْ في الطلاق. لكنّ الطلاق، في بال أمي، غير وارد بتاتًا.

Twitter: @ketab_n

ذات مساء من مساءات شتاء عاميَ الدراسي الثاني وصلتُ متأخرة إلى إيسنكابل وتساءلت كيف أقطع بأمتعتي سبعة أميال تفصلني عن ليبينا، ما دمتُ لم أجد أحدًا يأخذني بالسيارة لغاية الوادي. فأتوقف بحقيبتي في الساحة الرئيسية التي غطتها الثلوج وأقرر أن ألقي نظرة إلى داخل الحانات حيث أفترض وجودَ رجال من ليبينا.

عند مروري بالكنيسة ألمحُ جرّارَ والدي مع مقطورته، مركونًا أمام صندوق الادخار السلوفيني. وعلى سطح المقطورة ثلاثةُ أكياس من الدقيق، مكشوفة ومعرّضة للبرد. ألقِي نظرة عند كولَر. لكنه لم يأتِ، تقول إحدى عاملات المحل. عندئذ أقصد إلى بوستي.، خمارةٌ كمِدة، قاعاتها معتمة، وسقوفها منخفضة. وهنا بالفعل أجد والدي. فيُحيّيني: أهلا، يقولها بصوتٍ عالٍ. أهلاً، إنها من عائلتي، يقول وقد تألّق محياه. لقد وصلتْ للتو من فيينا، لكي تبحث عني.

فيما الرجلان الجالسان يتدافعان حتى يُهيّئا لي مكانًا أجلس فيه إذا بالزبائن في الطاولة المجاورة ينظرون إليّ من طرف العين. أضع حقيبتي، وأعلّق معطفي وأرسم قبلةً على خدّ والدي. ويستأنف الرجلان حديثَهما الذي قاطعتُه. تِينْ، هذا الذي يُلقبانه بالجنرال من باب التسلية، يصِف لهما الآن حلقةً من حلقات عهد أنصار المقاومة التي يودّ الرجلان معرفةَ خلاصتِها. فيما الجالسون إلى الطاولة المجاورة مشغولون بشيء صاخِب. وفي فواصل قصيرة يتحدّث الرجلان حديثًا متضاحِكًا صاخبًا.

يروي تين كيف ترك وهو قائدُ إحدى السرايا، ثلاثةَ جرحى في كوبريفنا في رعاية أفراد من عائلته. هناك قام مزارعون بمعالجتهم سرًا. كان آخرُ شتاء في الحرب شاقًا جدًا. لقد أخْلت سريّتُه مستوصف سولسافا بعد أن تلقّت الأوامر بأن تَنقل

Twitter: @ketab_n

في قلب الثلج الكثيف لغاية وادٍ قصيّ، سبعةَ عشر من المحاربين الجرجى. وفي تلك الرحلة الليلية لقيَ ثلاثةُ رجال حتفهم، متأثرين بإصاباتهم البليغة. ولكم عانيتُ من تحمّل الأموات بين الأنصار، عناءً لا يقل شراسة من عنف مراقبة وتعليمات المحافظين السياسيين. فلم يكفوا عن التدقيق في كل شيء، وتفتيش حقيبته، وفوق ذلك فلم يسمحوا له بالكتابة إلى خطيبته التي قالوا عنها أنها شخصٌ لا يؤتَمن كثيراً. كانوا يتدخلون في الشؤون الخاصة، ويصدرون أوامرَ بليدة حمقاء، يقول تين. وعلى طاولتنا يسأل أحدُهم عن حال الأمور عند برسمان في تلك الأثناء، لمّا كانت سريّته آنذاك بالقرب من المزرعة. ويتنفس تينْ بعمق ويقول، نعم كانوا في كل يوم ينتظرون نبأ انتهاء الحرب. لقد مكث هو وسريّته، مع وحدتين أخريين، ثلاثة أسابيع، بالقرب من المزرعة. لكنه حتى في تلك الأثناء وجدَ ذلك عملاً لا يرقى إلى مستوى المسؤولية، لكنّ مجلس القيادة هو الذي شاء وأمر. بل وقد جعل الأنصارُ يردّدون رقصات السلام. أجل، لقد بلغ بنا الطيشُ هذا الحد، يقول تين. وفي الليلة الحاسمة أخذتْ أحدَ رجال غلوباسنتز سِنةٌ من النوم أثناء الحراسة فلم ينتبه أن وحداتٍ من النخبة الخاصة كانت تتقدم في اتجاه برسمان. وهكذا حدثت الكارثة التي لم يتخيل أحدٌ أنها قد تحدُث قبل عشرة أيام فقط من نهاية الحرب. لقد تقهقر الأنصار بعد مناوشةٍ، لأنهم أرادوا تفادي المعركة، وفي الإثرِ هاجمتْ وحداتُ النخبة المسلحة عائلة صاحب المزرعة. وهكذا أثارت مجزرةُ برسمان سخطه وجنونه، يقول تين، لقد بدأ القتلى المدنيون، أموات الفترة التي قضاها في الفيرماخت، في بولوندا وروسيا يلاحقونه، وانتصبت حربٌ برمتها أمام عينيه، في كومةٍ هائلة من جثث المدنيين. يا لها من فظاعة! يا لها من فظاعة! ففي الليلة الأولى أخلط كلٌّ شيء، الروس المعلقين في القرى الأوكرانية، والمزارع التي دمّرتها النيران، ورائحة الجثث المحروقة التي تطفو من فوق مزرعة برسمان.

وفي هذه اللحظة، في الطاولة المجاورة، يقول أحدهم إن هذا إفكٌ وبهتان،

Twitter: @ketab_n

فأنصارُ المقاومة هم الذين قتلوا عائلة برسمان. كيف هذا، يقول تين وهو يرفع رأسَه.

فجأة يراودني الإحساسُ أن الطاولة التي يجلس إليها والدي ورفاقه قد وقعت في معركة.

لم تفعلوا شيئًا آخرَ غير ترهيب السكان الأوفياء لبلادهم. أنتم، أنتم كنتم تحاربون من أجل يوغوسلافيا. رجالٌ خانوا بلدهم، لم تكونوا شيئًا آخر غير هذا، يصرخ الرجل الجالس في الطاولة المجاورة. أراك تقصد ترهيبَ السكان الأوفياء للرايخ، يقول تينْ، وهو يستعيد رباطة جأشه شيئًا فشيئًا، إني أعرف هذا عن ظهْر قلب! ما زلتم تعتقدون أن الناس كانوا، في ظل ألمانيا الهتلرية، يحاربون من أجل النمسا. من أجل فضاء ألمانيا الحيوي، نعم، لكن ليس من أجل النمسا! النمسا الحرة في تلك الأثناء، لم يكن قد بقي لها أي وجودٌ بتاتًا. أما زال الرايخ الألماني بلدكم إلى الآن، حتى تصفنا بمن خانوا بلادهم، يسأل تينْ بلهجة مهدّدة، لكنّ رجل الطاولة المجاورة يصرّ على عنادة. إنكم تستأهلون المحكمة العسكرية، يواصل، فأنتم من كان يجب أن يقبِض الإنجليزُ عليهم، بدلاً من احتجاز المواطنين النزهاء، الذين لم يخلوا بواجبهم.

الإنجليز كانوا حلفاءَ لنا أثناء الحرب، يردّ تينْ، كنا جزءًا من الحلفاء، إن كان هذا يعني لك شيئًا. لكن هذا لا يدخل في رأسك الضخم، أليس كذلك؟ بعد سنواتٍ عديدة، لم يبق عند الناس ما يقولونه حول العهد النازي سوى ترديد دعاياته، أجل بعد سنوات عديدة، يطلق تينْ في سخطٍ. كان من الخير له أن يستجيب لغريزته ويعود لبيته.

ها هو ذا يرغب في الذهاب، يقول الجالسون في الطاولة الأخرى، لو كنا في الحرب لقتلَنا حالاً، ها هو ذا يرغب في الذهاب!

هو، لا، ولكن أنا نعم، لكنتُ قتلتُك لو أمسكتُ بك، يقول رجلٌ من طاولتنا، وهو يلقي إلى الرجل المستفز، نظرةً متوعدة.

صدى الحربِ يصل إلينا في رمشة العينِ. تتحول الحانةُ إلى فضاء حربٍ يستعد

Twitter: @ketab_n

فيها المتخاصمون للمعركة.

هذا، لن أنساه أبداً، يقول المعتدي المهدَّد.

والدي يتأثر وينفعل. تينْ يعطي أمراً للرجل الغاضب في طاولتنا، فينهض في وثبةٍ واحدة، اجلس، هيّا اجلس.

الطاولة المجاورة تهاجم من جديد.

وأنت يا زرادفو، يقول الرجلُ الفظ لوالدي، أنتَ الآخرُ لم تكن سوى جاسوسٍ واشٍ. فليمنحْك الرئيس الذي لا وطن له ما شاء من أوسمة. فأنت بالنسبة لي لستَ سوى لص، مثل الآخرين تمامًا.

تتضاعف دقاتُ قلبي، أشعر بالحاجة للردّ على قول المهاجم وحماية والدي، ولكن لا يراودني شيءٌ آخر غيرُ وصفِه بالنازي. لكنكَ حقًا لست سوى نازي، وفجأة يخيفني صوتي المنكسر. يأخذ والدي في الضحك، ضحكةً وجيزة تخرج من حلقه، وبعد ذلك يقول لمستفزّه، إذا كنتُ أنا لصًّا، فأنتَ غبيٌّ أبله.

سأذهب لأحضر بندقيتي، يتوعد محبُّ الحرب المدافع في طاولتنا وهو ينهض في وثبةٍ واحدة.

إذا كنتَ ستذهب لجلبها انتهزْ فرصتك هذه وامكثْ في بيتك، تقول صاحبةُ الحانة بصوت حازم. سأدعو الشرطة، فوراً !

خطُّ الجبهة ينكسر، وتبدأ الصفوفُ في التلاشي.

أطلب من والدي أن يدفع الحساب وأرغب في مغادرة المكان. يرفع والدي يدّه رافضاً. أنا من يقرر متى نذهب. يدفع تينْ كأسَه إلى وسط الطاولة. الحساب، يقول والدي بعد لحظةٍ من التردد وهو يقذف بالنقود فوق الطاولة. وتمسك صاحبة الحانة دفترها بيديها المرتجفتين وتعدّ الحساب. يترك والدي بقشيشًا سخيًّا ويهمّ بالنهوض. يتأرجح. لعل هناك كرتونة غذاء في مكان ما، يقول، يجب ألا ننساها. أُمسِك بكنزته الشتوية وأشير إلى علبة الكرتون وما فيها من أغراض، الملقاة على الأرض.

Twitter: @ketab_n

حسناً، يقول أبي بعد أن أمسك بعلبة الكرتون، الآن ننطلق ! يبدو كأنه تساءل إنْ كان يجب أن يُلقي المزيد إلى طاولة الخصوم، لكنْ في الظاهرِ لم يُسعِفه بالُه بشيءٍ فيبادر إلى فتح الباب.

نخرج إلى الشارع. الساحة الكبرى خالية. آمل ألا يكون أحدٌ سرق أكياس الطحين، يقول والدي عندما ننحرف في اتجاه الكنيسة. ينتصب الجرارُ في البرد مثل شبحٍ مقيت. أرفع حقيبتي لكي أضعها في المقطورة، ويُسقط والدي كرتونة الغذاء بقوة فيطقطق مسطح الجرار. نصعد إلى داخل المقصورة. وبعد محاولات كثيرة للإقلاع ينطلق بنا الجرار. ترتفع ساقا والدي وتنزلان عندما يضغط على دواستي الغيارات والبنزين، فأخالهما مثل أعضاء دمية متحركة. حركاته تثير الرعبَ في نفسي. أسأله إن كان لي أن أجرّب القيادة. يسير والدي برهة من دون أن يجيبني، وهو يتعرّج قليلاً فوق الطريق الزلجة. أتريدين القيادة، يقول صارخًا، أنت لا تملكين رخصة قيادة، ولا تفقهين فيها شيئًا. لكنْ، كما تشائين، يقول وهو يسلّمني مقعده.

في الحال تواجهني صعوبةُ تغيير السرعة فيأخذ أبي في التهكم، ألم أقل لك ذلك، أيتها المتبجحة، العاجزة. بلا رخصة، وتصرّ على القيادة!

الطريق زلج، يملؤني خوفٌ شديد. يهتزّ والدي ويزداد هيجانًا. يصفني بالجاسوس الواشي، يقول في سخطٍ، يصفني بالجاسوس، هكذا ببساطة، وباللص. لن أدع هذا يمرّ هكذا، سأعلّمه، هذا الوغد، كيف لا يصفني بالجاسوس واللص. قفي، يقول، يجب أن أعود، يجب أن أردّ له الصاعَ صاعين، يصيح وهو يرتمي على المقود، والمقود بين يديّ.

أوقِف الجرّار وأطلب من والدي الذي يتظاهر بالنزول أن يبقى جالسًا. نحن في عز الليل، والرجال غادروا الأوبرج منذ وقت طويل، فلا داعي لأن تحرق أعصابك بسبب ما تروجه حفنة من أشخاص لا طائل من تهذيبهم. ما أسهل القولُ، يجيب والدي. لا أسمح بأن يعاملني أحدٌ هكذا، أفهمتِ! ينظر إليّ، جاحظَ العينين، ويتنفس بصعوبة كأنه سيختنق. أُمعِن النظر إلى الطريق، وأقرّر ألا أبالي به، وأزيد في السرعة.

Twitter: @ketab_n

صوتُ الجرّار المنتظم يهدئُ روعَه. وعندما ألج بالجرار مقطعًا مسطّحًا من الوادي، حيث يتّسع الوهدُ وتبتعد السفوحُ المُشجِرة عن حافة الطريق، يبدو والدي كأنه بدأ يتناعس ويغفو، فينتفِض فجأة. أضعتُ قفازَيّ. عليّ أن أعود على أعقابي، وأنطلق في الاتجاه المعاكس! لا يمكنني هذا، أقول، سنفتّش عنهما غدًّا. سيقطع بضعةَ أمتارٍ سيراً على قدميه، ويبحث عن قفّازيه، يُدَمْدِم والدي. لا أتوقع أنهما بعيدَين عن هنا كثيراً. كان قبلَ قليل يمسك بهما في يديه، يقول وهو يحاول أن ينهض. أتوقف. فينزل والدي إلى الطريق ويقول إنه سيعود بسرعة. وأهبطُ من مقعدي متذمّرةً، وأتعقّب بعينيّ شبحَ والدي المظلم.

يسكنني البردُ مثل قشعريرة لاذعة. في هدوءِ الليل المتلألئ من حولي يستحيل صريرُ المحرك المتوقف موسيقى إيقاعية. ليلُ الشتاء ينتصِب أمامي مثل لوْح حيّ يتجمّد فيه نورُ القمر وينعجِن فيه الثلج اللامع. ثم فجأة تبدأ طبقةُ الثلج في التحرك كأنها تحمِل ثوبًا من الريشِ يرتفع من دون أن تهزه هبّة ريح واحدة. وفي السماء تستحيل النجومُ إلى بلورات من الثلج وقد بدأت في السقوط، أو ندائف من الجليد أخذت بعد صعودها إلى الأعلى تتراجع أكثر فأكثر نحو أعماق الكون. ويتمدّد الوادي تحت الهواء الحارق. وبالقرب من الطريق ينجلي ماءُ السيل الجامد وقد أخذ يقرقِع ويطقطق.

لم يعد والدي. أنحدر في الطريق في هدوء وأنادي آتي، بابا، لكنّ ماء السيل يغمر نداءاتي. وعند نهاية المسطح ألمحُ نقطةً قاتمة فوق التلة. فأقترب وأرى والدي ممدّدًا على الظهر في كومة الثلج المتراكمة

حالُكَ على غير ما يرام، أتريد أن أذهب لأطلب المساعدة؟

دعيني هكذا مستلقيًا، يقول والدي. أتركيني هكذا. لم أعُد أريد شيئًا، أريد أن أبقى ممدّدًا، هذا ما أريده وليس أكثر. ستصيبك النّزلة ويصيب البردُ يديك

Twitter: @ketab_n

بالتشققات. يجب أن تنهض حالاً. لا يجبُ أيّ شيء، يقول والدي، سأبقى هنا مستلقيًا. سفيرسينا علّمني كيف أنامُ ممدّدًا. سفيرسينا يستطيع أن ينام على الثلج مثل أنصار المقاومة، وأنا أيضًا قادر على هذا.

والقفازان، أسأله.

تحت رأسي، يقول والدي.

صبري يصِل إلى نهايته. أمسكُ بيد والدي وأسحبه حتى ينهض. قُم، هيا قُم، لكن والدي يعود للتمدّد فوق الثلج مرة أخرى ويعقد يديه. كل الناس يفعلون أيّ شيء، فلِم لا أفعل أنا أيضًا أيّ شيء، أقول لنفسي، بعد اليأس، وأبدأ في الصراخ كما يفعل هتلر. انهضْ أيها الرفيق! ما الذي أصابك، هيّا قف! إلى الأمام سرْ، سرْ! وأمدُّ ذراعي وأحيي كما يحيي هتلر. ينطلق والدي في ضحكٍ يُشبه الصراخ. وفي الحال ينهض ويحيّي، هايَلْ هتلر، يقول وهو يترنّح، من فرط الضحك هذه المرّة. أستدير بخطة الأوز وأردد وأنا أزعقُ نشيدًا من أناشيد الأنصار. فيترنح والدي وهو يصيح هيلْ هتلر، هيلْ هتلر، تا جي با دوبرا، هذا جيد، آه، جيدٌ حقًا هذا! أنجحُ في الإقلاع بالجّرار قبل أن يركب هُو ويجلس على المقعد. أواصل بلا إرباكٍ أنشودةَ الأنصار، حتى أثناء القيادة، لأني أخاف أن يرغب والدي في النزول ثانيةً إنْ أنا توقّفتُ فجأة. لكنه يوافقُ على خُطتي. يضحك، ويغني، ويربّت على كتفي، ويكرّر، أنا وأنتِ الأبلهان، أنا وأنت الأبلهان الحقيقيان، أنا وأنت المحاربان من أجل الحرية والغذاء!

في البيتِ وأنا في سريري، لا أنام من فوري. البردُ يملأ الغرفة، أحسّني جامدةً حتى النخاع، وعلى الساعدين والساقين أشعر بالقشعريرة. البردُ ينساب من تحت جلدي، أخال كأنه يريد أن يُسْبِتَ في جسدي، وأنا مرهقةٌ جدًا، ولذا لا يسعني أن أطرده.

في تلك الليلة أرى في المنام أني أهرب من بيتنا. أنتظرُ قطارًا ينحدر في سفح الجبل في بطءٍ شديد، وبالكاد ألحق بآخر عربة. أتمدّد على بطني فوق آخر مقصورة

Twitter: @ketab_n

حتى نستطيع صعودَ السفح الوعر بمزيد من السرعة، لأن الرجل الذي لا يريد أن يدعني أذهبُ يقف لي الآن بالمرصاد من تحت قمّة الجبل، ويريد أن يسحبني بقوةٍ من داخل القطار المنطلق بسرعة. لقد أحدَث حمّامًا من الدم في بيتنا. قتَل كل الأطفال وقطَع رقابهم. والدي أيضًا لا أحب أن يراني، لا ينبغي أن يعرف أيَّ شيء عني. إني أراه، من تحتي، في داخل المقصورة، نائمًا فوق سرير المرض، وكم أخشى أن يتدحرج فيقع. فهو صغيرٌ جدًا وهشُّ البنية جدًا.

Twitter: @ketab_n

الانتقالاتُ ذهابًا وإيابًا بين فيينا وقريتي الأصلية تتحوّل إلى رحلات عبر الزمن. في شكل أسفارٍ عبر مختلفِ الأحداث التاريخية وأشكال تاريخية متنوعة، تقف الواحدة إلى جانب الأخرى. لا أكاد أقترب من قريتي حتى أحسَّ أني أسافر في الماضي، وما إن أبتعد عنها حتى تصير الساعات والأيام مسرعة أكثر فأكثر. أراني في هذا الذهاب والإيابِ كأني أُقذَفُ قذفًا عبر الزمان، كأني وقعتُ من المستقبل، أو وصلتُ بعد فوات الأوان.

منذ أن صرتُ طالبةً ونداءاتُ الغيث من والدي تتّخذ منعطفًا اجتماعيًا، بل وحتى سياسيًا. أشرع في التفكير بطريقةٍ جماعية. يقيني أنّ المواقف بالنسبة للماضي في هذا البلد هي التي تجعل قصصنا العائلية غريبة، وتجعلها تقع في مثل هذا الإهمال وفي مثل هذه العزلة. فهي شبه خاليةٍ من الصلات مع الحاضر. ما بين تاريخ النمسا على نحو ما هو معروف والتاريخ الفعلي تمتدّ منطقة محرّمة قابلة لأن نضيع فيها. أراني أذهبُ وأجيء بين قبوٍ معتم صغير ومنسيّ في منزلِ النمسا وبين مساحاتِه الواسعة المشرقة والمزينة بديكورات فاخرة. في هذه الغرف المضاءة لا أحد يشتبه أو يتخيّل أن في هذه البناية كائناتٍ أَغلَقت عليها السياسةُ قي قبوِ الماضي، حيث تلاحقهم ذكرياتهم، وتحبسهم فيه.

يدهشني أن أعثر في أنطولوجيا سلوفينية على قصيدتين كتبتْهما شقيقةُ جدي، كتاركا ميكلاف. نصوصٌ نجَت من معسكر الاعتقال. إني لمتأثرةٌ أيما تأثر. وكأن جنينًا من الذكريات المنسيّةِ حتى هذه الساعة تحرّك فجأة في قلب أفكاري. أشعرُ بالخوف من وجودي. أقرأ في الملاحظات أنّ كتاركا كتبت قبل وفاتها بثلاثة أيامٍ

Twitter: @ketab_n

بضعَ قصائد على قُصاصات من الورق وسلّمتها لشريكة في السجن من ايسنكابل، أنجيلا بسكيرنيك، التي ظنّت أنها ستحترِم الكلمة المكتوبة ومن ثم تقدّر قيمة هذه الأسطر. لكنْ بعد الحرب نسيت أنجيلا نشْر هذه القصائد في مجلة ثقافيةٍ سلوفينية. وهكذا تم الاحتفاظ بها. هكذا كُتِب.

بعد أن نشرتُ الكثيرَ في مجلات عديدة، سيصدُر لي قريبًا أوّلُ ديوانٍ شعري. لا أكاد أصدق: كتابٌ يجمع قصائدي السلوفينية في شيءٍ مجازفٍ يمكن أن يقدّم زخمًا جديدًا لوجودي كطالبة. آملُ أن يدفعني هذا لمزيدٍ من الوضوح ومزيدٍ من الدقة. قد يؤخّر هذا اختفاءَ اللغة السلوفينية في كارينثيا، أقول لنفسي في حماسة، ويثيرُ الوهمَ بأنّ لهذه اللغة وظيفةً لا تزال قائمة.

التفكيرُ في مسائلِ السياسة الثقافية أسهلُ بكثير عندي من استعمالي للَفْظِ «أنا» في ما أكتبه من نصوص شعرية. أناايَ لا يقول أنا. فهو يلعب فوق مسرحه هو. يُعبّر عن نفسه في لغاتٍ مشفّرة، ويختفي وراء ملابس قديمة وجديدة. يُجرّب بلا تمييز ثيابَ اللغة التي تعجبه، أو تبدو له نافعةً في البحث عن وجهه الحقيقي. يفتش في الأسقاطِ من الأشياءِ عن تفسيراتٍ ودلالات.

أتمرّنُ في صبرٍ ودأبٍ على الإصغاء إلى نغميّةِ أفكاري، وإلى التعرّف عليها من بين نغميّاتٍ عديدة أخرى. لا أكاد أتعرّف إليها حتى تختفي، لأنها ضعيفةٌ جدًا، لأنها تستغرق في كمّ من الأصوات الملتبسة، وفي الجهود من أجل جمْع معالمي المبعثرة.

لكنّ قناعتي بأنّي سمعتُ هذه النغمية تجعلني أتمسّك بها بشدّة. أبحث بلا انقطاع عن لقاءاتٍ جديدة معها، وأطمح إلى لقاءٍ نستطيع فيه أن نتوهّج بألف إلهام، وأن نجد فيه نغمًا مبهرًا نحطّ رحالنا فيه.

Twitter: @ketab_n

في خلال سنتي الدراسية الثالثة كتَب إليّ والدي واحدة من رسائله النادرة. تحياتي، ميكْ، أنا الآن وحدي في المنزل، ماما في العلاج. إذًا هو مَن يكتب إليّ الرسائل حتى يطمئنّ عليّ. والدي على غير ما يرام. يُرسل إليّ البريد الذي يصل إلى عنواني القديم، ويبعث المالَ أيضًا. أستطيع أن أنفقه كيفما شئت. ويُنهي الرسالةَ بهذه الجملة، تقبّلي تحيةَ مَن لا قيمة له، كأنه يشطب نفسَه بنفسه، وهو يوقّع هذه الرسالة.

في بداية الصيف يرافقني صديقٌ إلى البيت. فإذا بوالدي يستشيط غضبًا.

وما إن يغادر ذلك الصديق، وفيما تريني والدتي مسطحات حديقتها الجديدة إذ بوالدي يُعطل بابَ المدخل ويتركنا خارج البيت. يصرخ من نافذة المطبخ بأنه لن يترك بعد اليوم تلك المومس، العاهرة، وهي أنا، تضع قدميها في البيت. فأغتاظ غيظًا جمًّا وأهدّده بالشرطة إذا لم يسمح لنا بالدخول حالاً. وأصرخ فيه أنّ أبًا مثله لا حاجة لي به. إشتكيني إن شئتِ عند الشرطة، يصيح والدي. وإن لم يكن عندكِ شيءٌ آخر غير الشكوى فابقَي في الخارج إذًا، ومعك أمّك أيضًا.

إنه يغار كثيراً، تقول أمي، فلننتظرْ قليلاً، ثم نتسلّق نافذة المطبخ وندخل. أسأل نفسي إن كنتُ سأشعر أني صُدِمتُ أم أن الوضع ليس سيئًا جدًا حتى أحمله على محمل الجد. ويُسليني أن أرى نافذة المطبخ منفرجةً قليلاً. تُجيلني والدتي في الحديقة مرة أخرى، وعند عودتنا يظل البابُ مغلقًا. أعثر في مخزن الخشب على كرسيّ استدرارٍ صغير فأضعه تحت النافذة حتى نتخطي أحواض الزهور، ونصعدَ من فوق الحواف، وندخل إلى المطبخ.

أبي يجلس الآن في غرفة المعيشة على مقعد الموقد المنجّد، وينظر من النافذة

Twitter: @ketab_n

الجنوبية إلى سفح الوهدِ المقابل. أقتربُ منه.

هاتِ المفتاح، أقول. فيُلقي إليّ نظرة شزرٍ عاتبة

اغربي، اذهبي، هيا اذهبي إلى الشرطة.

أين المفتاح، أسأله بصوت حازم.

هنا، يقول وهو يلقي به على الأرض.

ألُمُّ المفتاحَ وأنظر إلى والدي جانبيًّا.

هيا، اختفِي، إذهبي إلى الشرطة.

في هذه اللحظة يغمرني غضبٌ وحشي متمرّد. لستُ أنا من تُعامَل هكذا، أقول لنفسي. إغراءٌ قوي يشدني إلى والدي فأداعب رأسه بيدي مرّتين. أداعب شعره كأني أخوض تجربة جديدة. يستسلم رأسُ والدي تحت راحتي. يسقط فوق صدره كأن عضلات رقبته أبت أن تشتغل فجأة. يبتلع تنهيدة، نعم، ميك، يقول، نعم، يا لها من حياة دنيئة !

للحظاتٍ أتصالح مع نفسي. أستطيع أن أبتسم، لكنّ الابتسام يستحيل فوق وجهي قناعًا من الغيظ، ومن السخط، ومن الرأفة. أبهذه السهولة أجعل والدي ينحني، أبهذه السهولة. لكنْ ثمة خطأ في الحساب، لستُ أنا من يُغيّر والدي.

في الليل أجدني واقفةً في حمَّام أمام مغسلة. أراني مكلّفةً بتجريع قُرصٍ لكل واحد من الرجال الذين يدخلون إلى الغرفة. يدخل رجالٌ أخال أني أعرفهم. ولكل واحد أقدّم قرصًا يأخذه قسرًا. وبعد قليلٍ تنتابُ الرجالَ تشنجاتٌ فيَمُوتون.

وبعد برهةٍ تستبدّ بي الشكوكُ حول هذه المهمة القاتلة. لا أريد بعد اليوم أن أشهد سكرات الموت هكذا. يقتربُ مني رجلٌ مجهول. إنه الرجل الذي كنت أنتظره. نتعانق ونسقط على الأرض. تنفتح نافذةٌ من فوق المغسلة. نِصفُ عائلتي تنظر من خلالها وتشير إلينا بالإصبع. أترك العناقَ وأدخل في زاوية، في قاعةِ قصرٍ نُصِبَت فيها طاولةُ حفلٍ كبيرة. والدي ووالدتي يجلسان عند نهاية الطاولة، ويدعواني للمأدبة.

Twitter: @ketab_n

تلالُ بلادي استحالت فخًّا يمسك بي وينغلق عليّ عند قدوم كل صيف. لم يعد يسعني أن أربط الصلاتِ بين حياتي ومسقطِ رأسي إلا قليلاً فقليلاً. أفكر في الكيفية التي أستطيع بها أن أهيّء دروبًا للنجدة، حتى أُخرِج خلسةً ثقتي من الوادي. ما زلتُ أحاول أن أجد عزاءً في المناظر الطبيعية، وأن أكتشف فيها مكانًا أستطيع العيش فيه من دون أن أكون مهدّدة. آمل، على مرّ فصولِ صيفٍ عدة، أن أنساب تحت جلده، لأكشف عن أسراره، وحتى لا أعود خالية الوفاض، وليس معي شيءٌ آخر سوى جلدي.

تُرى، كيف أعيد إلى نفسي مسرحَ طفولتي؟ كيف أجعل أشكالَه حاضرةً أمامي؟ هل أعود أولاً بذاكرتي إلى الوادي المقعّر لأرى أنه استحال دربًا في المنظر الطبيعي تؤدي كل المسارات والطرق فيه إلى نقطة ميتة؟ هل أجزم بأن الوادي صار مثل جوربٍ مفتوحٍ من أعلى وقد انحصر حصرًا بين التلالِ حتى يُبقيها بعيدةً بعضها عن البعض الآخر؟ هل ألاحظ أن كل السفوح تنحدر في قاعِ وادٍ قوامُه طريقٌ وساقية؟ وأن الوادي يحاول كسْب بعض العرْضِ من ضيقِ مساحته؟ بل وأنه ينجح هنا وهناك في ملءِ قطعةٍ مسطحة من المروج والحقول؟ لكن قريبًا ستضطر المروج لأن تتآلف مع تقلّص الوادي وتشدّ نفسَها إلى الانحدار الحادِّ الذي بات وشيكًا. كلُّ ما هو فسيحٌ تراجع في هذا المشهد.

ماءُ الساقية يوزّع نسمةً باردة. أوراقُ الأدينوستيل adénostyle الملساء تُروّح البردَ في المشهدِ الطبيعي: البردُ يصل إلى حدود المروج ويطفو فوق غابات الأشجار المورقة والأشجار الصمغية. وحيث تنتهي الغابة تتلألأ الصخرةُ تحت طبقةِ

Twitter: @ketab_n

رقيقة من الدبال، مثل عظام هيكلٍ جبلي ألقت به انهياراتٌ ثلجية إلى الهاوية. سقاواتٌ وعُقابُ تحوم من فوق الغابات. ومن حيث لا ندري تطفو هذه الطيور فُرادى من هدوء الغابة، وتحوم فوق الأودية المقعّرة، وترسُم دوائرَها قبل أن تتوارى نحو منحدرات غير مرئية. من النادر أن تهبط رأسًا لتنقضّ على فريسة. فهي لا تستعجل أمورها، لأنها على يقين من فرائسها، لقد شُدَّت إلى معاقلِها.

من على السفوح يُشيّد الرجالُ مزارعَهم في الأماكن المنبسطة. فما بين سفَحين يجدون أكثر من مرْج، في مساحة منبسطة يتسع فضاؤها لبناءاتٍ وبساتين عديدة. في أيام الربيع تبدو السفوح كأنها تتمرد ضد الرجال الذين يتنقّلون فوقها. ولكن في عزّ الصيفِ تنتشر أمام المزارع بُسُطٌ من النور والحرارة التي تمارِس قوةَ امتصاصٍ لا تقاوم، وتجذب إليها السكان جذبًا قويًا. نراهم، فرادَى أو زُمَرًا جالسين على العشب، أو أمام بيوتهم، ممدّدين عند حدود الحقول، تائهين تحت الشمس، منهَكين تحت رحمة الحر. يديرون رؤوسهم في كل اتجاهٍ ولا تقع عيونهم إلا على المرتفعات والغابات التي تحيط بهم، وعلى الألوان المتموّجة في حُفَر الوادي ونتوءاته. وفي الخريفُ البازغِ يجمّد المشهد برمته. تصعد فيه الرطوبة المألوفة من أعماق المنحدرات. وما من متطفلٍ فيه سوى أفواه المحاجر المهمَلة الفاغرة في قلب التلال، وقد غمرتها الأدغال. بعضها ما زال سالكًا، مختفيًا تحت أسقفِ من الصخور، وأقفاصٍ من الحجر.

أفكّر في جدتي التي تجيل كلَّ صباحٍ بصرَها في المشهد الطبيعي، وفي عيونِ والدي التي تنظر أوّلاً إلى السماء وتلاحظ موقع الشمس والقمر، قبل أن تحطّ على الأرض. كل يوم تحسُّ العيونُ نبضَ الطبيعة. واليوم جاء موعد الحصاد، أو الحرث، كما يقال، فالتربةُ اليوم ناضجةٌ والهواء حارٌّ بما فيه الكفاية، يقول والدي. أشكالُ السحب، ونور المساء وصياحُ البومة تنبئ بالنحس والشؤم، تقول جدتي. لمشهد

Twitter: @ketab_n

الطبيعة الخفيّ عند جدتي أسماؤه الخاصة: حقلُ القمح القديم، وحقلُ البطاطا المهمَل، وثقبُ شجرة الكستناء، وبِركة فرْخ السمك، وحجرُ الشمس، والصخرةُ التي تقطر، وفاهُ الشيطان، وقبّة الأرواح، وحقلُ الزئبق، ومنحدرُ القرنفل، ومرعى الأخيليا. للمروج والسفوح المتجهة نحو الشمس أسماءٌ متألقة، ولمقعرّات الأماكن الظليلة أسماءٌ غامضة لا تعرفها أي خريطة. دروبُ الغابة تمرّ بالقرب من الأماكن المحزنة. هنا تلقّى فِيتزْ ضربة قاضية من غصن إحدى الأشجار، تقول جدتي، وهناك ثلاثةُ رجالٍ أحرقتهم الصاقعة فوق فرجةِ الغابة، ليس بعيدًا عن الساقية، بالقرب من زانِ الموت. وهناك أيضًا الصبايا اللواتي يصرخن تحت منبع مزرعة بُوزيتْ، حيث الأمواتُ يتسكعون وهم يئنّون. والحفرةُ الهمجية حيث نجد رأسَ الموت.

مهما بلغتُ من جهدٍ حتى أقترب من مشهد والدي الطبيعي فسوف يظل مشهدُ طفولتي الطبيعي يخدعني ويضللني. سوف يغافلني ويفلت مني ويترك أسئلتي من دون إجابة. سوف يظل مغلقًا في وجهي. مسالكُ هذا المشهد ليست جميعها سوى أحبولةٍ على الطريق الذي يؤدي لغاية هذا المشهد. سوف يناقض بعضُها بعضَه الآخر، وسوف تنطلق في الاتجاه المعاكس، فيما يجب أن تؤدي نحو المركز. هذا الصقعُ لا يعرف خطًا مستقيمًا، ولن يكون سوى خطوط مائلة متداخلة، ونتوءات تنتظم حول قمةٍ أعلى. تلالٌ الوهد المشجرة سوف تتجلى بتشابكاتها المتناقضة، وسوف تخلف قانونَ الجهات الأربع. ما كدتُ أظن أني أخذتُ الطريقَ الصحيح حتى وجدتُني تائهة. عليّ أن أصعد فوق التلال لكي أرى من على قمّتها طرُق تَيَهاني الذي لا ينتهي. وفي الأعلى تحت السماء الصافية أستطيع أن أفكَّ متاهةَ الأعماق من تحتي. وسأفهم أنّ المشهد يتوارى ولا يريد أن يفكّه أحد. وأنه يلتهم من لا صبرَ لهم ويلفظهم قبل أن يهضمهم، أي الذين ينتظرون رعاية ورقة من قِبَله.

Twitter: @ketab_n

أحياناً بعد سيرٍ طويلٍ عبر الغابة الوعِرة الكثيفة يملؤني الصقعُ بمناظر غير منتظرة، تجعل المنطقة أنيسةً ورفيقة. فتصبح السفوح الوعرة أكثر رقة، وتصير الزوايا مدوّرة وأقل حدّة. شاسعةٌ متناهية تلتهم بصري وتجعله يجول فوق الأودية الضيقة، ويعبُر من دون وزنٍ ولا دوّار المنحدرات العميقة. فمن مثل هذه الأماكن وليس من الغرب، أستطيع أن أرى واجهة كوسوتا الصخرية القاسية، في المكان الذي يلتقي فيه الوادي بالأرض المنبسطة. بياضُ الجبل هو الذي يفرض نفسه وقتًا أطولَ أمام درجات اللون الأزرق المخضرّ الأكثر قتامة في السهل الذي بدأ يظهر. البحرُ سينعكس في السماء الزرقاء عند الجنوب، كأن قبّة السماء تنظر بعينِ الأدرياتكي وتغمض الثانية على الأودية الضيقة.

ما إن أغادر الصقعَ حتى تغمر أنظاري نباتاتٌ وأعشابٌ حادة، وتغزوها الأدغال، إلى أن تتعب في النهاية من فرط النظر بلا انقطاع نحو السماء، نقطة وجهتها الوحيدة. وبعد رحيلي أحسني مثل زائرةٍ أخرجتْها الطبيعةُ من دائرتها بعد حفلٍ سخيّ، والتي ترحل على مضضٍ لأن المشهد الوفير يظل يلاحقها.

باطنُ المشهد الطبيعي، ظلّه المعتم سيصير ملاذي، المكانَ الليلي الذي سيغمر ويلتَهِم كلّ الأماكن التي تطؤها قدمي، الشوارع والمدن والقطارات والحافلات، والطائرات. سوف يُكوّم كل هذه في داخله ويقذف بها نحو النسيان. بناياتٌ سوف تنمو في قلب المروج وتصعد لغاية السماء. ومسارحُ سوف تُشيّد عند الجبل وتُحاط بالغابات. والبحرُ سوف يقترب من بيتي ويعكف في الأعماق. والسماء سوف تصبح سقفًا جرّارًا، وليالي كثيرة سوف تغادر الظلام لترتفع فوق قبّتها الزرقاء.

المشهد الطبيعي الذي أجد فيه ملاذي في تلك الصائفة سيتألق بألوانٍ فاقعة. ففيه سيلمع الهواءُ ويتدفّق النور على التلال. وستُصوَّبُ عيوني نحو السهل بقوة

Twitter: @ketab_n

عيون الصقر. وسأكتشف الصقعَ بفيضِ حرِّ فروة رأسي، وأسبر المنطقة بلواقط خفية. وستأتي مجموعة من الرجال وتذرع الهضبة. سيذهبون إلى الجبل حيث يمرّ القطار الذي سيقودهم إلى أماكن العمل، أو إلى المدينة التي تملأ بدويّها أعماقَ الجبل. ومع أخي، من أمام باب المنزل سأركب في عربة الترام وأسافر إلى فرنسا. وفي مقعّر الوادي، من خلف المنزل سأصعد العربة مرة أخرى، وأعرّف نفسي لكل الركاب المسافرين. وسيحل المساءُ عندما نصل إلى بروفانسيا، ونلِج أحدَ الأبراج. وفي الخارج ستتموّج حقول القمح الذهبية، ويغطي العشبُ الفاتح المرتفعات. وستكون السماء أرجوانية، أقرب إلى اللون الأسود المخملي. تُرى، لماذا يشِعّ حقلُ القمح؟

Twitter: @ketab_n

شقيقة جدي، ليني، سجّلت على شريطٍ ممغنطٍ ذكرياتها منذ أيام عملها مع أنصار المقاومة. يصدُر التسجيلُ في شكل كتابٍ مترجم إلى الألمانية. وسيُعرض في فيينا على وزارة شؤون المرأة. وهذه بالنسبة لعائلتي فرصةٌ نادرة لكي تزور إلى العاصمة. يقرر والدي أن يرافق بناتِ وأبناءَ عمومته. إنها المرّة الأولى التي يرى فيها العاصمة. وعليّ أن أذهب للقائه أمام محكمة فيينا، لأن الجماعة يرغبون بعد عرْض الكتاب في زيارة مكانِ تنفيذ الإعدام في ضحايا زيلْ فارْ الثلاثة عشر الأوائل، وضحايا وأودية إيسنكابل، الذين حَكم عليهم بالإعدام رئيسُ محكمة الشعب، فريشلَرْ، شخصيًا.

عند نزولي من عربةِ الترام في لاندجيريستارس ألمحُ أمام مدخل المحكمة المهيبةِ جماعةً صغيرةً في انتظاري. فألوّحُ لها بيدي، فتسارع لقطع مفترق الطرق. لكنّ والدي، ما إنْ ينتقِل ضوءُ إشارة المشاةِ إلى الأحمر حتى يتوقف طوعًا في وسط الشارع بمسارِبة العديدة، فلا يسعه أن يتقدم أو أن يتراجع. وتصل السياراتُ وتزمّر له وتكاد تلمسه. فأسرع إليه حتى أغيثه.

يرتعد والدي عندما أمسكُ بيده. تعالَ بسرعة، أقول.

لا أستطيع، يقول مبتسمًا. ولا يخرج من جموده قبل أن تنتقل الإشارةُ إلى الضوء الأخضر. لستُ مهيّأً لِفيينا، يقول وهو يقف متنهدًا على الرصيف، وسريعًا كلُّ شيءٍ يسير بسلام. لماذا لم يقطع الشارع، يسأل ميشي، فيهزّ والدي كتفيه، وهو يمسكُ بيده اليمنى صفيحةً من البلاستيك الأبيض.

أسأله ما الذي يجرّه معه. إنه خمرُ التفاح، يقول والدي. لهذه المناسبة جلب والدي معه عشرةَ لترات من خمر التفاح، وها هي ذي الساعات تمرّ وهو يجر هذه

Twitter: @ketab_n

الصفيحة بلا أي طائل، وفوق ذلك كله لا يرغب في أن يضعها في أي مكان كان.

أقترحُ أن نرافق العائلة لغاية الجادة، إلى الرينج، ثم أذهب مع والدي إلى وسط المدينة حتى أُعرّفه على ستيفندوم وميخائيل بلاس، حيث معهد الدراسات المسرحية.

نمرّ متلكّئين أمام بناية المعهد، سائرين في اتجاه الجامعة. وبيَدي الممدّدة أصفُ مسارَ الجادة الدائري، وأشير إلى البرلمان، وبلدية فيينا، وإلى «بورج»، وأنا أقول له أنظرْ، هذا المسرح. إني أتردّد عليه كثيراً. جيد، جيد، يقول ميشي، لكنّ والدي يظنّ أن لا أحد يستطيع يومًا أن يجرّه إلى بيتٍ مهيبٍ كهذا. لا، لو أعطوني مال الدنيا فلن يجرّني أحد إلى داخل هذا المبنى. في اليوم الذي سأناقشُ فيه أطروحتي لا بد من أن تدخل إلى بناية الجامعة الباذخ المترف، أقول. لا، يردّ والدي. سينتظر هنا، مع الجرّار خارج المبنى. ونضحك ونتفق على اللقاء أمام الأوبرا.

أستأنفُ السيرَ وحدي مع والدي. في ساحة الأبطال يتوقف تحت نُصب الدوق شارل التذكاري، ويعتدل في وقفتِه قليلاً، كما لو كان يريد أن تترك عيناه ظلَّ جبينِه لكي تلتفتا إلى النور. في بدلته القديمة الرمادية الخضراء نخاله شخصًا وَجدَ نفسه بالخطأ في قلب المدينة. ربطةُ عنقه البنيّة لافتةٌ برسومها الخضراء البرتقالية. طوقُ قميصه الأبيض يتبرّم فيكشف عن نتوء بارز. أحاول بهدوءٍ أن أصحّحه، لكن النتوء يرتفع على الفور مرة أخرى. ما زال والدي يحتفظ بسروالِه الأوسع منه كثيراً بحزامٍ يرسم ثنياتٍ عند الوركين. منذ فترة طويلة وقفصُه الصدري الهزيل لم يعد يملأ أيّ سُترة. شعرُه قصير، ولكنه ينمو في قفاه بسرعة. أجد نفسي أُحمّل أمي المسؤولة عمّا هو خطأٌ في هندام والدي. كيف سمحتْ له بالذهاب هكذا، أقول لنفسي، وفي ذات الوقت أعتقد أني سأتوقف عن أملي في أن ترعاه أمي مثل صبيّ صغير. لا يخطر لوالدي أبدًا شراءُ شيءٍ جديد. حتى لو طُلب منه أن يجرّب ملابس في متجرٍ فسيجد ذلك كثيراً عليه. عيونُ البائعات تُربكه وتُحرجه كثيراً، ولذا لا يمكن أن نفرض عليه شيئًا كهذا. يشعر كأنه بلا مقاومة، وأن من يلاحظه يعيده إلى

Twitter: @ketab_n

نفسِه وإلى هيئته التي يرثى لها، كما يقول. يساورني القلق أن أرى كم يتيه والدي في المدينة. من السهل ألا نراه، أفكّر، لكنْ يكفي أن نوجّه له كلامًا ليشعر أنه مسؤول عن نفسه، وليتأكد، بدافع الغريزة، أنه لن يخطئ طريقَه.

تحت قبّةِ جناح سانت ميشال، أصعدُ في فخرٍ الأدراجَ المؤدية إلى معهد الدراسات المسرحية. أقول له إني أدرس هنا مادةً إمبريالية، فيجيب، إمبريالية فوق كومةِ الزبل، نعم، وعلى زاوية شفتيه ابتسامة. ننحدر نحو كولمارك وغْرابَنْ لغاية ستيفانسدوم. يُعجَب والدي أيما إعجابٍ ويظهَر هذا عليه واضحًا جليًا. يسأل متى شُيّدت الكنيسة فأعطيه بعض الأرقام. يا لها من كنيسة مهيبة، يقول وهو يجلس فوق مقعدٍ أمام مذبح العذراء في الجناح الجانبي من الكنيسة. أجول في أنحاء الكنيسة. وعند عودتي أجد والدي في انتظاري عند مخرجها. هيا بنا، يقول. يريد أن يشرب شيئًا. إزدحامُ الناس في ستيفانبلاز يزعجه كثيراً. يبحث عن مكان أكثر هدوءً، ونعثر في غْرابَنْ على مقهى صغير بطاولات عالية، يبدو أنه لم يُرهبه كثيراً. ويطلب وهو واقفٌ إلى الطاولة سبريتزر بالخمر الأبيض، ثم يُسقط سترتَه. وما إن يحتسي الجرعة الأولى حتى يشمّر عن أكوام قميصه، ويفتش عن سجائره. أتريدين سيجارة أنت أيضًا. فجأة أذكر الصفيحة وأسأله أين تركها. إلى جانب مذبح العذراء. فكرّتُ أن لعل العذراء القدسية ترغب في اكتشاف طعم خمرَ التفاح، يقول مُبتسمًا.

أريد سيجارة. ناولْني واحدة، ويُشعل لي والدي السيجارة الأولى. منذ متى وأنتِ تدخّنين، يسألني. منذ الآن، وأنا كاذبة، وأفكر في الحال في الصفيحة التي تركها في ستيفانسدوم. يقوم والدي بحركةٍ سريعة نحوي فيقع على سرواله الرمادُ الذي نسي أن يضعه في منفضة السجائر. فإذا بي ألمح أنّ السروال مرتّقٌ في بقعةٍ فيه، وقبل أن تثور أعصابي ثانية أسارع فأقول له إنّ هذا السروال المرتّق ليس مُهِمًّا كثيراً، وأقول لنفسي يجب أن ينصبّ اهتمامي على ما هو أهمّ، على هذه الفسحة في فيينا مع والدي. يروي والدي أن وزيرة الدولة لشؤون المرأة استقبلتهم بحفاوة كبيرة وأنها ألقت خطابًا

Twitter: @ketab_n

منبريًا قويًا. إنها شجاعة، يقول، ما كان ذلك يمكن لو كان في كارينثيا. أسأله إن هو تصفح الكتاب، وأنا أعلم علم اليقين أنه لا يقرأ الكتب. حتى ديواني الشعري وضعه في الرفّ من دون أن يفتحه. أجل، أجل، يقول، ففي داخلة صورة من صوره، ولكن الكتاب، لا. لكم تحدّثت ليني عنه أمامه، لكنه لن يقرأه. الكتب لا تروي الحقيقة دائمًا، يقول، إنها تروي قصصًا مختلقة. بينما لا يهمه هو إلا الحقيقة. ما حدث حقيقةً وحقًا.

يطلب سبريتزر آخرين وبينما يأتيه النادل بالمشروب إذا به يستقيم وهو يبتسم أمام الطاولة العالية، ويضع في رشاقةٍ إحدى يديه على وركِه ويمسك السيجارة باليد الثانية. في لحظة عابرة كلُّ شيء يبدو ممكنًا.

يروي والدي أن أشجار الكتش تدر ثمارًا كثيرة، ويأمل في أن يستخلص منها مشروبًا روحيًا طيبًا. لقد فكر منذ الآن في تدبير زجاجات جميلة لأجود كحولٍ، حتى يبيعه، لكنه لم يقرر بعد. ويروي أيضًا أنه اشترى بعض الخرفان، لأنه يفكر في الاحتفاظ ببقرتين اثنتين فقط. فكل الباقي لا يستأهل جهده، الكثير من العمل والكثير من التعقيدات. لا يسعه أن يفسر كيف ينكسر صلبه إلى هذا الحد ومع ذلك يكاد ينقطِع سبيل عيشه. كل شيء يذهب مع التيار، يقول، وهو يبتسم. يعقد ساعديه ويدع السيجارة التي يمسك بها بالقرب من عنقه تحترق بين أصابعه. عندئذ يخطر له أنّ شقيقَه تونسي يذكر أنه رأى في تلك الفترة جوريج تافيمان في ساحة السوق في إيسنكابل، بعد اعتقاله، وقبل أن يقتاد إلى كلاجنفورت، ثم إلى فيينا، إلى المحكمة لكي يُقطَع رأسُه. كانت الشرطة قد أخرجته للتو من السجن لسحبه إلى الشارع. كان يرتدي قميصًا أبيض بياقةٍ مفتوحة، وقد أوحَى للناس الذين يحيطون به أنه سيُقتَل. وجميعُهم تأثّروا حتى النخاع. ففي تلك اللحظات أحس الناس أن ليس بالإمكان الرجوع إلى الوراء، يقول والدي.

أستطيع أن أقصّ شعرك عندما أعودك في البيت، أقول في عجل.

لكنْ فقط إنْ رغبتُ أنا، يجيب والدي وهو ينظر في أناةٍ إلى المارة الذين

Twitter: @ketab_n

يتقاطرون أمام واجهات المحال. لا أراه يستعجل رؤية العائلة.

هل تعجبكِ، فيينا، يريد أن يعرف فجأة. نعم، أقول، من دون أن أعرف إن كنتُ سأشرع في سردِ حكاياتي عنها. فقط أوحِي بأني بلا شك على وشك أن أغادرها. أهَا، يقول والدي. لا بد من الذهاب، أليس كذلك؟ هيا بنا، أقول وأنا أناوله سترته.

أثناء الليل يروي والدي كيف استحال رأسُه إلى فرنٍ انصهاري. تطهُو آلامَ رأسهِ إلى أن تُميّعَها. ولكنْ ليس بالحرارة، وإنما بصبرٍ بارد. لقد وضعوا ما يشبه الغطاءَ فوق رأسه، مثل جمجمة ثانية تنزلق فوق الأولى، وقد ثُبّتتْ في أسفل الصُّدغين بواسطة لصقةٍ مشمّعة. أسأل نفسي إن كنتُ سأقول ملاحظةً لوالدي فيما يخص رأسه المزدوجة، فيدير نحوي رأسه المألوفة. إياكِ أن تقولي شيئاً، أقول لنفسي، حتى لا أحيّر بالَه، وإلا سيقط رأسُه، ولن يعيش بعدَه.

في الليلة الثانية يصاب والدي بأزمة اختناق، فيقول إنّ الهواء قد انحبس في دماغه. وأنه يفتقد إلى الأكسجين. أمدّده على جنبه فوق الأرض وأمرّر يدي حتى صدعه. وفي هذيان ما قبل النوم أرى من فوق إحدى زوايا دماغ والدي الألمَ الذي بدأ يلمع ويتغير لونُه شيئًا فشيئًا. بلوراتُ الألم تستقر على طول أخاديد الدماغ وتشكل رغوةً مؤلمة، وتصمّم على مهاجمة كل الخلايا العصبية في جسمه. وعند درجة الغليان يبلغ الألمُ ذروته الأخيرة ثم يهدأ. وفيما بعدُ عندما يشتدّ لونُ الألم أنزعُه من النسيج الخلوي. فهذا ما أفكر به أو أحلم به. ثم أحكُّ دماغ والدي لأزيل بلّورَ الدم المختّر، والإسفنج النحاسي.

Twitter: @ketab_n

وداعُ فيينا يأتي مباغتًا عنيفًا. مع اقتراب انتهاء نقودي أقرّر أن أواصل كتابَة أطروحتي في كارينثيا. وعند عودتي أرتّب في علية بيت أهلي الأطباقَ والأواني القليلة التي اشتريتها، على أمل أن أستخدمها قريبًا في مكان آخر. فخُّ الوادي ينغلق مرّة أخرى.

مع عودتي إلى كارينثيا تواصل والدتي مشروعَها. تعتقد أن الوقت قد حان لكي أحمِل مسؤولية الأسرة. فهي تستطيع أن ترحل إلى كلاغنفورت وأن تبدأ حياةً جديدة. لقد قاومتْ فترةً طويلة في حياتها الزوجية، والآن كفَى! وكعادتها تصف لي بتفاصيلها القوية أزمات والدي، فأتصور كأنها تقصد من هنا أن تشرح لي مرّة أخرى الأسباب التي تدفعها إلى الرحيل عنا. تقول إني حُظيتُ بفرصة الذهاب إلى المدرسة، ولذا يجب أن أكون مهيأةً لأن أدفع الثمن حالاً. هكذا تفكر. ما إن يخلو لنا الجوُّ حتى تقترب مني، آلهةً مُنتقِمة، يملؤها الحزنُ والكآبة. منذ سنوات لم أر في مناماتي سوى الأفاعي، تقول، حيثما أنظرُ لا أرى سوى الثعابين والأفاعي. تطاردني وتضايقني. لقد بنَتْ أعشاشًا في داخلي. لم أعد قادرة على التخلص من السموم التي يصبّها زوجي من فوقي. فحتى أستسلم تُلقي عليّ والدتي يأسَها ومرارتها وغضبها كاملة. أظن أني أتلمّس في خططها هجومًا ضدي. في الليل أنتفض في السرير فجأة في قبضة مشاعر تدّعي أنها ناضجة، فيما هي تتصرف مثل طفلٍ صغير ينشد الاهتمام والعناية. إنها معارك الظل. أشباحُ الحساء الكوني تهاجمني. لم أعد أعرف ما الذي أحاول أن أبعده عني، أحسني مهدَّدة، ولا أدري ما الذي أفعله بانفعالاتي. تُرى، كيف وسعني أن أصل إلى هنا؟ لماذا ترى فيّ والدتي خصمًا وغريمًا؟

Twitter: @ketab_n

عندما كنتُ طفلة، كانت أمي كثيرةَ التوقّد والحماسة، عصبيةً ومنفعلة قليلاً أحيانًا، حتى وإن تمكّنت من إخفاء ارتجافها الداخلي الذي كان على صلةٍ مع والدي وجدتي. أحيانًا كنت أسمعها تشهق، وفي كثير من الأحيان أسمعها تغني، فكان صوتُها، القريبُ والبعيدُ، مثل صوتي، فأخال أن الشهيق والغناء يصعدان مني، وأن والدتي تتحدث بجسمي. مشاعرُها كانت سرّي. وعندما التحقتُ بالمدرسة جفَّ بَوْحُها ومُناجاتها العاطفية، ودموعها أيضًا. انزوَت في عملها، وفي أفكارها الخاصة التي بلغت ذروتها في قناعتها أن لا مفر من أن تتحمل مصيرها كأنه وصمة. في أحد الأيام قالت لي أن أمّ الربِّ حذّرتها قبل أن تتزوج والدي. ففيما كانت تصلي لاحظتْ أن تمثالَ العذراء يبكي. ومن تلك اللحظة استشعرت أنها ارتكبت خطأً، ولكن لم يسعها التراجع عنه بعد أن فات الأوان. يبدو أن أمي ترتاح كثيراً مع تاريخ الشهداء وسيرة القديسين الموصومين بجراحهم. شهوانيتُها التي تحاول قمعها تشقّ طريقها الخاص حتى تبلغ السطح. من عادتها أن تتضاحك بصوتٍ عالٍ وبشكلٍ غير لائق، وبصوت ثاقبٍ تقريبًا لما تُنشد في الكنيسة، وأن تسعل بصوتٍ مفزع. أنا لا أحتمل منها أن تتصرف في العلن بفتور واسترخاء في الوقت الذي تطلب منا أن نلتزم الانضباط والرصانة. ففي عطل نهاية الأسبوع التي أقضيها في المنزل في سنوات دراستي، أفتح خزاناتها حتى أغرق في الأرائج العطرة التي نزفرها ملابسها. ألمس ملابسها وجواربها اللصوقة، وأفحص مفارش المائدة والمناديل المطرزة التي تحتفظ بها في أدراج صوانٍ منا تحتفظ أميرة فلو ديبين بكنوزها السرية. أتحايل عليها حتى تعترف، لكن كلما حدثتها تقول إن عملاً منجزاً تكفيه مكافأته ولا جاجه له لأن نؤكده تأكيدًا خاصًا. وأحياناً عندما نصيح حول هذا الأمر تغلق مناقشتنا وهي تقول إنها لا ترى ما الذي يدعوها لأن تكون أكثر عاطفيةً مع أطفالها، فيما لا أحد في هذا المنزل يُظهر لها المودة والاهتمام. وما إن أدركتُ أنّ صلابة أمي المفرطة ليس لها من سبب سوى والدي لم أعد أزعجها بقصصي. فحتى وإن تراسلنا مرة في الشهر أثناء سنواتي في المدرسة وقصّتْ لي ما تفعله وما يطرأ من

Twitter: @ketab_n

جديد في البيت فلم تصرْ علاقتنا أكثر ودًا، لأن أمي في قرارها تغار من حريتي، تُغبطها وتحسدها، وتتهمني بأني جد متعاطفة مع والدي، فتكفّ عن السؤال عني.

بعد أن غادرتُ إلى فيينا، أهملتْ أمي حكاياتِ الرعب الكاثوليكية وبدأت تقرأ كتب الأدب. صارت تقرأ الروايات التاريخية، وقصصَ الرحلات، وكتبًا عن الحرب العالمية الثانية، ولكن صارت تقرأ أيضاً تولستوي، وفلوبير، وليبوس وهاندكه. إني أحاول الآن الأدبَ الحديث، كتبتْ يومًا في رسالتها، وهذا لغزٌ بالنسبة لي، ولكنها محاولة مني على الأقل. لم يسعها أن تذهب إلى المدرسة، ولكن كل هذا كان يستهويها، كتبتْ في رسالتها. بدأتْ تكتب القصائد من قريحتها، وأثناء الأعيادِ تمرّر لي نصوصها الشعرية كي أصحّحها. ففي رأيها يجب في هذه الحياة أن نشدَّ العزمَ ونسردَ القصص التي تنتهي نهايةً سعيدة، وتحتل الأخلاقُ المقدمة الأولى فيها، وإلا إلى أين نذهب، إذا لم نرشد الناسَ إلى الطريق الذي يجب السير فيه.

في حياتي جدتي قلما كان يسع والدتي أن تُحادِثها في أي شيء. فتظل جالسةً إلى جانب من يتجاذبن أطراف الحديث، ولا أحد يطلب منها أيّ شيء. قصةُ عائلتها لم تكن سوى كمّ لا يُذكر، فلم تتعرض والدتها، كما يقال، لأي مكروهٍ أثناء الحرب. فبعد أن سقَط زوجها في الجبهة كان عليها أن تربّي أطفالها فعمِلَت بالمياومة. بالتأكيد، لكن لم يكن هذا شيئًا خارقًا. ففي المدرسة الدينية التي تابعتْ أمي فيها دروسًا في التدبير المنزلي لمدة عام لقّنوها أنه ينبغي قراءة النصوص العفيفة والتقية، وتفادي كتب المؤلفين المنحطين. فمثل هذه القراءة قد تُفسد الفتاة، هكذا كانوا يقولون. كان عليها أن تمتنع عن قراءة الأسبوعية السلوفينية «سلوفينسكي فيستنيك» المرفوضة من قبل الكنيسة الكاثوليكية، لأنها تُفخّم تقاليد أنصار المقاومة. فتاةٌ كارينثية سلوفينية خليقٌ بها أن ترتدي وشاحًا ما استطاعت لذلك سبيلاً، وألا تشاهد الأفلام التي يمثل فيها إيرول فلين. قليلٌ هنّ الفتيات اللواتي التزمن بهذه التعاليم، لكنّ والدتي أرادت أن تصنع بحياتها نموذجًا للوجود الكاثوليكي.

Twitter: @ketab_n

منذ البداية بدا كلُّ شيءٍ منحرفًا. لقد بقيت عفيفةً، بالتأكيد، ولكن ليس لفترة طويلة. لقد تشبّثت بالقاعدة التي لقّنوها إياها، وهو الزواج بأوّل رجل يقترب منها. بيد أن حقيقة الزواج لم تكن في مستوى آمالها. فحتى الأطفال، ما إن تجاوزوا سنّ الرضّع إلا قليلا حتى بدأوا يركبون رؤوسهم، وهو ما كان يُغضِبها ويذهبُ بأوهامها. كانت تحترم قواعد التقتير وحُسن التدبير ولم يكن يهمها كثيراً أن تظل بعيدة عن الموضة. ولما لم نكن نملك مالاً كافيًا لشراء سيارةٍ، ولما كانت أمي ترى في كل الأحوال ترى أنّ أيّ سيارة سريعة خطرٌ على والدي، فقد اكتفت بشراء دراجةٍ بمحرّكٍ، تستخدمها للذهاب إلى الكنيسة، وفي التسوق وفي زياراتها وتجوالها. وهكذا صارت هيَ ودرّاجتها لا تفترقان، فصرت أخال أحيانًا، حين أراها وهي تنزل منها، أنها صارت وهي تسير بها، كأنها تلاحق شبابها الذي ضاع منها. فتلمَع عيناها ولا تطمح يداها القويتان الذاويتات إلا في النشاط والحركة. كانت توحي بأنها شابةٌ جسورة، لا يعني أطفالُها في عينيها سوى كائنات مزعجة، ولا يعني زوجُها سوى رجلٍ فاشل لا معنى له.

والدتي مصمّمةٌ منذ الآن على أن تخوض معي آخر معاركها، لأنها تشعر عن غيرِ وعيٍ منها أني حائرةٌ متردّدة. فهي تراهن بكلّ شيء على ورقةِ الأمومة ولكنها تخسر في كل مرّة، لأنها في الواقع لا ترغب، أيّا كان الثمنُ، في أن تكون ميّالة للثأر وحقودة. وقد عدَلت عن مشروع استقرارها في كلاغنفورت، وتحمّلني المسؤولية. يجب أن أعي، تقول، بأنها إذا حُكم عليها بأن تعيش في البؤس فبِسببي أنا، وليس بسبب أحد سواي.

على خلافِ والدتي، لا يخفي والدي تعاطفه معي وانجذابه لي. فعندما ألتقيه والصحبةُ معه، بعد أن يكون، كما يقال، قد شرب أكثر مما يحقّ له، أراه يقول لي بصوتٍ عالٍ، وكأنه لا يخاطب شخصًا بعينِه تقريبًا، حتى يسمعه الجميع، هذه لي،

Twitter: @ketab_n

وهي قريبة إلى قلبي ! منذ رحلتنا في الجرّار في ليلة الشتاء الباردة، أصبحتِ التحيةُ الهتلرية بالنسبة له طريقتَنا السرية، الحميمية تقريبًا، نقولها للترحيب. وعندما يكون رائقَ المزاج يحيّيني بـ هايلْ هتلر، ويفرَح مثل الأطفال بنظراتِ الحاضرين له. ويدعني أقصّ شعرَه، وعندما يجد أن الوقت قد حان يجلسُ أمام باب المنزل على كرسي، وعلى كتفيه منشفة. ويبتسم فرحًا عندما أمسكُ بين أصابعي بشعره الرفيع.

صارت لحظاتُ الإنهاكِ عنده صارخةً أكثر فأكثر . فمنذ أن كاد يفقِد عينه اليسرى في حادثٍ أثناء العمل في الغابة، صار كثيرَ التعرّضِ للجروح والضرر. فقد حُزَّتْ سبابتُه بالمنشار، وتلقى ضربةَ فأسٍ في الساقِ. يريد أن يحتفظ بوتيرة عملِه المرن المحموم، ولكنْ يؤلمه أنه لم يعد يملك لا القوة ولا القدرة اللازمتين للتحمّل. لقد عثروا على انتفاخٍ في رئتِه، وهو ما رفض الاعتراف بِه، لأنه لا يريد الإقلاع عن التدخين. التدخينُ في ظنه هو إكسير الحياة، يقول. فقد صار الآن يشعر أحيانًا بما كان يشعر به في سابقِ أيامه في الغابة لما يشتدّ به الجوع والإنهاك بعد هروبه إليها لأيامٍ عديدة، فيسعفه المقاتلون بأوراقٍ مجفّفة كي يدخّنها. فذاك وحده هو الذي كانَ يعيد إليه توازنَه. ولذا فلن يسمح بأن يُحرَم من سجائره. تنازلُه الوحيد للمرضِ أنه قرّر تدخين السجائر المرشحة. فهذا في ظنه هو الذي سيبُطئ مجري المرضِ عنده.

الحرب تغزو فضائي الليلي.

شاحناتٌ ضخمة تجوب في دورياتٍ الطريقَ الذي يؤدي إلى بيتنا. وسياراتُ الطوارئ التي تتحرك ذهابًا وإيابًا، وصفاراتُ الإنذار المدوية، بين مستشفىً بعيدٍ وميدانِ المعركة غير المرئية. اختفَي المنزلُ الذي يقع فوق الهضبة. وها أنا ذا بلا مأوى، أتسكع في أرضِ طفولتي التي أُبعِدتُ إليها.

Twitter: @ketab_n

خلال النهارِ أتشبث في عنادٍ بأبياتي الشعرية، وعباراتِ أعمالي العلمية.

وفي الليل أذهب على متن سفينةٍ شراعية أبحث عن والدتي في ليبينا، حيث تتلقّى العلاج. البحرُ هائجٌ وخطير. وعندما ترسو سفينتنا أرى والدتي التي تنتظر جالسةً على عرشٍ ذهبي مُزيّن بالأحجار الكريمة. تستبد بها الحُمّى. لقد ساءت حالتُها. ويشغلني حالُها كثيراً.

Twitter: @ketab_n

خلال السنة التي وُصِفت بذكرى ضمّ النمسا إلى «الرايخ الثالث» قبل خمسين عامًا، تتذكّر النمسا الرسمية وعودَها وتدفع تعويضًا عن الضررِ بمبلغ خمسة آلاف شلن، لضحايا الاشتراكية القومية، الذين ما زالوا إلى الآن أحياءً يرزَقون.

بمناسبة زيارة قام بها إلى والدي، لفتَ بيترْ، ابنُ عمه، اهتمامَه إلى هذه المنحة. وطلب منه أن يدرك أنه كان ضحية النازيين أيضًا.

ماذا يعني ضحية، يقول أبي، وكأن أحدًا ألقَى عليه عند سماعِ هذه الكلمة، حبةَ بطاطا ساخنة فأراد أن يتخلص منها على وجه السرعة. لقد شبِع من هذا السيرك، يقول. ففي تلك الأثناء ذهب بعد الحرب، بضع مرات مع والدته إلى كلاغنفورت، ليُعلن أمام المحكمة أنّ الشرطةَ عذّبته وأساءت إليه. كان صاحبُ الضرباتِ جالسًا أمامه، وقد سُئِل إن كان يعرفه، فنظر إليه الشرطي، لكنّ والدي لم يقل شيئًا. لماذا تصرّف هكذا، إنه لا يعرف السبب. فقط لم يستطع أن يقول كلمةً واحدة. فليأخذْه الشيطان، أنا لن أقول شيئًا.

أنظرُ إلى والدي، منذهلة. ما الذي كان يمكن أن يفيدني به هذا، يقول، حتى يخفي التباسه وارتباكه.

عندما يتسلم والدي التحويلَ مع المنحة ينتهز لحظةً وجودنا بمفردنا في المطبخ ليهمس لي أنّ هذا المال يريد أن ينفقه على نفسه وحده. ما الفائدة بعد كل هذه المعاناة؟ ليترُك هذا المالَ لأمي لتنفقه على المنزل؟ وما دمتُ قد حصلتُ الآن على رخصةِ القيادة فهو يريد أن آخذه بسيارةِ أخي إلى طبيبِ الأسنان في برفالج، حتى يُصلح طقْم أسنانه.

Twitter: @ketab_n

ذات يوم من أيام أواخِر شهر آب أذهب مع والدي إلى سلوفينيا. في جنوب وادي جُون تصطف على حواف الطرق حقولٌ واسعة من الذرة وعباد الشمس، شديدة النضجِ، سوداء اللون. وفي البساتين بدأت حبات التفاح الأولى تتعفّن عند سيقان الأشجار. ومن فوق الفواكه المتناثرة ترقص الزنابيرُ رقصاتها البرية الصاخبة. وعلى مقعد الراكب يتمطّى والدي ويتطلع إلى منظر الطبيعة. عيناه تجسُّ الحقولَ وكأنه ينتظر من الفواكه والشجر، ومن الغطاء النباتي أن تعطيه إشاراتها عن عمر الخريف، أو قساوة الشتاء.

نعبر الحدود عند بليبورغ، وعبْر يوبليانا نصل إلى بريفالج.

عند طبيب الأسنان نصادف شخصَين من سكان بلدتنا، جاءا حتى يستفيدا من تعريفة العلاج المناسبة. يقول والدي إنه يفضل أن يكون طبيبُ الأسنان الذي يشوّه فمَه سلوفينيًا بدلا من طبيب أسنان كارينثي، لأن السلوفينيين أقلّ نفادًا للصبر. طقمُ أسنانه يؤلمه ولا يستقر في مكانه. يريد أن يثبّته من جديد، لقد صار لا يطاق، يقول وهو ينتظر دوره. وحين يأتي دورُه أقول له سأنتظرك في المقهى على الجانب الآخر من الشارع.

يظهَر والدي بعد أكثر من ساعة. كم كان الأمرُ مضجرًا! عليّ بتغيير الجزء السفلي من الطقم. وقد استغرق أخذُ الطبعةِ وقتًا طويلا. ما رأيك؟ يقول.

قبل مغادرتنا بيرفالج يشتري من أكبر سوق في المدينة عشرةَ خراطيش من السجائر اليوغوسلافية. عشرة خراطيش، أتريد حقًا أن تمرّر عشرة خراطيش على الحدود، سألته في ذعرٍ وفزع. حسنًا، وماذا أفعل، ألا يجب أن نُنفق هذا المال. سوف يعرف كيف يتدبّر أمره حتى يسمح له الجمارك بالمرور.

نخرج من البلدة وندُورُ حتى نسلك طريقًا من الحجارة الغليظة. في الأول بدأ الطريق يصعد بنا صعودًا حادًّا عبر غابة صغيرة. وفي الأعلى نشاهد منظرًا مكشوفًا

Twitter: @ketab_n

يُطل على طبيعة هذا الجانب من الحدود وجانبها الثاني. والدي يعرف النزلَ جيدًا، فقد جاءه مرةً مع الصيادين، وهُم في طريقهم إلى شمارتنو للمشاركة في طريدة. نطلبُ لحمَ خنزير مشوي وننظر من حولنا في الغرفة الصغيرة بسقفها المنخفض. في الطاولة المجاورة يحتسي بعضُ القرويين خَمرتهم. يؤشّر إليهم والدي برأسه ويقول هنا اللحمُ المشوي طيّب. ويسأل رجلٌ في الطاولة المجاورة إنْ كنا من كارينثيا. نعم، يقول والدي، نحن من بلدِ كارينثيا، ويطلب بيرةً ثانية. تجلس صاحبةُ المحل إلى الطاولة المجاورة، وفي الحال يستغرقنا الحديثُ القروي حتى وإن لم يكن لدينا فيه كلمةٌ واحدة. بل حتى وإن كنا لا نرغب في الاستماع بالضرورة.

يشير والدي إلى صاحبة النزل ويقول إنه يريد أن يقدم نوبةً للجميع، يقول مبتسمًا. ما الذي احتفلتما به، تسأله صاحبة المحل.

لا شيء على وجه الخصوص. هذه نوبتي، يقول موجهًا كلامه للقرويين، مع ابتسامةٍ متكلفة، كما لو أنه ضحك عليهم بحيلة خبيثة.

يشعر والدي بالاسترخاء عندما نغادر النزل. يتبادر إلى ذهنه أنْ ما زالَ بالإمكان أن يشتري أدواتٍ لتعاونية بليبورغ السلوفينية. مرّ زمنٌ طويلٌ وحالةُ مذاري التعاونية وفؤوسها سيئة.

نقترب من الحدود. يُشعِل والدي سيجارة. والآن، علينا أن نُتقن الكذب، يقول وهو يسعل. بعد مراقبة الجوازات يشير إلينا رجلُ الجمارك بالمرور. يسألنا السلوفيني إن كان لدينا ما نصرّح به. وأردّ بأننا لا نحمل شيئًا، لكنّ والدي يقول إن معه علبة سجائر، ويضع علبة سجائره تحت أنف الجمركي.

افتَحَا الصندوق، يقول الجمركي. يا للهرطقة، أقول في داخلي، وفي رأسي دوخةٌ خفيفة وأنا أنزل من السيارة. لم أكد أفتح الصندوق حتى كان الجمركي قد سبقني إلى فتح كرتونة السجائر تحت البطانية الصوفية التي نشرتُها فوق السجائر.

Twitter: @ketab_n

ويُخرجها الواحدة تلو الأخرى. محاولةُ التهريب أُجهضتْ. يقدّم والدي نفسَه كمالكٍ للسجائر، ويُطلب منه الجمركي أن يتوجه إلى مكتب الضرائب. عليه أن يترك ثمانية خراطيش في مكتبِ الجمارك ويدفع رسومًا عن المتبقّيتين. قالوا إني محظوظٌ لأني خرجتُ من المأزق بأقل خسارة ممكنة، يقول وهو يشتُم عند ركوب السيارة. لقد فسَد الأمر، اللعنة، لقد فسَد الأمر، يقول، ويُعيد وهو يرتعش ما تبقّى معه من نقود إلى المحفظة. كما لو أنني لم أشك، يقول متذمرًا. في لافاموند الجمارك ليسوا متشددين مثل هؤلاء. وفي هوليك يشعرون بالملل، ولذا ليس لديهم ما يفعلونه غير التفتيش. بعد هذا الحظ السيء لم يبق لمتجرِ تعاونية بليبورغ سوى أن يذهب إلى الجحيم. ويريد أن نعود إلى المنزل رأسًا، عبر غلوبسنيتز.

وفي أثناء بقية السير نلاحظ أنّ زمن الظهيرة يضفي على نور الشمس لمسةً ذهبية وحارة تُغرق وادي جُونْ في ميلوديا شفافة. نورٌ يزيح كلَّ لونٍ صارخٍ ويعلن نهاية الصيف الوشيكة. أنظرُ مندهشةً إلى بيكا، جبلِنا العائلي وأحوطُ بنصفِه، لأن واجهتَه الشمالية تحمل شيئًا ناعمًا. هنا جبلُ بيكا يصبح بطينًا، وكومةً من رمالٍ ممدّدة تغطيها غابةٌ ومروج خضراء. وعلى ظهره تنتصب على مدى طوله كتلٌ كلسية تضفي على قمّتة طابعًا أكثر حدّة. ومن حول جبل بيكا تتزاحم وتصطف قببٌ ومخروطياتٌ خضراء، مثل صغارِ حيوان حين تلتفتُ نحو أمّها. هنا تنتهي جبالُ الألب، وهنا تفقد السفوح الوعرة البيضاء قساوتها المستفزة. ومن الخلف، في اتجاه الجنوب، يمتد المنظرُ بأوديته الكثيرة، بتشعّباتها وزواياها، مثل شبه جزيرة صغيرة منيعة من امتدادات التلال المشجرة التي لم تفقد شيئًا من طابعها المنفرد بالمتآمرين والمتمرّدين.

بعد بلدة غلوباسنتز الصغيرة الجاثية عند سفحٍ مُشجرٍ عند حدود وادي جونْ الجنوبية نتحول في اتجاه طريق ضيّق مرصوفٍ بالحجارة يؤدي إلى عنق لوشا، والذي

Twitter: @ketab_n

يستخدمه السكان المحليون لنقل بضائعهم. تراودني كل الأشياء في هذا الممر ذي الاتجاه الواحد، وآمل ألا تأتي أي سيارة في الاتجاه المعاكس. يرى والدي قلقي ويقول لتهدئتي إنه مرّ ذات مرّة بهذا الطريق على دراجة نارية من دون إضاءة، وأنه وصل إلى بيتنا على أيّ حالٍ، لذا لا داعي لخوفي. ماذا عسانا نفعل بهذا اليوم، يدمدم والدي. يمكننا أن نذهب ونستقر عند ريبلْ، إن وجدنا فلورتش في البيت، ما رأيك؟

بعد أن تركنا وراءنا كل مراعي لوشا الجبلية، ومررنا من أمام الكنيسة المسكونية الصغيرة التي بناها فلورتش على حافة الطريق حيث ما تزال تبرز مثل كتلة صخرية غير متوقعة، إذا بالجار جوهي سيمر الواقف أمام الكنيسة يؤشر لنا.

أتوقف وأنزل مع والدي. فيفرح جوهي كثيراً. ما الذي ضللكم إلى هذا المكان أمّا هو فهو هنا يقوم بجولته اليومية، يقول وهو يصافحنا. ويتحدث والدي عن طبيب الأسنان، ويروي أن الجمركي استولى على ثمانيةٍ من رُزم سجائره. أولئك الجمارك الملاعين! يقول، ثم يبصق.

إنه سعيدٌ لأنه توقف عن التدخين، يقول سيمَر وقد علَت شفتيه ابتسامةٌ عريضة. فلم يعد ينشغل بالسجائر، ورئتاه تعملان كمضخة في أحسن أحوالها. يستطيع أن يصعد ويهبط الجبلَ ما شاء له من المرّات، وأن يُعدّ العلفَ وحده، وكذلك هو في عمله في الإسطبل، ولذا فلم يعد يشكو من أي شيء. أمّا جهازي أنا فهو يثغثغ ويغمغم، يقول والدي وهو يطبّل براحةِ يده فوق صدره. سوف يأتي وقتٌ تنكسر فيه رئتاي، وعندئذ ينتهي كل شيء، ولن أكون بعد ذلك هنا. ولكنْ لا، يقول جوهي، لن تأخذك رئتاك بهذه السرعة، لما يفكر في كلّ ما كابده هو وتحمّله في حياته. ففي الآونة الأخيرة تذّكر اليوم الذي طاردتهما الشرطة معًا، من مخبأ إلى مخبأ، أتذكرُ، يسأل جوهي. ففي ذلك اليوم بالذات رأى والدَه للمرة الأخيرة. فعندما أنزله رجال الدرك من الغابة وجرّوه جرًا بعد أن ضربوه ضربًا مبرّحًا

Twitter: @ketab_n

حتى صار لا يقدر على المشي، إذا بوالده يخرج فجأة من الإسطبل، فيستبد به الخوف ومن شدته يرفع يديه في الهواء. كانت الشرطة تريد من والده أن يقول لها إنْ كانت الأم لحِقت بأنصار المقاومة. وبالطبع تصرّف كما لو أنه لا يعلم شيئاً، وهكذا قُبض عليه ونُقِل إلى داخاو حيث لقي حتفه. أما هو فعندما عاد في نهاية الحرب من معسكر المراهقين في مورينجان وجَد كلّ شيء قد تغيّر. أُحرِق المنزل ونُهب الإسطبلُ، وقُتِل نصفُ عائلته، وعادت أمُّه عليلةً من عند أنصار المقاومة. فكان أوّل شيء يجب أن يفعله في حياته الجديدة أن ينسى حياته القديمة. أبجديات النسيان أوّلا. مدرسةٌ صعبة، هوه، زدرافكو، يسأل جوهي وهو ينظر إليّ.

هل حصلتَ على المال أنتَ أيضًا، يسأل والدي.

عندي معاشٌ صغير، بسبب المعسكر، أنت تعرف هذا جيدًا، يقول جوهي.

أجل، أجل، يجيب والدي، ويكرر أنه بهذه المنحة سيُصلح طقم أسنانه. وبعد ذلك مصروفُ الجيب الذي يأتي من الدولة سوف ينفد، ويختفي، هكذا بسهولة، يقول والدي.

فحتى يتوقف الكلام عن الدوران في الماضي أسأل أين تمرّ الحدود مع يوغوسلافيا. فيمدّ كلا الرجلين ذراعيهما الأيمنان ويُشيران إلى الجنوب. الحدود تمرّ من هناك، من فوق قمة الغابة، ثم من وراء المرعى، في اتجاه السفح الآخر.

في الأيام الأخيرة قبل نهاية الحرب، جالَ في هذه النواحي مع رُسل أنصار المقاومة، يتذكّر والدي. فقد ظلوا لأيام يفرّون من مضطهديهم الذين عثَروا على آثارهم. وفي أواخر أبريل سقطت ثلوج ندية، وفي الأثناء عبَرت مجموعةٌ من الجنود اقادمين من جنوب ستيريا، عنقَ لوشا أثناء هروبهم أمام أنصار المقاومة. فلو تأخرت مجموعتُه قليلاً لوجدت نفسها في قبضةِ أفراد الشرطة القادمين من غلوباسنِتز. فهذا المكانُ يعرفه كما يعرف جيبَه، يقول والدي، لكنْ منذ ذلك الوقت غمره الغطاءُ النباتي فلم يعد بالإمكان أن يبلغ الطّرْفُ منتهى كل مراعي لوشا في لمحةٍ واحدة. إنها

Twitter: @ketab_n

الحياة، زدرافكو، تنمو وتغزو، يقول جوهي. فعندما يختلي لنفسه يتأمّل الحياة، فيمرّ عبر المروج والحقول، ويتطلّع إلى الجزء السفلي من الوادي، ويحدّث نفسه أنه سعيدٌ، لأنّ ما من أحد أرسله إلى الموت، في ذلك الزمان. وكثيراً ما يتساءل أيّ مصيرٍ لقيه أولئك الذين كانوا يبلّغون عن سكان هذا المكان، عن المزارعين، والأطفال، والنساء، والشيوخ، ويخونونهم لصالح النازيين. فمنذ اليوم الذي سُلّم فيه هو وجيرانُه إلى الشرطة من قبل جاسوس سلوفيني، تخلى عن القضية الوطنية نهائيًا. يكفي أن يذهب سلوفيني إلى الشرطة ويقول أن فلانًا أو علانًا يعمل لصالح أنصار المقاومة، أي لو صدّق أحدُهم أنّ الإبلاغ عن أشخاص، من أهله وذويه، صوابٌ لكان بذلك أسوأ من الألمان، الذين ينطلقون من مبدأ أنّ عِرقهم الأعلى يمنحهم الحقَ في استعباد الآخرين، يقول جوهي. فهو لا يفهم كيف يمكن لأحد أن يُبلّغ عن أشخاص، فقط لأنه يؤمن أنهم جميعًا شيوعيين، وأنه يحقّ قتلُهم، أو الله أعلم ماذا أيضًا. لكن لن أنخدع، فسيّان عندي إذا كان أطفالي يتحدثون السلوفينية أو لا يتحدثونها، يقول جوهي. لقد كفّ عن الاهتمام بهذه الأشياء. هذا أمرٌ لا يعنيني، يقول مبتسمًا.

والدي لا يقول شيئاً. عيناه تظل مسمّرتين في الأرض، ويسحب من سيجارته.

بعد الحرب، كلُّ شيء انتظم وتُدبّر أمرُه. لكن ما من شيء صار كاملاً حقًا، يقول جوهي، هكذا يجب أن ننظر إلى الأشياء. الهتلرية كما يعرفها، أمرٌ قد فهمه، وهو سعيدٌ أنه خرج منها سالمًا. أحيانًا ينظر وهو يتجوّل إلى شجر السرو فوق التلة. هنا قتَل الأنصارُ المزارعَ كِبيرْ، بدعوى أنّ له يدًا في اعتقال جيرانه، وفي هذه الأوقات يقول إنه ما زال يفضل أسوأ أشكال السلام على الحرب، لأن في الحرب كل الناس يصابون بالجنون، ولأن في الحرب لا وجود للعدالة. أبدًا، يقول جوهي.

أجل، يتنهّد والدي. بعد الحرب، أظهر والدُه للعائلة ذلك المكان الذي يوجد فيه كِبيرْ حتى يُنبَش قبرُ الجثة وتدفَن في المقبرة. جدي لم يتصوّر أن كِبيرْ قد أُعدِم حقًا. في باقي أيامه أشياءٌ كثيرةٌ من أيام الأنصار ظلت تُشغل باله، يقول والدي.

Twitter: @ketab_n

وبعد الحرب كان محبَطًا، وكان يلعَن السياسة.

لكن لا والدُك، ولا أعمام زوجتك الثلاثة الذين سقطوا بين صفوف الأنصار، فهم على أي حالٍ لم يذهبوا إلى الحرب لعداوةٍ بينهم وبين كِبيرْ، وإنما كافحوا من أجل أمرٍ آخر، يقول جوهي. أنظرُ إليه، مندهشةً، لأني لم أسمعه يومًا يتحدث على هذا المنوال، ولأني مندهشةٌ وأنا أسمع لأول مرة أنّ ثلاثة أعمام سقطوا في صفوف الأنصار. ثلاثةُ حطابين قرّروا أن يفروا من الفيرماخت، ولا أحد من عائلتنا وجد أن هذا جديرٌ بأن يجد مكانه في قصة العائلة، فكأن الأعمام الكبار من ناحية والدتي قد تلاشوا في الهواء بعد وفاتهم، وأنهم تدثّروا بالضباب حتى لا نتعرّف إليهم، وحتى لا نتّهمهم بأي شيءٍ، وحتى يختفوا من التاريخ.

طيب، الآن سيذهب إلى ماشيتِه، يقول جوهي قبل أن يضع قبلةً فوق خدي. علينا أن ننتظره، والدي وأنا، وبعد ذلك سنرافقه إلى بيته حيث تقدِّم لنا زوجتُه الطعام.

سيفكر في الأمر، يقول والدي، وهو يمدّ يدَه لجوهي.

ولمّا نصير وحدنا، ينطلق والدي، فنصعد لغاية أشجار السرور من فوق التلة. ولمّا نصل إلى قمة التلة يخطو والدي نحو اليمين ونحو اليسار ويحوم حول الأشجار المبعثرة في المرج المنحدِر. اِصعدي، يقول، سأريك شيئًا. ويتوقف عند مكان معين، وبقدمِه يشير إلى التربة. هنا، هنا أخفَوه. ويُخرج من جيب سترته شمعةً صغيرة التقطها على الأرجح بالقرب من درج الكنيسة، ثم يُضيئها. ولمّا ألتحق به نجلس معًا فوق العشب. الجُميزُ بدأ منذ الآن يغيّر لونه، يقول والدي بعد برهة، لقد صار الخريف وشيكًا. ننظر نحو الوادي في هدوء. شعلةُ شمعةِ المقابر الصغيرة تشتعل من خلف البلاستيك الأحمر، ثم تنطفئ.

Twitter: @ketab_n

أجوبُ في ذهني مسارَ الحدودَ التي تفصل المراعي الجبلية عن لُوشا وقمة أولسيفا، فهو يصعد وينزل، إنه خطٌّ متموّج يأوي الممرَّ من هنا إلى هناك، قانونٌ مكتوب، منحوتٌ في الطبيعة.

أعود إلى الوراء ما وسِعتني الذاكرة، فأنتقلُ في الحقل المغناطيسي لهذه الحدود. لا يملكُ الناس إلا أن يحترموا هذه الحدود، إنْ همُ أرادوا أن يدّعوا الأمان، هذا ما يقال. أنْ لا يجتروا القصص القديمة، لأنها قد تعرّض السلام للخطر. لكنْ هل السلام استقرّ فقط في هذه المنطقة، أو أن اللغات المحكيّة هنا ما زالت تحمل الزيّ الرسمي؟ هل السلام بات مرئيًا ؟ هل يسع اسمُ مكانٍ سلوفيني أن يظهر إلى جانب اسم مكانٍ ألماني، رمزٌ أغنَى من دلالةِ حمامةِ سلام، أو قوسِ قزح، أو نُصبِ تذكاري؟

فبسببِ الحدود، التي ليست في عيونِ الأغلبية في بلادي، سوى حدودٍ وطنية ولغوية، أجدني مضطرة لأن أشرحَ نفسي وأبرّر هُويتي. مَن أنا، ومن هُم عائلتي، لماذا أكتب بالسلوفينية أو أتحدث بالألمانية؟ فمن انكشفَ على هذا النحو كشف أن ثمة مكانَ ظلٍّ، ومَخْبَأ أشباحٍ أسماؤُها الوفاءُ والخيانة، والتملك والإقليم، مِلكي ومِلكُك. عبورُ الحدود هنا ليس عملية طبيعية، إنه عمل سياسي.

بعد صدور ديواني الشعري الثاني وإنهاء أطروحتي أقيم في لوبجانا. ففي أحاديثهم، وأحلامهم، وحواراتهم، زملائي الكتّابُ السلوفينيون يمنّون نفوسَهم بجمهورية سلوفينية ديمقراطية، تستطيع أن تُنسيهم عقود الشيوعية. يرغبون في أن ينفصِلوا عن الفدرالية اليوغوسلافيا الجمهوريةَ الفدرالية السلوفينية، وأن ينتقلوا بها نحو الاستقلال.

لكنْ في زمنِ الاضطرابات السياسية في سلوفينيا، أدركُ أني ألاحظ هذه الأزمة كضيفة، وبأني أحس أني مثل قريب بعيدٍ جاء في زيارة أقاربه بعد فترة طويلة،

Twitter: @ketab_n

وألاحظ في دهشةٍ أنهم تغيّروا كثيراً. وفي رمش العين أعي أني لا أعرف الحقيقة السياسية في يوغوسلافيا إلا من خلال الأدبِ وبعض القصص النادرة والزيارات الخاصة.

في دوراتِ جمعيةِ الكُتّاب أتساءل لماذا أُحِسُّني ضعيفة، ومعتدلة جدًا في كفاحي من أجل ما يسمى بتمجيد كل ما هو وطني — من أجل الدولة الوطنية. لماذا أتمنى للسلوفيين دولةً، لهم وحدهم، بل ولماذا أتمناها بعمقٍ شديد وأضع نفسي خارجَها. فبحكم انتمائي إلى طائفة أقلية، كما يقال عن رعونة، كنتُ دومًا أخوض في القضايا الوطنية. لماذا هذا التحفظ إذًا؟ لأن جهود السلوفينيين في كارينثيا من أجل فرْضِ احترام السلوفيني علنًا وجهارًا في كارينثا كانت دومًا توجَّه إلى النمسا، وتمثّل تشجيعًا للنمسا لمزيدٍ من الانفتاح. لم تكن طموحاتٍ من أجل تكريس الديمقراطية في يوغوسلافيا الشيوعية، أو الدولة السلوفينية التي لم يكن لها وجودٌ أصلاً.

أشعر بترددي كأنه حرية، ولكنْ كأنه خسارةٌ أيضًا، لأنني لا أحس أني مهدّدة، حتى وإن فهمتُ الأزمةَ وتقاسمت مع الكتّاب أهدافهم.

في الماضي، صارت عائلتي في الزمن الذي لم تجد فيه بدًا من أن تنتفض، أسرةً تتصرف بمفردات الأمة، لأنّ انتماءها صار يعرّضها للخطر، ولأن بقاءها صار مهددًا بالموت جسديًا. فإمّا نسيانُ اللغة والثقافة، والاندماج في اللغة الألمانية، وإما الدفاع عن النفس وتحمّل التبعات المدمرة. لذا قررتْ أن تعمل لصالح نشاطٍ مشترك مع أنصار مقاومة سلوفينيا الذين كانوا يهيئون للمعركة. وفي أوقات الكارثة العظمى شاركتْ، بالاتفاق مع السلوفينيين، في الكفاح الأوروبي ضد الفاشية، وآمنَتْ بالمستقبل ووحدة السلوفينيين، بعد أن صارت، مع ضمّ النمسا إلى ألمانيا النازية، دون حماية، في دولة تريد طردها وتدميرها. ما هي النمسا التي كان علي أن أعتنقها؟ أهي النمسا التي لم تكن قد وُجدت بعدُ في ذلك الزمن، التي لم تدافع عن

Twitter: @ketab_n

نفسها وذابَت في الاشتراكية القومية، التي صارت تهدد جزءًا من مواطنيها، وتسلّم الجزء الآخر للدمار؟

وأنا ماذا أمثل؟ هل اتصرف بمفردات الأمة، هل هذا حقيقة، وأم هي سراب؟

في سلوفينيا يذوبُ الحزب الشيوعي أيضًا، ومعه تذوب الأسطورة التي كان يمتدّ منها حقّه في الحكم – أسطورة أنصار المقاومة وجبهة التحرير. تاريخ استيلاء الشيوعيين على السلطة في داخل حركة التحرر تبدو تحت ضوء مختلف، وهذا الضوء يكشف دائمًا عن مزيد من الأموات، وعن اغتيالات التصفية خلال نضال الأنصار، وعن مجازر حرب أُرتكِبت ضد الخصوم السياسيين والمدنيين الأبرياء، عندما غادر أنصارُ المقاومة الغابات والتحقوا بالجيش الشعبي اليوغوسلافي.

يسألني مؤرخ في أعقابِ طاولةٍ مستديرة ما الذي يقوله شيوعيُو سلوفينيّي كارينثيا عن هذه الحقائق. فأشرحُ له أن الشيوعيين لم يتسلموا السلطة في النمسا، على خلاف الوضع في سلوفينيا. نعم، يقول، فهو يعرف هذا جيدًا، لكنّ معادلةَ "نصير يساوي شيوعيا" لا بد وأنها سارية أيضًا في كارينثيا. فأجيبه أن ذلك ما يدعيه خصومُ الأنصار، لكنّ المعادلة غير صحيحة بالمرّة.

لا أملكُ إلا أن أفكّر في أنصار ونصيرات أوديتنا الضيّقة، الذين إذا نظرنا إليهم من الزاوية السلوفينية، الزاوية المركزية للسلطة، لرأيناهم مُتنزّهين مشتّتين في الغابات. ليس لديهم ما يشتركون فيه مع الأيقونات التي طبَعت على مدى عقود من الزمن تمثيلَ أنصار المقاومة في الرأي العام، في يوغوسلانفيا وفي سلوفينيا، صور مفرطة الأبعاد تُظهر شخصياتٍ من فولاذٍ وهي تندفع إلى الأمام. فهي على العكس تشبه كتلاً شاردة أُسقِطت من تاريخ الثورة. فلما كان يحق لنا في تاريخ يوغوسلافيا

Twitter: @ketab_n

وسلوفينيا ما بعد الحرب، أن نمجّد مزايا الشيوعيين فقط، فمن البديهي أن يغيب عن المجال البصري باقي الأنصار، والمؤمنون، والملحدون، واللاسياسيون، والفاتِرون، والمحبَطون، وخائبو الظن.

أقول للمؤرخ إني قادمةٌ من السفح الواقع على جانب كارينثيا، حيث كل من كان يعنيهم الأمرُ لا تُعميهم عبادة الأبطال. لعلهم كانوا يحبذون التلذّذ بذلك قليلاً، حتى ينسوا بعض الوقت جراحَ الحرب ويحصلوا في النهاية على بعض الاعتراف. لا يكاد الأنصار يخرجون من أوديتهم ويظهرون تحت أضواء الحياة العامة في كارينثيا حتى يتحوّلون في كل الأحوال إلى وجُوهٍ مأساوية عوجاء. حسبُهم أن يتركوا جُدرانهم الأربعة حتى يجدوا أنفسهم في إقليم الخصم. يحب أن يكافحوا من أجل انتصارهم التاريخي، كما لو أن هذا الانتصار لم يمنَحْ لهم أبدًا.

في إحدى المناسبات العائلية أسأل تونسي الذي كان يكبُر والدي بسنواتٍ ثلاث، عندما فرّ ليلتحق بالأنصار، كيف تآلفَ جدي، الكاثوليكي المؤمن، مع الشيوعيين. يقول تونسي إن الأنصار لم يفقدوا ثقتهم يومًا في عقيدة جدي، فلا شيء أهمُّ عندهم من الثقة التي يمكن أن يحظى بها جدي كقائدٍ في مركزٍ وسيطٍ بين الرسل. وفوق ذلك ففي كارينثيا ما كان يمكن أن تسير الأمور على خلاف ذلك، لأنّ سكان سلوفينيا كانوا كاثوليكيين في أغلبهم. كان جدي يقصد مع زافسر وآخرين إلى المزارع التي يتم انتقاؤها على هذا الجانب من بيكا وفيما وراء بيكا، حتى يُجنّدا مقاومين فيها. وكان المزارعون يقولون إنهم سعداء بالجيش السلوفيني: أخيراً وجدنا من يقف إلى جانبنا! زيُّ الأنصار كان يعجبهم كثيراً، لكن النجمة الحمراء، والقبعة الخضراء لم تَرُوقَا لهم كثيراً. العديدُ منهم كانوا على استعدادٍ لأن يكافحوا من أجل الإمبراطور، لأنّ المشاكل في عهد الملكية ما كانت أهونَ وأقل وطئاً. ولكنْ، وكما كان الحالُ في العام ١٩٤٣، لمّا أضحى الانتصارُ على النازيّين أمراً محتملاً وقريبًا، أعلن العديدُ من المزارعين وعُمّال الفلاحة استعدادَهم لتقديم المساعدة.

Twitter: @ketab_n

ولذا، فلمّا تبيّن لهم بعد حينٍ أن أشهراً معدودة تفصلهم عن سقوط الرايخ الثالث، صاروا يرون الأنصار جزءاً من قوى التحالف حتمًا، ولم يعد الأنصارُ يلتمسون الدعمَ منهم، بل كانوا يقصدون إليهم، ويشترطون انضمامهم.

كان علينا أن نهيّئَ القوائمَ لمعرفة أيَّ مزرعة أخذنا منها كذا خنازير وكذا أبقارًا، لأنه كان لزامًا تعويضُ الناسِ بعد الحرب، يقول تونسي. أحيانًا لم يكن بعضُ المزارعين يجدون ما يقتاتون به، بعد نفاد مؤونتهم. فهو يعرف حالاتٍ من الأُسَر التي كانت تتضور جوعًا، لأن وحدةً منهكة من الأنصار نصّبت مخيمها ليس بعيدًا عن مزرعتها النائية. ولكن، ما الذي كان يمكن فعله من دون سكان الريف؟ ما من مجموعة من أنصار كارينثيا كان يمكنها البقاء على قيد الحياة من أهل الريف. فمن أين يحصلون على المؤونة، ومن أين يستقون المعلومات، يقول تونسي. لم يكن هناك طاقمٌ يتابع الأنصارَ حتى يطعمهم، ولا أحد يستطيع أن يُخرج المطابخَ من الملاجئ وينقلها إليهم. كان الغذاء يأتي من الأهالي، وليس من أي مكان آخر. كان عليهم أن يتوخوا الحذرَ من أفراد الدوريات الذين كانوا يلقّبونهم بالمتسولين، حتى لا يحملوا فوق ما لا يحتمِلون، يقول تونسي. كم مرةً تمنى أن لا تحوي الحزمُ التي يلقي بها الحلفاءُ فوق الأراضي المحررة، أسلحة وأدوات تضميد الجروح وحدها، وإنما المواد الغذائية أيضًا، ولاسيما المواد الغذائية. كان ذلك هو الضرورة الأولى. في معظم الأحيان كان الناس يجدون بين أيديهم أسلحة آلية جديدة لا يعرفون حتى كيف يستعملونها، يقول تونسي. وفي مركز اتصال الرُّسل الذي كان جدي يرأسُه لم يكن من النادر أن يُسبِّح الناس بمسابحهم، حتى في حضور المفوّضين السياسيين. السياسيون، يقول تونسي، كانوا يعرفون جيداً أننا لا نستطيع أن نعود إلى بيوتنا، وأن من شاء أن يصلي لا يعني أنه صار عليهم خطراً. قائدُ الوحدة الأولى في كارينثيا، فرانز باستيرك لينارت، من وادي لوبنيك، ذهب في طلب الكاهن زيخنر، لاستشارته قبل الانضمام إلى الأنصار. لم يكن يسعه أن يتراجع، هكذا كان يقول. لم يكن يستطيع أن يوفّق بين هذه الحرب وبين أفكاره. لقد أمضيا ليلةً كاملة في

Twitter: @ketab_n

الصلاة في الكنيسة، وفي الساعات الأولى من طلوع النهار التحق لينارت بالأنصار. وفي اليوم الذي نُقلت رفاتُه إلى ميزيكا أيسكانبل أعلن الكاهنُ أمام قبره أن أحد أكثر الكاثوليكيين التقاه في القرية قد سقَط مع لينارت. كان الشبابُ غير المستقر، وليس المؤمنون هم الذين يمثلون خطرًا على الأنصار، يقول تونسي. إنهم الرجال الذين يريدون الاطلاعَ على سير حياة الأنصار، ولكنهم سرعان ما كانوا يغادرونها، لأنهم لا يطيقون المزيدَ من التيه، لأنهم كانوا يتعرّضون للظلم، والعقوبات القاسية، ولأن كل شيء في نظرهم صار خطيرًا جدًا، ومؤلمًا جدًا، ولا طاقة لهم به على الإطلاق. أحيانًا كانوا يبوحون بكل شيء، ويقعون في قبضة الجستابو، بل وكان الجستابو هو الذي يسرّبهم إلى صفوف الأنصار. وقد كلّف هذا الكثيرَ من الأرواح البشرية، وتسبّب في الكثير من التعاسة، وزرع انعدام الثقة بين المقاتلين. النصيرُ الطيّب نصيرٌ بالضرورة، يقول تنوسي، فهو شخص لا يرى مخرجًا آخر سوى اللجوء إلى الغابة، وهو دومًا تحت تهديد الأسْر ومعسكرات الاعتقال، ولم يكن أمامه من سبيل سوى الفرار، لأن أحدًا بلّغ عنه فقال هذا ناشط يُطعم الأنصار، أو لأنه فرّ من الفيرماخت. الفارون كانوا أفضل المقاتلين، معتادون على الانضباط العسكري، يكافحون من أجل بقائهم، وبقاء أسرهم، ويحتفظون دائمًا بالرصاصة الأخيرة في حال وقوعهم في أيدي الألمان. وأما رجال السياسة والمتعلمون فهم أنصارٌ بالقناعة، وهكذا تبوّأوا وظائف سياسية، لكنهم، إذا قورنوا بعدد المحاربين فهم قلة، يقول تونسي.

يتذكر والدي أن تيني، الذي كانوا يلقبونه بالجنرال، روى له في إبرياش في بيت كوفاتش، كيف ظل غاسبر وزوبانك وسيفسر يفتشون عبثًا عن شيوعيين في كارينثيا. ففي اجتماع للأنصار تبين أنه إذا كان هناك عدد قليل جدًا من الشيوعيين، فلا بد من صنْع شيوعيين جدد، ومن جلب بعض الناشطين والمقاتلين إلى الحزب الشيوعي. وقد نُظمت تدريبات، ونجحت بعض الناشطات والمقاتلين في

Twitter: @ketab_n

اجتاز امتحان القبول، فيما ظل البعض الآخر عند مرحلة المرشحين. وهكذا ظل الجنرال مرشحًا حتى نهاية الحرب، مقاتلاً جيدًا، ولكن غير صالح للصراع الطبقي، وقد سجل عقيد في كشفه. هذا ما رواه الجنرال لوالدي. وبعد الحرب، عاد إلى مزرعته في كارينثيا، يقول والدي. في ليوبليانا، أرادوا أن يحولوه إلى موظف، فأعطوه ملابس جديدة والكثير من المواد الغذائية، لكنه تنزه عن كل ذلك. ومثله فعل آخرون كان يعرفهم جيدًا. وكان جورشي رفيقه في الصيد، ومن أنصار لِبينا قد وصف له تجمعًا سياسيًا محظورًا بعد الحرب. وكان موظفو الأنصار قد طالوا بضم الجزء الجنوبي من كارينثيا ليوغوسلافيا، وناشدوا الجماهير الشعبية بالتصويت لصالح الثورة. وقال يورشي إنه يرى في هذا المكلب كثيراً او قليلاً من المبالغة. فإذا كنا طردنا النازيين، فهل هذا من أجل أن نحب الشيوعيين الآن، يتساءل يورشي، فهذا لن يفهمه أبدًا، لا، هذا لن يدخل دماغه، هذا الذي كله أبيض أو كله أسود. مادونا لم يجلب لي سوى التعاسة، يقول يورشي.

Twitter: @ketab_n

أوصافُ النصير المجهول، القادم من الأودية يمكن تشكيله من جديد، وانتزاعه من الدرع الذي يخفي أوجهه المتعددة.

الناشط يجب أن يكسب حليفًا في الأصقاع التي يحارب فيها. يجب ان يلبس ألوان المشهد الطبيعي وأشكاله، وأن يصبح خفيًا عن الأنظار، وأن يكون جبلاً وجدولاً، وشجرة تنوب، ومنزلاً، وتلاًّ، وغابة، وبومة، وثعبانًا. الغابة يجب أن تكون تمويهَه، وعليه أن يرتدي معطف الأوراق والأغصان. يتماهى مع الدرب، ومع الهواء. يستطيع أن يطفو تارة هنا، وتارة هناك، وأن يكون في كل مكان. هتلر رآه الناس في قرية كذا، واليوم ها هو يلف حول جبل بعيد، حيث يمر من فوقه ظله. الناشط يجب أن يدافع عن بيته، وعن حقله، وعن بلدته الصغيرة. الناشط يجب أن ينتقل مثل سمكة في الماء. في مياه الرجال، في مياه البشر التي يسعى العدو لجفافها، لأنه على خلاف الأنصار يظل السكان المدنيون تحت الأنظار، ومن السهل التعرف إليهم. النصير يمكن أن يمارس في النهار نشاطًا مدنيًا، لكن عندما يؤويه الليل يجب أن يركض ويضرب. النصير لا ينام، الليل عنده نهار، يحارب حتى يهاجم معنويات الخصم. يتسلل، لأن الفرار هو انتصاره ونجاحه. الخشية أخوه وأخته، واسمه، لأن الخشية من الموت تجعله يتحمل كل شيء، الجوع، والقرف، والعزلة. أقسى ألوان اليأس قد ينقذه، وأي فطنةٍ رعناء قد تُفقده. الماء الذي يسبح فيه هو الذي يحمله ويغذيه، بلقمات صغيرة تارة، وأخرى دسمة تارة أخرى، وبلحم دهني تارة وبلحم غثٍّ تارة أخرى. من دون ماءٍ يموت النصير، ويجف تمامًا، ويختنق في الوحل في النهاية. الماء هو الهواء الذي يتنفسه، الماء هو جسده الجَروح. هذا الجسد الذي يداعَب ويضرَب، يَحَبُّ ويكرَه، ويصيبه البلى ويداس ويحس ويهاب، ويُوَدَّ ويُكسَر. هو امتداد ذراعِه ورجله الفاترة، وقلبه القوي ولحمه الضعيف. فهو أعظم

Twitter: @ketab_n

الأصدقاء إلى نفسه، وألد الأعداء. النصير يعطي لجسده شكلاً جديدًا، ووجهًا جديدًا. يُخرجه من النسيان، ويراه الجميع. طاقته سوف ترتد إليه، جراح الجسد تؤججه، وتحث حركاته، ويشجعه يأسه. سيكون الصرخة التي تفلت من جسده، وستكون الصوتَ الذي يتكلم باسمه.

ولما تنتهي الحرب يعيد النصير للمشهد الطبيعي ما هو ملكٌ للمشهد الطبيعي. سيتعرى عن ملابسه التمويهية، وسيذهب بين البشر الذين استعادوا بشريتهم، الذين استعادوا أشكالهم. وسيجعله التشابه غير قابل لأن يعرَف ويكشَف. في الليل سوف يبكي الأموات، وفي النهار يؤدي علمه ويمجد السلام. سيضع السلام فوق كل الأشياء، ويتخلى عن الانتصار للجيوش المنتصرة. شرفُه يأتيه من اليقين أنه طرد الإذلال، ومن أنه قال لا، ومن أنه رسم حدًّا بينه وبين الظلم. أمله الهش سوف يمنحه وجهًا، ورغبته في الحياة سوف تقيم له نصبًا.

هل النصير يريد أن يدفع الثورة إلى أوجِها الدومي، أم يريد مواصلة المعركة في لحظة الانتصار، أم يريد أن يحتفل بالانتصار مثل هجوم مضاد. هل يريد أن يحوّل السلام إلى حرب دائمة من الخشية، وأن يمحو بحر الدم باغتيال أضعافٍ مضاعفة؟ ينتصب نصب انتصاره، المهمل، في ساحة الوغى، وسلاحه المجرد من زر الأمان، محاطًا بالأشباح.

Twitter: @ketab_n

في سلوفينيا أسائل نفسي بلا انقطاع إن كان أحدٌ من حولي قد تضايق من لغتي السلوفينية. أم لو فقط لم تكن هذه الحيرة التي نكلأ الجواءَ أم في مواجهة الحرب التي صارت متوعدة. يسعني كثيراً أن أعوّد نفسي على خُطَى اللغة السلوفينية الفضفاضة العذبة، وعلى حركتها الخفيفة، المنسابة، والفكهة.

بعد عام أعود إلى كارينثيا. تحملني مشاعرُ الانتماء وتبلبلني التناقضات السياسية. ما زلتُ أحلم بإيقاظ الحوار المتحجر ما بين السلوفينيين على هذا الجانب وذاك الجانب من الحدود. وقد بدأتُ في العمل في كارينثيا على مشروعِ مجلة أدبية وسياسية عابرة للحدود، لكن المشروع يفشل في كل مرة.

في الزمن الذي كنتُ أعمل في مسرح كلاجنفورت، بدأتْ اللغةُ السلوفينية تنسحب من نصوصي شيئًا فشيئًا. أدركتُ ذات يوم أنها لم تعد تظهر في مدوّناتي وكتاباتي، وأنها خرجتْ من أدراجها، وغادرت طاولتي، حاملةً معها زينتها وحُليّها. فبعد أن صُدِمتْ وتعِبتْ من خياناتي، سحبَت الجميلةُ توقيرها وإجلالها، هكذا قلتُ لنفسي في اليوم الذي أحسستُ فيه بهذا التغيّر. وسأسائل نفسي إن كانت، مع هذه اللغة التي هربَت من فكرتي، قد تغيّرت هي أيضًا، وإنْ لم يكن العالمُ، مع هذه اللغة التي نَمت فوق شفتيّ، مثلما نَمت سلسلةٌ في يدي لجلب الناس إليّ، قد انسحب هو أيضًا من بين يديّ مرة أخرى. هل كان حريًّا بي أن لا يطول بقائي بالقدر الذي طال، قبل مغادرة هذا البلد الغامض، المتقلب كثيراً، الممتدّ ما بين اللغات، هذا الصقع الذي تركني أعبث وأتسكع طويلاً، ولم يفرِض مُطلقاً من المُطلقاتِ، كالكتابة بلغةٍ واحدة، كتابةٍ لا تعرف سوى البدائل الواضحة والحاسمة؟

Twitter: @ketab_n

لو تأملنا كلَّ شيء من خارج الأشياء فسوف يظل كلُّ شيء يشبه ذاته، وكل شيء سوف يظل كما كان دومًا. الكتبُ السلوفينية سوف تظل في مكانها. لا، لن أُهمل السلوفينية، ولن أتجرّد منها، ولن أتبرأ منها. فلن يتوارى شيءٌ في الصمت. لكنّ شيئًا يكون قد تكسر. شيءٌ قابل للتأثر ومتعذّر إمساكه. أبياتُ شعري وحدها تكون قد اندست في ملابس جديدة، وسوف تذهب لترى أشياء في أماكن أخرى، لأنها أرادت أن تهرب من هذه الأرض التي أصحت بلا رجال، الكائنة فيما وراء الحدود.

الرغبةُ في الكتابة سوف تنهكني. مشاريعي المتحمسة سوف تنكسر. الكلماتُ تتحرك من حولي، مبعثرة، كما لو كنتُ ألقيتُ بها إلى الأرض في لحظةِ يأسٍ، ولم يسعني التقاطها. فينتابني شعورٌ بأني جالسة فوق كومة من الحطام والأنقاض.

لكنْ قبل وصولي إلى هذا الحد أجدني في ليلة ٢٦ حزيران ١٩٩١ في ساحة الجمهورية في ليوبليانا لمشاهدةِ العَلم الوطني السلوفيني الجديد الذي يُرفَع للمرّة الأولى، تكريمًا للجمهورية المستقلة. أحاول أن أحفر في نفسي عبارةً أظل أكرّرها في ذهني إلى ما لا نهاية: إنه يوم تاريخي. ولكنْ ما الذي أتبيّنه في هذه اللحظة الحافلة بالرموز؟ أوهو البُعد التاريخي كخيالٍ مطلق العنان؟ تختلط بِفرَحي الخشيةُ من أن يحتل الجيش الشعبي اليوغوسلافي نقاطَ الحدود في هذه الليلة. أعود إلى النمسا قبل منتصف الليل. وفي الصباح كلُّ الحدود السلوفينية تصير في قبضة العسكر. يراودني الشعورُ أنّي قد نجوتُ. وبعد أيام من الشلل الذي شارفت فيه سلوفينيا حربًا وشيكة انسحب الجيشُ الشعبي اليوغوسلافي من البلاد بغتة.

Twitter: @ketab_n

الحربُ المتوعّدة تكاد تُفقد والدي عقله. في بداية الظهيرة يجلس إلى طاولة المطبخ، وبه بعضُ الشمل، ويدمدم أن الناس في سلوفينيا كأنهم لا يعرفون عن الحرب شيئًا. ويطلب مني أن أظل بعيدًا عن كل هذا! مخاوفُ غامضة ومكبوتة منذ زمن طويل تستبد به مرة أخرى. فيظل أيامًا كاملة لا يذوق فيها طعم الهدوء، ويحس أنّ كل الناس يهجرونه.

قرأتُ في أحد الكتب شيئًا عن الآثار المتأخرة لصدمة الحرب، وأكاد أشعر بالراحة وأنا أطبَق دون عناءٍ هذا المصطلح الطبي على حال والدي الصحي. إنه هذا، بلا أي شكٍ هذا، وسيساعدني هذا في الدخول إلى أدغال التعقيدات الشخصية والسياسية. ومع ذلك فهل يمكن لكلمةٍ يوصَف بها مرضٌ بعينه أن يغيّر شيئًا؟ هل في الوسع أن أفك كروب والدي، وأجزئها، كما يقول الكتاب، إلى صلات عصبية، وخلايا كروموسومية؟

ما أغرب أن نتصوّر كيف يسع ذكرى كُروبٍ أن تلتحق بالحاضرِ، متخطيةً تصدعات الزمن وتشققات الكروموسومات، وتشعر به كغريبٍ وغير حقيقي، كأنها الحقيقة الوحيدة التي حدثت في الماضي، قبل فترة طويلة، طويلة جدًا، وكأن ما يحدث الآن ليس سوى تافهةٍ تُلهينا عمّا هو مُهِمّ وأهمّ.

يتحدث الكتاب عن غيابِ تقمّص مشاعر الغير في حيّز الآن، وانغلاق الإنسان في داخل جسده الذي يُغلق الأيض فيه على الماضي، مثل جرثومة من جراثيم الذاكرة، جرثومة حيّة تستولي في بعض المناسبات على الإنسان فتغزوه، وتفصله عن الحاضر برمته.

Twitter: @ketab_n

يولَد والدي من جديد بفضلِ ذكرى آلامِ الماضي، إن كان الأمر كذلك، وليس رقصةً من رقصاتِ ظلالٍ ثملة. يخترع نفسَه وفي تشنّج يرفض نفسَه. لا تنفرج حالتُه المتوترة إلا بعدما يشرب، لمّا يدخل جسمُه في خمولٍ فتيحرّر من كوابحه،، حيثما تذوب الحدود، حينما يتحوّل إلى كتلةٍ ليّنة على غير هدًى في قلبِ وعيه. عندئذ فقط يستطيع التنفّس، ويسعه أن يفجّر ويقذف خارج نفسه كلّ ما هو متشابكٌ فيها، ومكوَّمٌ، ومحصورٌ بين الجليد. رجل- بركان.

الحصر النفسي هو التنافرُ الكبير، هو التمزّق بينه وبيننا. فهو يشكل فيه نواةَ البقاءِ الذي يجعله لا يطيق أيّ إحساسٍ إزاءنا. فما إن يشعر به في داخل نفسه حتى يلفظنا. حياتُه تبدو كأنها تتركّز وتتكثّف في الساعات التي يَنزع منه فيها الكحولُ تحفّظه.

في مشهدِ الحصَر الأبوي، المتشعّب والمشوّه، الذي يبدو أحيانًا، حين يُنظَر إليه من الخارج، أكبرَ بكثيرٍ مما كان في الواقع، في هذه الأصقاع إذًا، ما من كلمةٍ واحدة تستطيع أن تغامر بمفردها. الكلمةُ المنعزلة التي أرسلُها لا يمكن أن تنطلق في رحلتها من مبدأ أنها ستصل إلى نواة الحصر عند والدي، وأن الحصَر سينحرِف عن طريقه حتى يُظهر نفسه. إيهْ، أيتها الكلمة، هنا بالضبط يجب أن تُصوّبي. فالحصَر على الأرجح لن يرغب في أن يكشف عن نفسه، فلن يدع نفسه ينقاد إلى حدّ الاستسلام إلى أيّ تسمية. حدسُ والدي سوف يقوّض اللغةَ أو الكلمة التي تقترب منه، مثلما هو يجعلني صمّاءَ بنوباتِ سخطِه، لأنّ صُراخاته كانت دومًا هي التي تنتصر على كلمتي.

أحيانًا، حين تستمرّ أمزجتُه العبوسة أيامًا طويلة، أجدني أشتبه في أن مشهد الولادة ربما هو الذي يُحدث هذا الاضطراب عنده. فهو يتصرف كأنه لا يرغب في أن يرى مروجَه وسفوحَه العائلية، كأنه يُؤْثِر الانسحاب إلى البيت وألا يخرج منه البتة، كأنه لا يرغب في أن تحيط به نباتاتُه المتوالدة المتكاثرة. هل هو المشهد الطبيعي

Twitter: @ketab_n

الذي يذكّره بشيء ما، هل هي ساحة المعركة الماضية التي تريد أن تسحقه؟

لكنْ مادام من العجب أيضًا أن يتعارك من خلف إسطبل، أو يسقط في حقلٍ من البطاطس أو تحت شجرة كرز، أو يُكتشَف في داخلِ قبو، فإنه من العجب أن يُطمَر عند قدَم شجرة سرو، أو تحت شجرة التنوب المعمرة المنعزلة. مثلما من العجب أن تكبح حربٌ مشهدًا طبيعيًا.

Twitter: @ketab_n

تبدأ الحربُ في بوسنيا وكوسوفو وكرواتيا. في شهور الحرب الأولى أسمع والدي، وأسمع العديد من الجيران، ومعارف يشكون ويتذمرون، لأنهم لا يستطيعون متابعةَ الأخبار على شاشات التلفزيون، ولأنهم لا يستطيعون أن يشاهدوا فيلمًا حربيًا، بل ولأنهم، ببساطة، لا يتحملون مشاهدة مثل هذا الفيلم. ضجيجُ الحرب المزعج، والقنابلُ، والقذائف تخترقهم، هُم، إذ تمنعهم من النوم لساعات طويلة أثناء الليل، وتجعلهم يتقلّبون ويتقلّبون في أسِرّتهم، وتدفعهم إلى التفكير في أولئك البؤساء الفارين من بيوتهم المحترقة. فالأمرُ ذهب إلى أبعد مما يحق له، فهل رجالُ السياسة لا يفهمون ما الذي يعينه كل هذا... أن ينجرّوا إلى الحرب هكذا؟

ذكرياتُ سكان الأودية تعاند وتقاوم، وتنتفض، وتستبد بهم مرة أخرى. بعد نهاية النازية كانوا ما يزالون يذكرون قصصهم، فيسردون ذلك الذي عاشوه وتكبّدوه، ولذلك يجدون أنفسهم اليومَ في آلامِ غيرهم. ثم جاء الخوفُ من الإقصاء لفرطِ سردهم لهذه القصص، ولأنهم غرباء في بلد يريد أن يسمع منهم قصصًا أخرى، ويعتبِر قصصهم قصصًا لا طائل منها. يعرفون أنّ ماضيهم لا يظهر في كتب التاريخ النمساوية، وأدهى من ذلك لا أثر له في كتب كارينثيا التاريخية، حيث يبدأ تاريخ الـ لانڈ عند نهاية الحرب العالمية الأولى، ثم ينقطع، ثم يُستأنَف عند نهاية الحرب الثانية. فالذين يروون هذه القصص يعرفون هذه الحقيقة، وقد تعلّموا كيف يصمتون عنها ولا يتكلمون.

ولكنهم الآن يستأصلون الذكرى، ويُخرجونها من كيسِها. ويدَعُونها تسقط، وكأنها سقطت سهوًا. على أمل أن يلتقطها أحدُ المستمعين. فلعل أحدهم سيرغب في معرفة المزيد. ألم يَئِنِ الأوان؟

Twitter: @ketab_n

بالطبع، المسائلُ لا تُطرَح بإلحاح. المتسائلون متحفّظون، وكأنهم يحرصون على تفادي التفتيش في جروح قديمة، وكأنهم يخشون معرفة الكثير، ربما حتى عن عائلاتهم وذويهم. سرعان ما تنتابُ كلَّ الذين يتهيّأون للسرد، أي أشباه الرواة هؤلاء، خشيتُهم القديمة من أن يروا كتاباتهم تُستعمَل ضدهم، أو ضد غيرهم، ومِن أن يروا عداواتٍ قديمةً تستيقظ من جديد، أو من أن يُشتبَه في أمرهم بصورة أو بأخرى. إذًا، أشباهُ الرواة هؤلاء يُسرعون إلى إخفاء ما سقط منهم في محافظهم، ويتصرفون وكأن مثل هذه الملاحظة قد فاتتهم سهوًا، مثل الغلطة. ولذا سيبدؤون في الصمت حالاً، إنْ حضرَ غرباء. وأنا، في نظرهم، شخصٌ غريب. إني أعرف هذا.

لكنّ بعضَ من لزِموا الصمتَ ينتظرون اليوم مَن يسألهم، وهكذا تطفو قصصُهم فوق الشفاه. لا يعرفون من أين يبدؤون، لأن قوة الذكرى تبلبلهم، فيتعثّرون من شخص إلى شخص، ومن سنةٍ إلى سنة، ولا يتّبعون تسلسلا تاريخيًا واضحًا، ويخلطون بين الأسماء والأماكن، وينطلقون من فكرة أنهم يعرفون، ويتحدّثون عن الأشباح، والمزارع، والأراضي التي لم تعد موجودة منذ فترة طويلة، بعد أن قوّضتها النباتاتُ الكاسحة أو غزتها. ويذكُرون حتى قصص الآخرين، وكل ما كان يمكن أن يحدث، وكل ما كان عندهم أخشَى ما يخشون.

عندما تصيرُ الطريقةُ المبعثرة التي تروَى بها هذه القصص كثيرة عليَّ أتساءل لماذا القصصُ تتجزأ في ضمير الذين يروونها، ولماذا ليست مرتبطةً بمجموعة أوسع، وكأن كلّ واحد تُرك وحده مع الحرب، وكأن انعزالَ الشهود كان جزءًا من استراتيجية النسيان. أبدأ في الحفر، فأطرح الأسئلة، وأفتّش عن متشابهات. كلّ ما أسمعه يؤثر فيّ. فهذا يرتبط بقصص الطفولة التي تحيّرت وارتبكت في داخلي. أحلّق باستمرار حول الهاوية التاريخية، حيث كل شيءٍ يبدو غارقًا تائهًا في أعماقها.

Twitter: @ketab_n

الحربُ تقلّصت وانحسرت في غاباتِ أوديتنا. مروجٌ وحقول، وتِلالٌ وسفوح، ومنحدراتٌ، ومجاري سيولٍ تستحيل ساحةَ قِتالها. بيوتٌ ومطابخ وأقباء انتزعتها هذه الحربُ من وظيفتها وحوّلتها إلى قلاعٍ محصنة. وضيّقت المشهدَ الطبيعي، وأخذته بين فكّيها، وقرأتْ الخارطة الجيولوجيةَ كأنها خارطة حرب.

ساحةُ المعركة لم تعد مرئية، ففي كل مكانٍ خطرُ الأكمنة، وكل ما هو مألوفٌ يتغيّر، والوجوه المعروفة تلبَس أقنعة. إقليمُ الحرب مُموَّهٌ، بلا تخوم، وبلا حدودٍ، مثل الكفاح نفسه. المعركةُ تتفكّك إلى مناوشاتٍ. وساحةُ القتالِ عند القرويين هي خزانةُ الأطعمة.

العدوُّ يكافح بالماء والخبز، وبالملابس، واللحم، وبالعمل والصمت. الجستابو يتستّر بلباسِ أنصار المقاومة، واللغة السلوفينية هي غطاؤه. تمر الجبهةُ عند أضعف نقطة. المحاربون يُستأصَلون من الغابات، من شَعْر زوجاتهم، وأطفالهم وأقاربهم. فمن خلال أُسَرِهم الواقفةِ في الحقول يحاربهم العدوّ، وليس في الخنادق. يعاقَبون عقابًا مضاعفًا، وحتى آخر أيامهم سيسألون أنفسهم إن كانت المعركة ضد النازيين تستحق منهم أن ينخرطوا في مثل ذلك الصراع، ويُسلّموا أقاربهم إلى العقاب الجماعي على أيدي النازيين. ففي المزارع تجري أروع المعارك، وتجري أسرعُ المحاكمات. قصصٌ صغيرة لا أحد يستطيع أن يشهد عليها، حياةُ الإنسانِ في الحال يُقبَض عليها وفي الحال يطويها النسيان. لا أحد يرغب في أن يَرى، ولا أحد يرغب في أن يصدّق. فما يشهده شاهدٌ شهادةَ العينِ قد يُفقِده نُعاسَه ولغته، لكنّ الجستابو يريد من الناس أن يتكلّموا، فكلُّ قطّاع الطرق الذين يراهم الناسُ ويعرفونهم يجب أن يبلّغ عنهم، في اللغة التي يجب، وليس في اللغة التي لا يجب. الأنصارُ، في المقابل، يشترطون الصمت، فلا أحد يحق له أن يعرف أنهم جاؤوا، وأنهم لم يُطيلوا البقاء.

Twitter: @ketab_n

هكذا بدأت الأشياءُ بعد أن طُردت المائتا عائلة الأولى من المزارعين السلوفينيين، من مزارعها، بأمرٍ من هيملر، وقد بدأ هذا بالخبز للأنصار، مع الحساء للمقاومين. إنه الخبز الذي يتحوّل إلى سلاح. الأعداءُ، هنا، يرتدون المآزر، والتنورات، ويحملون محافظ المدراس. من دون أن يعرفوا أنهم الآن، هُمْ المحاربون، تغطي شَعرَهم جدائلٌ وديعة، لم يمسكوا يوماً بندقية في أيديهم، ولكنهم مع ذلك متواطئون مع أولئك اللصوص الإرهابيين، لقد أعطوهم الأكلَ أو المأوى، مرّة أو أكثر من مرّة، أو ساعدوهم بشكل أو بآخر. لقد باعوا شرفهم، ساعدوا أعداء الرايخ، ولهذا السبب حُكم عليهم بالموت. وهم منبذون إلى الأبد.

وما تبقى هُم الأطفال الذين يُجبَرون على الاستماع إلى الشرطة التي تضرب أمهاتهم، وإلى الصرخات في آذانهم، والمنشورات في دلاء حليبهم، والأوراق المالية المخبّأة في جدائلهم، والرسائل المدسوسة في كريات الثلج، والقمل في شعرهم. البقيةُ هي آثار الثلج، التي يمحونها، هي نتانَةُ المدرسة، حيث يُضرَبون، لأنهم لا يعرفون الألمانية! الكاريتي يجب أن يعرف الألمانية ! وكل شيء يذهب في البنطال. يُدخِلون اللغة الألمانية في أصابعهم، ورؤوسهم، من فرطِ الصفعات وضربات العصي. وإلى اليوم ما زالوا يتبادلون التحية بهذه الكلمات. يا أيها الملوث بالغائط، بمؤخرتك الفائحة، أيها المتباكي، أما زلتَ خائفًا؟

إنه التاريخ وهو يسقط إربًا إربًا: أبٌ في الفيرماخت، وأبٌ هارب، وأمٌّ في رافنسبروك، والشقيقُ الأصغر، والأخُ الأكبر في داخاو، وفي شتاين على الدانوب، سجنُ الجستابو في كلاغنفورت، ماوتهاوزن، لوبلان، موريجان، شفيتز. ووالدةُ روزا التي تُطعِم جاسوساً وهي تظن أنه واحدٌ من الأنصار، ثم تدرك خطأها فتأخذ أطفالها الثلاثة وتفر إلى الغابة، وتختبئ فيها، وتركض بحثًا عن الأنصار، وترسل أطفالها عند جدهم وجدتهم. والأطفال الذين ينظرون إلى أطفال آخرين وقد جيء

Twitter: @ketab_n

بهم مُكبلين إلى أحد الرجالِ. وميمي ومعها صبي لا يجاوز العاشرة من العمر. والأطفالُ الذين يحضنون أمّهم عندما تأتي لتُلقي نظرة في عزّ الليل حتى تجلب الغسيل. والذين يرغبون في العودة معها عبر غابة العدو.

إنه الأبُ الذي سقط في المعركة، سقَط من أجل هتلر. وستانكُو الذي يرى عائلاتِ فِيفُودا التي اقتيدت إلى المعتقل، وسوبارْ وبريكْ، وسيمونْ الذي لا يريد أن يذهب، ويُفرِط في الشربِ حتى يفقد وعيَه، والشرطة التي تلقي به داخل العربة ذات الحواجز الجانبية، حتى تنقله من مزرعته. والثيرانُ الميتة فوق مرج ميكيجْ، وبطونُها المنتفخة، وأرجلها المرتفعة إلى السماء، فبعد بضعة أيام ستبدأ في النتانة. والإسطبلُ الذي دمّرته النار، والمزارعون الذين ذهبوا ليلتحقوا بالأنصار، والمحاربون الذين قُتِلوا فرقدوا في الثلج، وقد دُفنوا تحت كوماتِ الأغصان، وأرجلهم المتمايلة. ورؤوس الأموات التي تَتَهَزْهَزُ عندما يُنقَلون إلى القرية على العربة ذات الحواجز الجانبية. وبقاءُ الأبقار بالقرب من القبور الحديثة، والحربُ، والصيفُ، والثلج.

لم يتعرّف أحدٌ إلى حذاء الأخ الذي قتلته الشرطة وأخفته، فِنْسَانْ المدفون بجانب إسطبل شقيقته، لا أحد تعرّف إلى الحذاء الذي ينتصب خارج الحفرة. ففيما بعدُ فقط، بعد أسابيع، تكتشف جدتي، التي أدعوها بيكا، أنّ أخاها هو الذي يرقد هناك تحت الميزاب، هو وواحدٌ من الأنصار، من خلف البيت، في قلب المرج، مدفونان في الثلج. وفي الربيع الكومةُ المدمية التي لا تعرف كيف تذوب عن جليدها، وبيكا التي لا تغادر سريرَها، فهي مستلقية، منهكة إلى حد الموت، مثل الميتة. لا تتكلم، ولا تأكل. الأطفال يرعون البهائم، ويطبخون لوالدتهم. يتوسلون إليها أن تقوم، وأن تصير مثلهم، امرأة راشدةً.

الشرطة تطارد الأنصارَ في وضَح النهار، وليس ليلاً. حول البيت المحاصرِ دوريةٌ بأكملها. عشرون، ثلاثون، أو أربعون، أو خمسون رجلاً، ضد النساء والأطفال، والظلال في الغابة. أصواتُ القتالِ في المنزل، في المرج، وأمام الإسطبل. المزارعُ التي تحترق، والثقْبُ في صدر النصير الميّت وهو يرقد أمام باب المنزل، بعد أن اخترقَه

Twitter: @ketab_n

وابلٌ من نيران الرشاشات. وصرخاتُ آنا التي تركض حول المنزل حتى الإرهاق، إلى أن تحس بهزيمتها أمام الحرب التي لاحقتها حتى المطبخ. والسائلُ الأخضرُ الذي تتقيؤه ميركا عندما تعلَم أنّ زوجَها توفي في داخاو. والصبية التي علّقتها وحداتُ النخبة المسلحة من رجليها والتي تشهد فيما بعدُ مشهد تعرض والدها للتهديد من الأنصار. والصفعاتُ، ورؤوسُ الأطفال التي أصابها الصداع، فيما الشرطة تُفرِغ خزائنَ الأطعمة حتى لا يبقى شيءٌ للعصابات التي تتواجد في كل مكان، في العلف وفي الإسطبل، وفي الغرفة الصغيرة الضيقة. ومؤونةُ الأنصار المخبأة، حتى تُفلت من قبضة الشرطة. والمحاربون الذين ينزفون في الأقبية والمخابئ والغرف، بعد أن أصابتهم عياراتٌ نارية. لا ضوءَ في المطبخ، وفي ظلامه جسمُ النصير المرتجف الذي ظل يُدهَن بالخلّ ويُفرَك بالخلّ طوال الليل. وماشيةُ كاخ التي تخرج من الإسطبل بخطى سريعة. وزوجةُ المزارع التي تركض مع أختها لتلتحقا بالأنصار، وتُقتَل. والرجلان، جوري ويوهان اللذان يُقبَض عليهما مع ماريا وآنا. ومن جديدٍ الجثامينُ التي تأتي من رافنسبروك، ولوبلان...مات فلان، توفي يوم...، وأسماءُ الأموات الثمانية المنشورة أمام المزرعة التي أفرغها اللصوص، والتي لا تستعيد حياتها بعد الحرب وتتحول إلى أنقاض. والمعارك التي تجري ليس بعيدًا عن المدرسة، والأطفال الجاثمون فوق أرضيةِ الفصل، وهم يرتعدون من الخوف. والألمانيان اللذان يشربان اللبنَ في بيت دِمْنيك فيُقتَلان في المرج، وينضح الدمُ من سُترتيهما، ويقطر اللبنُ من بطنَيهما. ونساء فِيفُودا اللواتي يُقتَدن إلى الغابة، في رافنسبروك، وأوشفيتز. وتمكثُ كلاري في أوشفيتز. وفي وِلاشْ مرّة أخرى تُصادَر الثيرانُ وتختبئ كل العائلة في الملجأ. وجدي الذي يصاب في بطنه برصاصة. ووالدي الذي بعد أن شاب رأسُه عند الأنصار يكاد يفقد شعره كاملاً في ليلة. وفي بورغاس كلاغنفورت، التعذيبُ الذي يُضطر السجناء لسماعه حتى يكشفوا في النهاية عن مكان الآخرين. والمارة الذين يبصقون على السجناء عند نقلهم إلى محطة القطار أو لدى عودتهم إلى السجن. وماريا، ماريا الفخورة التي لا يعني فنُّ الخياطةِ في بلدي شيئًا، والمآزرُ المزخرفة التي تلقتها

Twitter: @ketab_n

لعيد الميلاد أو عيد الفصح. إنها تصدق هؤلاء الرجال، الذين يدّعون أنهم يعرفون شقيقَها يوهان، أولُ الأنصار، كادروفيك الأخضر، إنهم يرغبون في الانضمام إليه، عليها مساعدتهم إذًا. وهذا ما تفعله، فهي تصدّقهم، هؤلاء المقاتلين المرتدّين الذين يدّعون أنهم يعرفون الكثير من الأشياء، إنها تثِق بهم، إلى النهاية، إلى أن تمتلئ الغرفةُ الكبرى في بيت المزارع غولوب في أبرياخ، بالجيران والنشطاء، وإلى أن تدرك أنهم محاصرون من قبل الجستابو الذي يعتقلهم، وإلى أن تمتلئ بهم سجون كلاغنفورت وبيغونج. فريسةٌ ممتلئة تقع في الفخ. وقائمةُ أسماء أنصار القرية والمناطق المحيطة التي يُعثَر عليها في زيلْ، فتليها عملية عقابية، ثم الإعدام. وماريا، الجميلة الهادئة، في ٤٢، المغمَى عليها، المضروبة ضربًا شديدًا، أمام محكمة فريشلر. ما من بقعةٍ على جلدها لم تتعرّض للضرب والجرح. جسدٌ يصمت، ويحمِل إليه بردُ نيسان الموتَ. وفي العام ٤٣ الفأس تقطع رأس شقيقِها ميخايل، فيلحقها إلى عالم الموت، في محكمة فيينا. والعائلة الممزقة، الأم التي تُأخَذ إلى رافنسبروك، والأب إلى شتاين على الدانوب. وتبقى مسبحةُ المعسكر، والحبات المشكلة من الخبز المنقوع في اللعاب وهي تنزلق من بين أصابعه. الحربُ مزّقت أيضًا جميع الإخوة. جُرجِي الذي يسكن وهد لُوبنيكْ الذي طرز على منديله قبل أن يُقطع رأسه، كلمات أنتظرُ، أؤمنُ، آملُ، أحب. واثنان من الأنصار في غرفة كبيرة في منزل بستريكنيك، المحاصَر من الشرطة، وأمام الباب العمّة التي فارقت الحياة بعد طلقة نار. ومن وراء المنزل محاربٌ مقتولٌ بعد تعذيبه عند الجار. وجُثثُ الأنصار العارية التي تُحفَر قبورها تحت شجرة التنوب، من وراء المروج على تخوم الغابة. فالقبور في الثلج والجثثُ نتِنة. والدم في القبو السفلي، والمخّ الذي يرشّ بدمِه حبّات اللفت، والدم على الرفوف، والخادم الذي يصرخ، بعد أن ضربه الأنصار ضربًا مبرحًا. وبناتُ بسكيرنيك وهنّ يغنّنّ قبل أن تعلن محكمةُ الأنصار السرية قتلهن. وفرانزُ الهارب الذي يقتله الأنصار في ملجأ هفيلنيك. والإخوة الثلاثة، يانز وجاكوب وفيليب، الذين يعالِجون مصابًا من الأنصار، والقبض عليهم من الجستابو، وعودة جثثهم إلى المزرعة اليتِيمة. والهروبُ

Twitter: @ketab_n

بعد القبض، وما أكثر طرق الهروب.

وجوهان يونيكْ الذي يفرّ أثناء القبض عليه، وجدّه ووالده وأمه الذين تضربهم الشرطة وتقتلهم وتطلق النار عليهم. وهو الذي يرى بأمّ عينيه حمّامَ الدم، والجثث التي يرمَى بها فوق كومة الروث، ثم تُحرَق. وباولا التي تُفلت من الأسر بعد اعتقالها، بعد أن مات والدُها تحت التعذيب في سجن الجستابو في كلاغنفورت. مات من تمزّق في المثانة، ومن فشل كلوي. تهرب باولا بعد أن تضع أمها مولودًا في أيشاشْ، بنتًا، كائنًا ناعمًا جدًا. تفرّ بعد أن تصادر الشرطة ثلاثين غنمًا، واثني عشر ثورًا وحصانين. تهرب أثناء اقتيادها إلى السجن، كما فيما بعدُ يفرّ الأخوان جاكوب وجوزيف. نجاةٌ في آخر لحظة. وكذلك إيفانكا ومالكا، وماريا وكل الآخرين. هكذا تصير النساء من الأنصار. والأطفال الذين ينتظرون في بيوت الأيتام عودة الآباء، ويقلعون القمل من رؤوسهم، وزيارتهم للسجون، وتوسلاتهم، ودعواتهم، وبكاؤهم. الأطفالُ الذين لا يتعرّفون على أمهاتهم لمّا يعدن من المعسكرات، وقد صرن عجائز، وغريبات. والآباء الصُّمْتُ وتصرفاتهم الغريبة. وبرنادا هيرتل التي ولدت في رافنسبروك، وتنجو من الموت. بفضل مساعدة تينكا التي أخذت الأم إلى بيتها مع طفلها ذي الخمس أشهر. وجثثُ عائلة برسمان التي تُركت هناك والتي وُضِعت بعد أيام عند بيت راستونيك خلف الإسطبل. وأسرابُ الذباب فوق توابيتها النّتنة. لا أحد يقول إنه على استعداد لحفْرِ القبور للعائلة. وحده الكاهنُ زيخنر، يحفر بلا كللٍ طوال الليل، مع مارتا، إلى أن يجرؤ آخرون الانضمام إليه على أمل أن ينتهي هذا الكابوس، وأن ينتهي هذا الألم إلى الأبد. والأنصارُ المطاردون في آخر شتاء، والانتصار الذي بات في متناول اليد، لا إلا ولا لكنْ! يريدون أن يُحمَلوا. لا بد من إحضار السرج، وقتْل الثور، وإعداد الخبز، واحتلاب الأبقار، وإعداد الكعك، وإعداد الملابس. والحفل يجب أن يقام. واليقين بالانتصار، والاشتباه العام من كل واحد تجاه الآخر، واستجواب الواشين المزعومين، والكومندو السري لتنفيذ الاعدامات، والقائد، القناص العنيد.

Twitter: @ketab_n

حياة المحاربين البائسة، والجوع الدائم، واللحم النيّئ الرهيب الذي يستحيلُ طهيُه، لأن النار ستفضحهم جميعًا. ولا لبن، ولا خُضار، والجروحُ التي تنضح، والبرد، والقذارة. كل هذا، يقول تينْ، لن يتحمّله إلا بفضل اليقين بأنه حارب شؤم الدّمار، النازيين، وأنه أدى شيئًا ضدّ الحرب الشاملة. كان واحدًا من الأنصار لثلاثِ سنوات، ثلاث سنوات من الكفاح ضد النازيين، لا تحاولوا خداعه، فهذا يقوّيه في ساعات الشك، ولا شيء غير هذا. غير هذا لا شيء.

Twitter: @ketab_n

كيف يعود الناجون من الموتِ حين تضع الحربُ أوزارها؟ هل سيعودون في السر، هاربين عبر زوايا القارة المخبأة وتخومها؟ فرادى كانوا أو زرافات، هل سيصلون من الغابات أو من المعسكرات، وهل سيبحثون عن مسالك العودة؟ هل سيقتربون في حذرٍ من مزارعهم المنهوبة، المدمَّرة أو المحروقة. هل سيظلون هاربين وقد سكنهم الشعور بأنهم تصرفوا عن خطأ؟ هل هم منتصرون أم مهزومون؟ هل سيذكرون أسماءَ الأموات، أم سيرغبون في نسيانها ؟ هل سيجدون لغةً لآلامهم التي تحمل ليس انتصاراً وإنما خراباً؟

يشعرون أنّ آخرين سوف يأتون ليأخذوا الحياةَ التي حطّوا رحالهم فيها، أولئك الذين يستطيعون أن يسردوا قصةً متجانسة حيث هُمْ لا يملكون سوى أجزاء مبعثرة منها. يشعرون أنّ من بينهم، من بين الذين كُتِب لهم البقاء، والمنتصرين، هنالك خاسرون ومهزومون آخرون. يشعرون أنه ما من بدٍّ من أن يحجموا عن الأمل، لأنهم لا يملكون منه سوى ما يكفيهم لكي يقاوموا، وليس أكثر.

البريطانيون يفتّشون منازلهم، بحثًا عن أسلحة، وعن عتاد الدعاية، لأنّ أنصاراً قدماء ممّن يطالبون بضم يوغوسلافيا قد يهددون الحدودَ من داخل بيوتهم، الحدود التي ينبغي الدفاع عنها مرة أخرى.

حلفاءُ الأمس ينقلبون إلى خصوم. والشيوعيون يفرزون بين المحاربين. ما بين الصالح والطالح. هذا مِنّا، يقولون، وليس ذاك، فهذا كان محاربًا متحمسًا، وذاك لا. هذا سياسي، وثوري، وذاك لا، إنه مراوغ، ويتحاشانا، فهذا لا. الشيوعيون النمساويون يُقصون الشيوعيين السلوفينيين من الحزب، والكنيسة تتوعد بفصل

Twitter: @ketab_n

عائلات الأنصار، وتقول لها صراحةً أثناء القداس، أنها لن تجد شيئًا في الكنيسة، طالما ظلت تؤمن بالأنصار. مفرزةٌ من محترفي اللكمات تهجم على المظاهرات الثقافية السلوفينية الأولى. وسلطاتُ كارينثيا الإقليمية تفتح تحقيقاتٍ لمعرفة من ارتكب من السلوفينيين جرائم قتل، ومَن بلّغ، وأوقَف، وقَتل خصوم الأنصار بعد الحرب. وليس أكثر من هذا، لأنّ أكثر من هذا ليس في صالحها. لا تستوضِح شيئًا ولا تطرح أسئلة، ولا تذكر أي شيء. عليها بلباسِ معطف الصمت. فتلك قصصٌ خاصة.

في زمن السلام، هل تمزَّق الغنيمة؟ في زمن السلام هل يخشى الناس أن يفقدوا صوابهم . طرْدُ الصديق من البيت واحتضان العدو؟

المتردّدون ، والمتحفّظون، المصدُومون، والمرتعِبون، والهادئون، والمشوَّشون، جميعُهم سيجدون أنفسهم من تحت. فالسياسة التي تسبّبت في الحرب لن تأخذهم بهم أيُّ رأفة. أما الجرحى، أيا كانت الأسباب، فسوف يُهمَلون. فلِفتادي استفزاز أغلبية أتباع النازية وأعداء السلوفينيين سوف تتنصّل الدولة الجديدة من مواطنيها الذين حاربوا القومية الاشتراكية. لأنه، يقال، أنّ ما كان مشكوكًا فيه في هذه المعركة ليس لأنها كانت معركةً ضد النازيين، وإنما الفضيحة أن هذه المعركة أتاحت لها أن تبني تصورها الخاص عن مستقبل سلوفينيي كارينثيا، التي كان يجب أن يحسَب حسابُها خلال المفاوضات حول دستور الدولة النمساوية. وكأنه لم يبقَ سوى هذا، واجبُ العمل من باب الحل الوسط، على تأمين قانونٍ سخي لحماية الأقليات، كرد فعل على المطالب الإقليمية اليوغوسلافية، عملا بطلب المحتلين ! فيما النمسا لم يكن لديها أيُّ عداء ضد النازيين، بل كانت هي نفسها ضحية. فلم تفهم شيئًا، ولم تورّط نفسَها أصلا، ولم تكن هناك في ذلك الوقت العويص. لا أحد في جنة النفاق والرياء هذه كان يتمنى أن يرحِّب بالنازيين، ولا أحد كان يمني نفسه بمجيء الرايخ الألماني، ولا أحد ارتكب الخطيئة، ولا أحد مارس الحل النهائي، فقط شارك بقليل من الرماية، وفي الاغتيالات، وفي التعريض للغاز. لكن هذا لا يحسَب. لا شيء يُحسَب.

Twitter: @ketab_n

السياسةُ تؤمن بلغة الحرب. السلوفينيون المسيّسون سيلقون نظرةً من دون فهم على السلوفينيين الذين لا يفقهون في السياسة، لأنهم هم الذين فازوا بالحق عن طريق الكفاح، ولأنهم ألزموا أنفسهم أن تظل هُوياتهم معلومة، وأن يظلوا قابلين للطعن، وأن يُستخدَموا وقاءً عازلاً لتخفيف الصِّدام. لقد لجؤوا إلى العمل، بينما الذين حُطِّموا ساكتون، ويرفضون أن يفهموا لماذا كفاحُهم من أجل البقاء يجب أن يقدِّم ذريعةً لانتصار إيديولوجية. الثورةُ وعدٌ ليس أكثر من هذر.

المزارعُ لا تتحرر إلا بتوانٍ من هيمنةِ الحرب. بتوانٍ تقف المروجُ والحقول على استعدادٍ لاستعادة موتاها، وفُرجاتِ غاباتها، وأطرافها، وطرْح جثامين موتاها. هكذا تكون المروج قد احتضنت موتاها الذين رقدوا فيها مثل يساريع غريبة عفِنة. ولن تستطيع الثعالبُ بعد اليوم أن تقضم أرجلَ الذين دُفِنوا فيها على عجل. وأطرافُ الغابات تستطيع أخيرًا أن تصير مرة أخرى أطرافَ الغابات، والمروجُ مروجًا والحقولُ حقولاً. سوف يسأم المشهدُ الطبيعي الواقي من أولئك الذين أطالوا اختباءهم فيه، وسوف يكشِف عن سفوح جبالِه، ويمدّدُ إلى الشمس منحدراته الجرداء. وسوف يعلن هدوءُ المشهدِ السلامَ على سكانه. فلن يُعرّضهم للفرار بعد اليوم، اللهم إلا حين يحين المطر والبرد. وسيعود الأهالي إلى الحقول والمروج. سيُغيّرون السياجات ويزرعون البذور. وسيغرسون السفوح الظليلة. وسوف يعمّرون السفوحَ الوعرة، في المنحدرات المظلمة، وفرجات الغابات المضيافة. وسوف يشرعون في العمل في غابات الكُونتْ، ويُرمّمون البيوت. سوف تُنفِق الغاباتُ وقتًا طويلاً في إقصاء نفوسهم من حضرتها، لأن الدمَ في الغابات سوف يواصل نزيفه من الجروح التي يتكبّدها الحطّابون من المناشير والفؤوس، ومن الأغصان التي تنهار، والجذوع المتدحرجة نحو الوادي. جروحٌ يتدفّق منها الدم، جروحٌ لا تشبه الجروحَ التي تتسبب فيها العيارات النارية والقنابل. جروحٌ تتفتّق وتنفجر. الدمُ الذي ينبثق من عروق المحاربين، بوتيرة نبضهم، والقيحُ، ولحمُ القَنيصة المعطّر، ورائحةُ الفطر والعفَن، ونداوةُ الحِراج، وطيبةُ الغابات. الغابةُ ما تزال قادرةً على العطاء. تستطيع أن تنشر أغصانها

Twitter: @ketab_n

من فوق البشر والبهائم، وأن تتيح للكائنات المنهكة أن تنام فوق أغصانها. تستطيع أن تبسط أغصانَها الكثيفة فوق أضرحة الرجال المطاردين والقتلى، وأن تمنح أغصانها كآخر لُقمة. تستطيع أن تحتفظ بهدوئها، بينما فوق الأرضِ يجري إفراغُ اليحامير والإيلة. الغابة لا تملك الأنينَ ولا البكاء، والأشجارُ لا تُسلّم ذاكرتها إلا بعد أن يتمّ قطعها. ذاكرةٌ تختفي في حلقات جذوعها، وفي اعوجاجاتها، وقُرحاتها. الغابةُ تنمو ببطء، مع أنفاسِ الأشجار البطيئة. تنمو منذ الماضي نحو الحاضر، لكنها تنمو في النهاية.

ناجون كثرٌ سوف يُهمِلون مزارعهم. فلن يرغبوا في استغلال أملاكهم، لأنّ الحرب طبعتهم بطابعها. سوف يُجوِّعون بصمتهم ذكريات الحرب. وسوف يخشون من أن تُكتشَف جروحُهم، وآلامُهم، لأنّ ذلك سيزيد في خزيهم. وبعد سنواتٍ سوف يخشون أيضًا أن يصفوا للقائد السابق، وهو رجل سياسي من اليمين المتطرف، وطبيبٌ في الأمراض العقلية، وخبيرٌ رسمي من اللاند، ما تكبدوه من تعذيبٍ على يد النازيين. فلن يطيب لهم أن يخضعوا لفحص الضحايا المتأخر من قبل خصومهم. ومع مرور الزمن سوف يتلاشى معنى كل هذا. فما عاشوه سوف ينتثِر على الأرض مثل الحطام، في انتظار سياق الأشياء الذي سوف يدمِّر ويقوِّض.

أما الآخرون الذين لم يسعفهم النسيانُ فسوف يبحثون عن معنًى لما عاشوه، وسوف يعيشون هزيمتهم. ففي بلدهم لا يسعهم أن يستندوا إلى الحقيقة التي تقول إنهم فعلوا ما كان يجب أن يفعلوا، فسوف يُسألون، بل سوف يسألون أنفسهم بأنفسهم، ولن يجدوا من يمدّ لهم يد المساعدة. وسيتساءلون لماذا يُجرجِر السلوفيني الضربات دائمًا. شعبٌ متماسك وممزق، يمزقه الألم. وقليلون هم الذين سيفكرون في السبب الذي جعلهم يخونون شخصًا من الأشخاص، عن قصدٍ أو سهوًا، عن رعونة أو عن إهمال، عن أنفة مصدومة، أو عن انتقام. وكثيرون هم الذين سيجترون السؤال حول مَن بلّغ عنهم، ومن خانهم، ومن أوصل عائلاتهم إلى الخسارة. وجميعهم

Twitter: @ketab_n

سوف يحسون أن الظروف والشبوهات لا تكفي لتحمّل الآلام، وأنه من الأفضل كبح ظلال الحرب ، والهروب منها، بالزواج والقربى، لأن الحياة يجب أن تستمر. يجب أن تستمر بأي صورة من الصور.

سوف يتآزرون ويحيُون حفلات الزواج، ويقتربون من عائلات جديدة. لن يتجاوزوا خشيتهم، بعد الحرب سوف ينساقون من جديد نحو التظاهر من أجل المزيد من العدل، والمزيد من الخبز، ومن أجل جوزيف بروز تيتو، في إيسنكابل. وسوف يواجهون المتعصّبين للغة الألمانية. وسوف تتحرك القبضاتُ، وتُشهَر الهراوات. الرجال والنساء سوف يتضاربون، وأهالي الأودية سوف يخفقون، ويعودون إلى بيوتهم وأكواخهم، ولن يثقوا بعد ذلك في أحد. ولن تجعلهم السياسة بعد ذلك اليوم يقتربون منها عن كثب، ولن تعرّضهم بعد ذلك للخطر، ولن يحق لها أن تنفذ فيهم حكم الموت. سينتظرون إلى أن يقرّر البلدُ الذي تخلى عنهم فيما كانوا غارقين في الضيق والشدة، أن يحتضنهم أخيرًا، ويستنكر الذين قتَلوا من بينهم، وأن يفتش عن أسمائهم، ويشاطر حزنهم، ويكرّم مقاومتهم. سوف ينتظرون عقودًا من الزمن. وسوف يلاحظون مدى تقاعس طواحين العدل في دورانها في هذا البلد، وبأي ثقلٍ تتحرك دواليب الإدارة، وبأي مضضٍ تعالَج آثارُ النازيين. لا داعي للسرعة، لا داعي للفْت النظر، حتى يتسنى لكل شيء أن يتلألأ بجمالٍ ثابت لا يتغير. حتى لا يحدث أي طارئ، حتى لا يعود النازيون. سيلاحظون أن التدمير، حتى بعد التغلب عليه توًا إذا به يُنتج نبتًا غريبًا، وأنه يجدد نفسه،، وأنه يُبرعِم من دون أن ينتبه إليه أحد. وأنه لا يمكن أن يحول دون ظهور استيهامات الموت. أكثر الناس تفاهةً سوف يستسلمون لإغرائه، وسيقتل بعضهم البعض الآخر بطلقة نار واحدة. وسوف يشنقون أنفسهم. وسوف يتغطون بالبنزين ويحرقون أنفسهم. سوف تسأل عائلاتُهم مَن زرَع هذا اليأس لدى أقاربهم، ومن ترك هذه الظلمات فيهم. وسوف ينحنون أمام ما لا يمكن أن يتراجع إلى الوراء. وسيضرب الآباءُ أبناءَهم، وسوف تخشى الفتيات آباءهن، وسوف يفرض الأزواجُ الصمتَ على زوجاتهم.

Twitter: @ketab_n

المزارع التي يغزوها البردُ تبدأ في السقوط إربًا إربًا، لكنّ الذين يغادرونها لن يتركوا وراءهم كربَهم فيها. سوف يحلُمون بقليل من السعادة المتواضعة، وبإمكانية الحصول على الراحة والعمل، وبتأمين معاشهم، وبالزواج وتربية الأطفال. وسيشعرون أنهم في النهاية استطاعوا أن يُفلِتوا من زمنِ النحس والشؤم. أحيانًا فقط ستلاحقهم صورُ آبائهم المتوفين أو الذين قُتِلوا، في وميضٍ يتسرّبهم حتى النخاع. وسيشعرون أنّ أشباحًا قد لامسهم، فنجبرهم على إسدال الستائر، وعلى الجلوس. ثم وبعد هنيهة، يقفون ويملأ الحصرُ صدورَهم، ويفتحون النوافذ، لينظروا منها في الخارج، ويستمتعوا برؤية المارة، والبيوت والشرفات المزهرة، والطرقات، والهدوء الذي بدأ يستقر في نفوسهم. الحاضرُ سوف يستولي عليهم، وسوف يُرتّبون في داخل علبةٍ وجوهَهم الجريحة، ويضمّونها إلى الصور الباهتة. وسوف يحمِلون وجوهَ يومَ أحدِهم المقدس وهم يتباهون بالثقة والسكينة.

Twitter: @ketab_n

يَقبَل والدي التحدي ويتقدّم لغاية بيت والديه. وبمساعدة جدي يعيد تركيب النوافذ والأبواب، ويعيد ترتيب السقف. ويضع البهائم الأولى في الإسطبل اليتيم. الحربُ غيّرته. في عامه الثاني عشر يشعر أن العنف والخوف من الموت صار لنفسه أمرًا مألوفًا. في الليل يستيقظ في سريره باكيًا صارخًا. يسمع سبابَ الجد، ولا يريد أن يذهب إلى المدرسة لما يمرّ موظفو الأنصار لإقناع جدي بإرسال ابنه إلى المدرسة. فهو يستطيع أن يعمل مع والده في الغابة. وعند الخامسة عشرة يغرز فأسًا في ساقه، وفي الطريق إلى البيت، الذي يجب أن يقطعه وحده، يُغمَى عليه مرّات عديدة، ويكاد أن يلفظ فيه أنفاسَه. ويمضي أسابيع في المستشفى، ويُجبَّس. وفي الغرفة يلقِي به زميلٌ مشاكسٌ عند قدمِ السرير. يُلبِسه أهلُه ثيابًا جديدة. لكنّ البدلة الجديدة لا تناسب الحذاء الكبير الذي تملؤه المسامير. يتعلّم العزفَ على الكلارينيت، ويؤدي العزف في حفلات الزفاف. ويصبح، كما يقولون، نديمًا دعِبًا. وبالمال الأول الذي يحصل عليه يشتري دراجةً نارية وسُترةً جلدية، وعلى الدراجة النارية يذهب إلى المدرسة الزراعية السلوفينية في فوديرلاك. يذهب إلى المدرسة، ويكتب مواضيع الإنشاء، المواضيع الأولى عن الزراعة الصالحة لتربية الماشية وصيانة الغابات.

سيمارس المسرحَ، ويمثل على خشبات الدير، ويقلد صاحب أحد المطاعم بشاربٍ مزيّف ومئزرٍ أبيض. ويمثل دور شرطي مسالم. يجهل إن كان يعني شيئًا على المسرح، يقول بعد أن يُضحك الناس، وبعد أن يختمر شرابُه. يتقدم لامتحان بكالوريا الصيد، ولم يعد بعد ذلك يصطاد صيدًا محرمًا عبر أراضي البلد. ويقع في الحب، ويرغب في الزواج من الشابة كارلا. نريد عاملاً في المزرعة، تقول جدتي، لأن الوقت حان للمشاركة في العمل. وفي يوم زفافه يشعر بالبردِ ينساب إلى كامل جسده. الخمولُ الذي كان يستولي عليه وهو طفل، والشعور بأنه غريب، وللقلق

Twitter: @ketab_n

من أن يجتمع اثنان، أو ثلاثة أو أربعة. يشعر أنه تزوج من امرأة خادمة، عاجزة عن مساعدتِه. ولا يستمتع كما استمتع في يوم خطبتِه. لا يطلب زوجته إلى الرقص، ولا يبحث عنها عندما تذهب إلى الحمّام لكي تبكي. يريد أن يجرحها، أن يُبعدها عنه، منذ البداية، حتى يبقى كلُّ شيء على حاله. حتى تعرف زوجتُه اليأسَ وترى حبَّها تحت الاختبار. يعمل في غابات الجيران، ويفي بنفقات الشهر. وعلى مدى سنواتٍ في عزّ البرد سيجر بحصانه الأشجارَ المقصبة في غابات الكونتْ. وينظر إلى أطفاله وهم يلعبون، ولا يعرف إن كان يخشاهم أم يُعزهم ويدلّلهم.

يجلس عند الجيران ويروي القصص، اليوم الذي مشى فيه في وكر الزنابير، واليوم الذي سقط فيها من شجرة الإجاص، والغصن المكسور الذي دخل في عينه، وكلبه الذي لاحَق الغُرير، والثعلب الذي دمّر خمّ الدجاج، والأرانب المقتولة التي كان يخفيها عن الصيادين، والأفعى القرناء التي استطاع أن يفلت منها، والخنزيرة البرية التي اعترضت طريقه، والصاعقة التي سقطت فوق أشجار الصنوبر، وديك الغرويير الذي لامسه، والأيل الكبير الذي لم يصبه. ويزرع أشجار الفاكهة كما تعلم زراعتها، بعيدًا عن الرياح. ويتعرّف إلى تيارات الهواء الشمومة. ويشجب أشجار التفاح حتى يمنحها أشكالا متناسقة. ويطعّم أشجار الكرز والإجاص، ويدخل فيها غرساتٍ جديدة. وفي القبو يحفظ الأفنان التي يُعدها بعد أن يغلّفها في قطعة من الكتان. وعندما يحل الربيع يقطعها ويطعّم بها الأشجار. وبعد أن يدهن الحزة ويشدّ اللحامَ يتحدث بهدوء إلى الأشجار ويُقنعها بقبول الطُّعُم. ويحدد وضْع الحقول، ويُخرج العلفَ من الإسطبل، ويحرث الأرض. يُمرّر التربة بين يديه ليحكم إن هي لا مفرطة في رطوبتها ولا هي مفرطة في جفافها. وإن كانت التربة سهلة الحراثة، والمدَر سهلة الانكسار. وبمحراثه المزدوج يحفر أثلامًا مستقيمة، وإلينا نحن الواقفين عند رافعة الأثقال، يوجه إشاراتٍ وهو يصيح متى نُشغّل المحرك ومتى نوقفه. ويمشط الحقل وينثُر البذر، ويحش القمح ويجمعه في ضمّات. وفيما بعدُ يوقِف الحبوبَ ويترك البرسيم يغزو الحقل. ويبيع الحصان ويشتري جرارًا، ويجسّ ويمدَح بطون بقراته الثلاث

Twitter: @ketab_n

عندما تكون ممتلئة. ومع والدتي يسهر على الأبقار أثناء نَتاجها. ويبسط على الأرض فراشًا نظيفًا وجافًا. وينتظر إلى أن تظهر الأرجلُ قبل العجل، ثم رأسه. وإن بقي الرأسُ مختفيًا وقتاً طويلاً، وإن كان العجل في وضْع عرضيّ يذهب على عجل في طلبِ بيبي. ويخلع المخاط من رأس المولود الجديد. في كل عام يُعدِم خنزيرين، فيصرع البهيمتين بطلقة من مسدس صرع البهائم. ويقطع حلقيهما، ويجمع الدمَ في سطلٍ، ويأمر بحمْل السطل إلى المطبخ. ويكشط جلد الخنزيرين، ويرفعهما من أرجلهما إلى سلّم، ويقطع الرأسين، ويفتح البطنين، ويستخلص الأحشاء، ويعلّق في مشبكِ المصارين والأمعاء. وينشر البهيمتين إلى قسمين. ويربّت عليهما من أعلى إلى أسفل، وهو يلفهما بالمدح والإطراء. ويحمِل الأمعاء في عربة لغاية السيل حيث تُغسَل وتكشَط بساقٍ من الخشب، إلي أن تصير شفافة. الكروش ناصعة في الدلو الأبيض، مثل حبلٍ لزج. ويحمِل إلى غرفة المؤونة المبرّدة الحيوانين وقد صارا لحمًا، ويقسمهما إلى قِطع. ويجسَ طبقةَ الدهون، والكتفين والظهر، ويداعب البطن والرأس الشجاعة، واللحم الطيب. ويضيف إلى اللحم المقطوع والمفروم خلطته الخاصة من البهارات، وهو يتمنى أن تكون النقانقُ طيبة هذه السنة، وأن يكون الجمبون لذيذاً طيبًا. وفي الشتاء يُقطّر كحولَه المستخلصة من شجر الكتش، وليل نهار يسخن المقطار بعصارة العنب، ويراقب المعصار، ويذوق المقطّر. وعند مروره الثاني لا يفارق النار بعينيه حتى يسيل القلبُ، موضوع شغفه في التقطير، طويلاً. وبسكينة يحفر في جدار محمصِه عددَ اللترات التي حصل عليها. ويغرس حُبكًا، ويبني حواجز، ويحش العشبَ، ويُدخل العلف. ويُصلح الأدوات، ويغيّر مقابض المذاري، ويشذب بمسحاج أسنان القشّاشة الخشبية. ويصقل فوق منضدة عمله الألواح ونعل الجدران، ويدهن الحواف بالغراء، ويشحذ منجله. ويبني بيتًا.

ولمّا يُنهي عمله يعبُر الفناء، منهَكًا، ويجلس عند عتبة البيت، أو ينهار خلف طاولة المطبخ. سوف يشعر أنه بلا قيمة، ومحرومٌ من الكلمة. وسوف تجعل منه آلامُ الرأس والبطن جسدًا يئنُّ أنينًا، ويقطع الطريق أمامَه، ويرغب في أن يُقصِي ذاتَه.

Twitter: @ketab_n

سوف ينظر إلى أطفاله، ولن يدفعهم إلى العمل، ولن يُلقي إليهم بأيّ أمرٍ، من حينٍ لحين فقط سيطلب منهم أن يفعلوا شيئًا، وسيترك الأوامرَ لزوجته، سيستمتع بجهودها هيَ وهي تعمل، وسوف يستسلم لقسوتها التي لن يحمِلها على محمل الجد. وسوف يلتمس عطفها، وفي ظنه أنه قد فقدَ هذا العطف القادم من امرأة في عزّ شبابها. سوف يفقِد ثقتَه بنفسه. وسوف يفرح كلما أبدى أحدٌ لطفًا نحوه. ولن ينسى هذا اللطف، وسوف يندهش من نفسه. وسوف يتأثر بكل حركةٍ جميلةٍ ومُجلّةٍ نحوه.

سيؤمن بالموت، لأن الموت، مثل العنف، يمكن أن يغيّر كل شيء. يريد أن يلقي بحياته من النافذة، كما يقول، لنلقِ بأنفسنا من النافذة، لنُبعِدْ أرضيةَ البيت، ولنختفِ بقوة الضحك، والشرب، والعمل. ما الذي يمكن أن يحدث لو ركب جرّاره وأقلع، وهو ثملٌ كل الثمل. لو جرّ في المنحدر الوعر جذوعَ الأشجار المربوطة بحبالٍ وارتفعت عجلات الجرّار الأمامية بغتة. ما الذي يمكن أن يحدث إن هو، الذي لا ينظر إلا بعين واحدة، استعمل المنشار الدائري. متى سنلتمس العذر لحاله. ومتى سنولي عنايةً لما يفعل؟

آهٍ لو يكن ثمة ذلك الخمول الذي يشترط منه عل مر السنين مزيدًا من الجهود. إنه يراوح مكانه، لا يعرف كيف يروّض مقاومته الداخلية، ولا كيف ينتصر على الخمول الذي يأسره. كيف نتحمل التدهور الذي نتسبب فيه لأنفسنا، وجفاف الجسد؟

ما إن تشرع قواه في الضمور حتى تظهر أغصانٌ جافّة على أشجار الفواكه، فتصير قممُها جد كثيفة، وتشيخ براعمُ السنة. وتصير البهائم أقل عددًا في الإسطبل، وتعاد مروج المؤاكرة إلى أصحابها. فلا يكاد يتوقف عن العمل في الغابة حتى تستحيل مساحات قطع الأشجار عند المزارعين سفوحًا منزوعة الأشجار، ويصبح فيها قطْع الأشجار أشبه بدمار.

سيُهمل الصيد، ولن يواكب وتيرة الشباب. بعينٍ واحدة لن يستطيع التسديد.

Twitter: @ketab_n

ستصاب مستعمراتُ نحلِه بالطفيليات، وسوف تمتلئ أرضية المناحل بأرجل النحل. وبقايا الشمع ونحلات مبتورة. وسوف يأخذ النحلات واحدةً واحدة، ويحك أجنحتها الضامرة، لينظفها من بقايا الطفيليات، وينفصل بطنٌ من الصدر.

وذات يوم صيف سيُطمر إرادةَ المزارع فيه. ذلك الأحد أقضيه معه.

Twitter: @ketab_n

صارت أحبُّ البقرات إليه على أهبةِ أن تضع حملها. وعصِي عليه وعلى أمي أن يتّفقا ويقرّرا متى يعيدان الحيوانَ من المرعى إلى الحظيرة.

في صبيحة الأحد ذاك، ذهب والدي لرؤيتها، لكنه لم يعثر عليها. وظل يناديها ويذرع المرعَى، وإذا به يلاحظ سياجًا مكسورًا من فوق منحدرٍ وعرٍ محفوفٍ بالخطر، وقد سُحق فيه العُشب والشجر سحقًا. فيصرخُ فيّ منادِيًا. يجب أن ننحدر، يقول، لعل البقرة سقطت في لحظةِ المغَص في قاع الهاوية. ونتشبّث بأشجار الجوز والنباتات المكتسحة. وننزلق على السفح الوعِر لغاية التيار، وإذا بالبقرة ممدّدة في الماء، عاجزة عن الوقوف على أرجلها، وقد خرج نصفُ العِجل من بطنها، خامِلاً باردًا، بعد أن غرق وهو في طريقه إلى الحياة. غسَل الماءُ مخاطه، وصار شعرُه لزجًا شاحبًا ومبلولا. يئنُّ والدي، ومن بطن البقرة يجذب العجلَ الذي فارقته الحياة. منذ متى والبقرة في الماء هنا، يقول وهو ينوح شاكيًا. يحاول الحيوانُ أن يقف، ويُلقي إلينا نظرةَ استجداء. وبذراعِه يُنيط والدي رقبةَ البقرة. قِفي، هيا قِفي، ويتوسل إلى الحيوان، فتستقيم البقرةُ مرة أخرى، لكنّ أرجُلها ورباطُها تُفلِت منها. البقرة محمومة، يقول والدي، يجب أن نطلب بيبي، وأن نُخرجها من الماء.

يصل بيبي مع جرّارِه ويدرك أنهما، هو ووالدي لا يستطيعان أن يجرّا البقرةَ بمفردهما من تيار النهر، ويطلبان جيرانًا آخرين لمساعدتهما. والدي الآن في الماء مع حذائه، مبلّلًا حتى الركبتين، مرتجفًا. أضغطُ بجبهتي فوق قصبة أنف البقرة، وأرى بخارًا خفيفًا أبيض اللون يصعد من ظهرها المرتعش. وأرى عينيها وهما تبعثان حزنًا بلغ من العمق ما يجعل الرجالَ لا يطيقون النظر في هذا الحيوان الذي يذكّرهم بشيء لا يطيقون تحمّلَه في هذه اللحظة.

Twitter: @ketab_n

أعود إلى المنزل، مترنحة. ثم بحذائي المطاطي ألتحق بمكان المصيبة. في الأثناء يحاول الرجال أن يوقِفوا البقرة على أرجلها، لكنْ عميقةٌ جدًا هي الجروح التي أصابتها عند سقوطها. بيبي، يرى أن لا مفر من قتلها، فما من سبيل لإنقاذها! يتمخّط والدي في منديله. يبكي. إذهبْ وهاتِ المسدس. دعونا نتخلص من هذا في أقرب وقت ممكن، يقول لبيبي وهو يضع يدَه على طبقة الشحم التي تُغضّنُ جبين البقرة.

يذهب بيبي ويأتي بالجهاز، وعندما يقِف ثانية في الماء، يقول لوالدي أنّ البقرة لا ترغب في أن تموت أثناء نَتاجها. فهو لا يحب أن يفعل هذا، وهو لا يفعله إلا باسم الصداقة. يجب أن يُحمِّل نفسَه جهدًا كبيرًا، فالأمرُ صعب للغاية.

أشيحُ بوجهي، لا أريد أن أرى شيئًا من هذا.

في اللحظة التالية تُرفَع البقرةُ الميّتة ويسحبُها الجرارُ خارج الماءِ، وتوضَع على الطريق، وبالقرب منها العجلُ الميّتُ. ويغطّى كل هذا الشرُّ بِكساءٍ.

ويعود الرجال إلى منازلهم.

والدي يقول إنه لم يعد يحتمِل شيئًا، وأنه لن يغفر لوالدتي التي سمحت للبقرة بالبقاء في المراعي. وحتى بيبي لم يتمالكْ دموعَه وهو يطلق النار على البهيمة.

عندما تعود أمي إلى البيت تكون الشمس قد مالت إلى الغروب. تنزل من دراجتها وتهرع إلى المطبخ. لقد رأت البقرة ميّتة مع عجلها على جانب الطريق، فتوقفت، تقول وهي تلهث. وقد نادت اليقرة باسمها فرفعت البقرةُ رأسها ونظرتْ إليها. يا إلهي، كان شبحًا ذلك الذي رأته، تقول والدتي، لقد انقبَض قلبها. تُرى، كيف أمكن أن يحدث ذلك !

الجدل بين والديّ يتسمّم، فأغادر المنزل.

أنحدر ببطء في طريق المدخل.

مساحاتنا غارقة في الظلام الدامس. تبدو الغابة كأنها تنزلق في هاوية، وضجيجُ

Twitter: @ketab_n

السيل مزروع بإبر صغيرة تؤلم أذني. أمرّ أمام البقرة المغطاة. أتوقف، من دون أن أنزل من السيارة.

في تلك الليلة، أرى في المنام أنّ الوديان والمنحدرات استدارت نحو داخل الجبل، وكأنها بطانةُ معطف. الظلامُ الذي كان من حولي في طريقي إلى المدينة يظل جاثمًا فوق الجبال، ويستحيل نورُ النهار شموسًا صغيرة أعلم أنها تغمر كلَّ شيء أحيانًا في نورٍ ساطعٍ، قبل أن تتراجع. تظل عالقةً بصفحةِ السماء مثل كراتٍ صفراء في انعدام الوزن. أتوقُ للوصول إلى البيت، لأن الذي أراه رهيبٌ مهيب. أعرف أنّ والدتي التي تجلس الآن في الغرفة الكبيرة تستطيع أن تساعدني. أريد أن ألتحق بها وأفتح الباب عليها على حين غرة. كائنٌ مرعب، نصفُ فتاة ونصف عظاءه، ينقضّ عليّ. فأقذفه نحو الجدار، ضد الصخرة، ضد الجبل. وأدعو أمي، لكنها تظل بعيدة عني. وفي اللحظة التي أفقد فيها القدرة على الحركة أراني فجأة أطفو في الهواء، وأنزلق إلى العدم.

Twitter: @ketab_n

يقرّر والدي ووالدتي أن يبيعا آخر بقرة. يصاب والدي بالتهاب رئوي فيمكث في المنزل أسبوعين كاملين. كلُّ هذا أصابه حتى النخاع، تقول أمي. لقد قرّرا أن يوقفا تربية الأبقار، وسيكتفيان بما هو أساسي. أي بما لا يزالان قادرَين عليه.

رئتا والدي تَنْضَنِيانِ، ولذا فمن فرط نقصِ الهواء فيهما يخفّ وزنُه أيضًا. فبعد الالتهاب الرئوي الذي أنهكه صار قفصه الصدري يشبه قوقعةَ جعرانٍ يخرج منها رأسٌ غارقٌ في الكتفين، وذراعان وساقان مثل أرجل حشرةٍ نحيلة. يستند قفصُ والدي الصدري إلى العمود الفقري الذي ينحني مثل سلّةٍ صُنعت من خوص. صارت خُطاه أقلَّ طولاً وأقل سرعة. وصارت تملأ وجهَه أخاديدُ من التجاعيد السميكة. أمّا العظام فهي أكثرُ ما يلفت النظرَ في والدي، وكذلك ركبتاه الحادتان، وذراعاه النحيفان، وأصابعه المنهوكة. فالمسافات التي ما زال يقدر على قطعها صارت أقل فأقل طولا، وأكثر فأكثر ندرة. يتردد كثيراً كلما قرّر الذهاب إلى الغابة لقطع حطب التدفئة، أو لإصلاح سياج، أو لقيادة الأغنام التي حلت محل البقار، إلى مأواها. وسرعان ما يضطر للتوقف قليلاً في وسط الساحة، والانحناء إلى الأمام بسبب نقص الهواء، عندما يذهب لجلب شراب المارك من القبو، أو إلى مستعمرات النحل المريضة. نحاول إقناعَه بحمْل زجاجةِ الأكسجين المتحركة التي يستعملها في المساء، فهي تُيسّر حركاته ولا تُعسّرها، لكنه يأبى، لأنه يرفض انحطاطَه، وكأن الأمرَ دون كرامته. ولما يشعر أنّ حالَه صار على غير ما يرام يستمسك في الحال بإحدى أشجار الكُتش المحيطة بالفناء.

في السنة ما قبل الأخيرة من حياته، يتسلم والدي تعويضًا رمزيًا من الصندوق

Twitter: @ketab_n

الوطني النمساوي لتعويض ضحايا الاشتراكية القومية. فيفرح كثيراً لآلامه التي صار يحسبُ لها حسابُها. ويرغب في صرْف المال لإصلاح الجرار، فإن تأخّر إصلاحُه مزيدًا من الوقت فقد يلفظ الجرارُ أنفاسه قبل أن يلفظ هو أنفاسَه.

في الربيع ينطلق في آخر محاولةٍ حذرة لتقليم شجرة التفاح، وإزالة ما تكسر على قمتها تحت وطأة الثلوج. فيبدو كأنه طفلٌ كبير لا يرغب في شيءٍ أكثر من قضاء يوم كامل بين الأشجار. لا ينزل منها إلا على سلّم خشبي حتى لا يجازف بالسقوط. وفي بداية الصيف لا يجد بُدا من أن يقر بانهزامه وبقائه في السرير. وعندئذ يوصَل بغذاءِ الأوكسجين. فلا يكاد يذهب إلى المرحاض أو الحمام من دون الأوكسجين. والدتي وأخي يهيّئان له سريراً في غرفة المعيشة حتى يستمتع بحياةِ كل يوم، وحتى يستطيع زوّارُه الجلوسَ بالقرب منه من دون أن يشعر بالحرج، أو يحس أنه في غرفة إسعاف. تتكوّم علبُ الدواء فوق الطاولة التي تضعها والدتي قرب السرير. ويشمئزّ والدي من رعاية والدتي، لكنها تقرر أن لا أحد يرعاه سواها، شاء أم أبى، وشاءت هي أم أبتْ. فهي تعتقد أنها أدّت واجبها بتحمّلها القربَ الذي فرضَه المرض.

والدي يتألم كثيراً. وجهُه منتفخٌ قليلاً بسبب الأدوية. فيما يداه أكثر نعومة وأكثر ليونة. عندما يستقيم في سريره ينظر إلينا كالذي يبتسم وهو يغرق، فيُخرج رأسَه من الماء وهو مُوقنٌ أنه سيغرق. أبي لا يريد أن ينقل مِلكية المزرعة. إنه متردد، يُجيب عندما ألحّ في السؤال. فهو لا يرى أيّ مستقبلٍ للمزرعة، ولا يرغب في أن يفكر في أفولِ مستثمرته. علينا نحن أن نتفق بعد رحيله عنا.

أخذ يهتم بعملي ويطرح الأسئلة. يريد أن يعرف ما الذي أفعله في المسرح، وفيم تتمثل مهمتي كمستشارة فنية، وإن كنت أكسب ما فيه الكفاية، وإن كان جمهور كارينثيا يثمّن عملي. ذات يوم قال إنه شاهد أوبرا نابوكو التي عرضتها التلفزة. كانت بثًّا معادًا من دار أوبرا فيينا! في مشهدٍ من مشاهدها رأى صوراً ليهودٍ من فيينا بعد إعدامهم، معلّقين فوق ألواح. راقَ له المنظر كثيراً. تصوري، قال، يهودٌ من فيينا!

Twitter: @ketab_n

عندما نجلس يوم الأحد حول طاولتنا الريفية ونغطس ملاعقنا في حساء الشعيرية، ينظر إلينا، ويهزّ رأسه ويقول متظاهراً بالجد، أنتم بلهاء، كلكم، جميعكم بلهاء! فتبقى ملاعقنا معلّقة لحظةً في الهواء. ولا أملك إلا أن أنفجر ضحِكا، وهو ما يمتعه كثيراً، لاسيما حين تُكشّر أمي وتقطّب وجهها.

لا ينتعش والدي إلا عندما تزوره بناتُ وأبناءُ أعمامه وعماته. أقاربه وقريباته. فمن فرط طيشهم وطيشهنّ كثيراً ما يقنعونه ويُقنعنَه بالعزف على الأكورديون. غير أن العزف يرهقه كثيراً. لكنْ، ما الذي ينبغي أن لا نفعله حتى نتحدى المرض، يقول والدي، حتى لو لم يبق منه بعد هذا الاحتفال المتدفق سوى ابتسامةٍ مؤلمة وهو يشدّ على وجهه بصعوبة جمة. لم يعد قادراً على لعب الورق مع جيرانه، لكنه يحب مشاهدة أبنائه وجيرانه وهم يلعبون الورق. في عطلة نهاية الأسبوع، يطلب من بيرل، خَلَفِه في الصيد، أن يحدّثه عن الجديد في أرض الصيد، وعن أي حيوانٍ رآه يخرج من الغابة، أو عن الذي سيجري اتخاذه لمنع جلْحِ الحيوانات للأشجار الفتية في الغابة.

ذات يوم زارت والدي ابنةُ عمّه كاتي التي تُعِدُّ مع أمي عرضًا من الغناء. لقد أسّست المرأتان ثنائيًا لتقديم قصائدهما الخاصة بعد تلحينها. وحتى تغنيا أغاني لمريم العذراء وأناشيد مُناصِرة.

تشاء أمي، مثل كاتي، أن تلَحّن قصائدها الشعرية، وتحلم بوضع كتابٍ من بنتِ قريحتها. أريد أن يكون لي كتابٌ من تأليفي، قالت وهي تُسرّب إليّ على صينيةِ الطاولة، واحدًا من نصوصها، أو بعضًا من قصائدها، حتى أقرأها.

في ذلك اليوم، لما سألتُ والدي عن حالِه قال ولكنْ أيُّ حالٍ تريدينه مني. فمنذ ساعتين وأنا أسمع المرأتين تكرّران نفس الكلماتِ بجواري. حقًا ليس هذا من دواعي سروري.

Twitter: @ketab_n

بأصواتكما هذه سوف تجعلان الناس ينفضّون من حولكما، يقول أبي ساخرًا. بعد مثل هذا الأنين والنواح سوف يصفو الحضورُ وينتعش. حسنًا، الآن توقفْ واصمتْ. أتريد أن نغني لك شيئًا؟

أجل، يقول والدي بلهجة ماكرة. يودّ أن يستمِع إلى أغنية كتاركا مرة ثانية. تقِف النساء عند مؤخرة سرير المريض وينشدن الأغنية: أيها النسيم الغالي، هبْ نحو مرَج كارينثيا، حيث يقف، واحسرتاه، بيتي الخالي. أُركضْ إلى هناك، يا نسيمي الغالي. لن أشرب الخمر بعد اليوم أبدًا. ولن يُنعشني ظل المنزل بعد اليوم أبدًا. ولن أعمل في الحقل بعد اليوم أبدًا. أحمِلْ إلى هناك تحيّتي الأخيرة! وحين تحقّق أمنيتي، يا نسيمي الغالي، لن أكون أنا هنا. أكون قد أكملتُ حياتي وأرحتُ، مطمئنةً في أرض غريبة.

يشعر أبي بالرضا. فبعد أن جلستْ قالت كاتي إن عينيها تمتلئان دموعًا كلما شدت بهذه الأغنية. لأنّ الأغنية لا مفر من أن تذكّرها بـ كتاركا وأُورسا، والدتها الحقيقية التي توفيت، والتي كانت شقيقة كتاركا. أرسلت كتاركا هذه القصيدة قبل موتها بفترة وجيزة، من معسكر رافنسبروك، متوسلةً إلى أورسا أن تُلحّنها، حتى لا يطوي النسيانُ قصيدتها. وقد وجدت والدتُها لحنًا لهذه القصيدة، تقول كاتي. لقد لحّنتْ الكثيرَ من القصائد، وخاصة قصائدها الخاصة. لكنّ والدتها لم تكن تعرف الكتابة، كانت أمية. كانت تؤلف النصوص خلال النهار وهي تعمل في الحقلِ. وفي المساء تمليها على زوجها. وهكذا وُلدت مسرحيات وقصصٌ وقصائد. والدتها، أورسا، كانت هي الشاعرةَ الحقيقية في الأسرة، شاعرةٌ أفضل منها، أي كاتي، تقول كاتي. فهي لا تملك إلا أن تقرّ بذلك، حتى وإن صارت في الآونة الأخيرة تكتب شعرًا كثيرًا أيضًا.

عشُّ من الشعراء في عائلتنا، صرنا مجانين، يقول أبي وهو يُلقي نظرة ماكرة إليّ وإلى أمي. في هذه العائلة نخال وكأنها معْرِضٌ شعبي. شاعرٌ يعقب شاعرًا، وقصائد

Twitter: @ketab_n

في كل مكان. فحتى والدي كتَب ذات يومٍ قصيدة، وهو في الثانية عشرة، عند أنصار المقاومة. وما زال يحفظ منها هذا المقطع: كنت أقتاد الأبقار إلى المرعَى، فجاء شرطي وعلّقني في جَوزة. ظنّني من أغصان الشجرة. ويجلس والدي في سريره مبتسمًا.

Twitter: @ketab_n

في أواخر الخريف وقع جسد والدي في ملزمةٍ من الألم الذي ما انفك يضغط عليه بلا رحمة. كفاحُه من أجل الحياة يثير أعصابَنا. والتفكير في معاناته لا نكاد نطيقه. لقد بدأنا نستاء من طبيب العائلة الذي أثبت بانتظام عدم قدرته على تخفيف آلامِ والدي. لا يرغب أبي في الانتقال إلى المستشفى، أيًا كان الثمن. فهو يريد أن يموت في بيته، وهذا ما يتمناه، عن طيب خاطر، كما يقول. فهو منذ الآن لا يكاد يتحرك إلا في عناء، ولا يكاد يستقيم في جلسته إلا في عناء. يقضي حاجته وهو متمدّد. لا يرضيه هذا، لكنه لا يملك إلا أن يئنّ أنينًا عاليًا من وقت لآخر، يقول، من فرط ألمه المبرح. فأيُّ لمسٍ عذابٌ له، وأيادينا المضطربة اليائسة عقابٌ له كلما حاولتْ أن تُسعفه.

جيرانٌ وأفرادٌ من العائلة يعودونه، لكي يحادثوه، كما يقولون. يجلبون إليه النبيذ، لأنّ والدي قال ذات مرة أنه يريد أن يشرب كأسًا أو كأسين كل يوم. فالأمرُ لا غنى عنه، هكذا يدّعي. آهٍ لو كان فقط على يقينٍ من أنّ النبيذ لن يُضرّه. يريد أبي أن يُفرغ في جوفه زجاجةً كاملة من نبيذ الكُتش.

أمنيتي أنْ يموت والدي بهدوءٍ وسكينة. لكنّ والدي أبعد ما يكون عن قبول ما ينتظره. بل أخال أنه ينشد مساعدتي بنظراته. في منضدة غرفتِك، قال لي ذات يوم، دفترٌ لِميسي. خُذيه، إنه لكِ. وخشيتُ أن أسأله إن كانت تعذّبه خيانتهُ لميسي في ذلك الوقت، تحت ضربات الشرطة. لم يحدثني يومًا عن ميسي، لكنه احتفظ بدفترها الصغير. لِمَ لا أطرح عليه السؤال! هل قلقُه معلّق بوالدتي التي عاش معها زواجًا قائمًا على الخلاف والملامة ؟ هل يرغب في مصالحتها، هل تعوزه القوة في

Twitter: @ketab_n

هذا؟ هل جزعُه تمرّدٌ نهائيّ ضد فقدانِ الحياة التي يشعر في داخله ببقيةٍ بائسةٍ منها، أم في الأمر شيء مسكوت عنه، أقدمَ عهدًا، كالغصّة في حلقه؟ أبدًا لن أعرف هذا.

في اليوم الثالث من كانون الثاني، يوم عيد ميلادي، نشرب كوبًا من النبيذ برفقته.

وبعد ثلاثة أيام، يصير وجهُ والدي شاحبًا مفتقرًا إلى الدم. يقول لي إنه في اليوم السابق، في يوم عيد ميلاده، حضرتْ بناتُ وأبناءُ أعمامه. لقد غنّوا وضحكوا. يا له من سيرك! يقول أبي. هذا الحفل أنهكه كثيرًا، والأرجحُ أنه سيُنهيه. ويسألني كم شرب من زجاجات من النبيذ. فأدخل إلى الغرفة الخلفية وأعدّ الزجاجات. شربتَ ثلاثين، أقول. إذًا ما زال أمامي عمرٌ مديد، يقول أبي وهو يبتسم ابتسامة متكلّفة.

في صباح اليوم التالي أخبرني أخي على الهاتف أن والدي فارق الحياة. توفّي والدي في الصباح الباكر.

عندما أصل إلى المنزل أجد والدي يرقد على فراش المرض في حُلةٍ سوداء. غسّلته والدتي وغيّرتْ ملابسه. وعندما دخلتُ نهضتْ من على سرير المرضِ وأشارت بيدها إلى المتوفى. ها هو ذا، لقد مات وانتهى، تقول وهي تبكي.

تُرخّص لنا البلدية عرْض جثةِ والدي في داخل المنزل. وهو استثناءٌ. ولا استثناء بعده.

عندما جيءَ بالنعش كان بيبي في البيت. توقّف عند العتبة وقرأ صلاة وداعٍ قديمة هو الآن آخرُ مَن يحفظها. ومع أخي ينصّب حاملة منصة النعش تحت النافذة الجنوبية من الغرفة. ويوضعُ والدي في التابوت ويُرفَع النعشُ فوق المنصة. أمشطُ شعرَ أبي للمرّة الأخيرة. ولمَّا أُمسّد رأسَه أحسُّ وكأني ألمسُ حجَرة. وتُشبِك أمي أصابعَ

Twitter: @ketab_n

والدي وتضع صليبًا خشبيًا بين يديه المشبوكتين.

الضوءُ الأبيض في هذا الصباح الشتوي يغمُر النعشَ الذي يرقد فيه المتوفى. تبدو الغرفةُ مثل سفينة كبيرة تنجرف ببطء في أعالي البحر. الضوءُ الأعمى، وأصواتُ الحياة اليومية، وهمساتُ المطبخ، والدموعُ الصامتة، وضوءُ الثلج تحت الشمس، والبقعُ الأرجوانية فوق ساعدَي والدي، وبياضُ الأكفان، وحوافها من الدانتيل المعقوفة، والبابُ المفتوح، وشكاوى الكلب المربوط إلى سلسلته. الكلبُ الذي اشتمّ رائحة الموت. وبُطءُ الحركات، والرقّة التي صارت أخيراً متاحةً متيسّرة. الرقةُ التي لا تريد أن تتلبس بعد اليوم. رقةٌ ظلت أملاً يُرجَى منذ زمنٍ بعيد جدًا.

لم تمتلئْ الغرفة بعدُ بالساهرين، وبالزهورِ، والأكاليلِ والشموع. ما يزال لدينا الوقت لكي نجلبَ المتوفى إلينا حتى نفصله عنا فيما بعدُ. لا أحد يعرف متى ينفصل عن الميّتِ، لكنَّ كلّ واحدٍ عاكفٌ على هذا النشاط الخفي. أنتهزُ الاستراحة التي تتخلل الصلوات والساعات التي لا يوجد فيها سوى الزوارِ المنعزلين في الغرفة حتى أراقبَ ملامح والدي الجامدة، وبشَرته التي صارت صفراء مثل الحليب، وعينيه الغارقتين في محجريهما. يبدو كأنه جاثمٌ في أنفاسه الأخيرة، وأنّ الجَزع قد ملأه. ويلوح لي كأنه حبَس في نفسه هذا النفَس الأخير، وجمّده، ووضعه جانبًا. وأنه يحتفظ به لوقتٍ آخر، لوقتٍ لا ندري متى يحين. إنه ذاك النفَسُ الفاصل... الحاسم.

في اليومين التاليين يتوافد الناسُ على البيت ليقولوا وداعًا لأبي. فننشغل باستقبال الزائرين الذين يساعدوننا بحضورِهم على تمالك النفس ورباطة الجأش.

في ليلة الجنازة تُقْبِل أمي لتنضم إليّ بجانب النعش. ومن دون كلمة واحدة تضع يدَها على فخذي وتسنِد إليَ كتفَها كما تفعل أختٌ مع أختها. هل عادتْ إليّ عودةَ الأختِ لأختها، أسأل نفسي. وأوشكُ أن أضمّها إلى حضني. لعله خيرٌ، أقول لنفسي، في اللحظة التي تنهض فيها متوجهةً إلى المطبخ.

Twitter: @ketab_n

في يوم جنازةِ والدي يأتي حامِلو النعش مبكرًا. إنهم صيّادو ليبينا. نأكل مزيدًا من الحساء بالقرب من المتوفى الذي خُتم تابوتُه أثناء الأكل. ويقرأ بيبي مرة أخرى التراتيلَ القديمة. ويُمرّرُ النعش من خلال نافذة غرفة المعيشة، ويوضعُ عند عتبة البيت. ويطلَبُ من الراحل أن ينفصل عن بيته وعائلته. ثم يُحمَل بخطىً بطيئة عبر الفناء، ويطلَبُ منه مرة أخرى أن يتخلى عن مروجه وحقوله وتلاله.

بعد القداس، عندما يضع حفّارُو القبور والدي في الحفرة، ويلمس النعشُ قاع الحفرة أخال أني أسمع زفيرًا يخرج فجأة من داخلي أو من باطن النعش. زفيرٌ ينبع كله من حلْقٍ صغير مظلم ويقفز بعيدًا. أُلقي نظرةً وجلةً إلى القبر. هل هو زفيري أو زفير والدي. هل هو زفير عزاءٍ بعد أن انتهيتُ من موتِ والدي، أم هو تنفّسُ والدي. هذا التنفس المعلَّق، المحفوظُ، المكمَّمُ، الذي يتحرر من كل قبضٍ وينطلق بعيدًا، خفاقًا مُرفرفًا؟

حسناً، حسنًا، أقول لنفسي وأنا عائدة إلى المدينة.

Twitter: @ketab_n

أرى في المنام أن الأرض التي أهربُ منها قد تجمّدت. وأن السماء صارت كتلة جليدية يبدو الوادي فيها كأنه سراب. تمزقاتٌ مضيئة تجتاز السطح الجليدي كأنها حوافُّ من الكريستال. وقوقعةٌ من الهواء الجامد وقد أغلقت على الوادي الذي امتد في الأسفل وبقي عالقًا في حيّزه الضيق. سرطانُ البحر، والحلزونُ، وقنديلُ البحر، وعلقاتُ وديدانٌ وحيواناتٌ برمائية عدة تتنقل على السطح المتجمد. أما الماء الذي تربّع بمعطفه الكريستالي فوق التلال والأشجار والحقول، وجثم واقيًا ليّنًا وقطنيًّا في كل شيءٍ فقد بدأ يتحرك. أقول لنفسي إن الماء، بين فينةٍ وفينة، وعند أصغر هبّة ريح سوف يتبخّر، وسوف يذهب، مسحوقًا، أو سوف يتدفق. لا شيء يبقى على حاله.

في وقت لاحقٍ أسمع صوتًا قادمًا نحوي من أسفل الوادي. صوتٌ صار يدوّي أكثر فأكثر. وفجأة أرى الماء يرتفع في السماء. تعال، أقول لأخي، حان وقتُ الذهاب، يجب أن نترك المنزل! ونصعد مُسرعَين إلى الغابة، ونمرّ ناحية السفح المزروع بأشجار الكتش، كما في الماضي لمّا كان والدي يتعقّبنا بالبندقية. وننظر إلى المنزل وهو يمتلىء ماءً. وفي أسفل كتلة الجبل نسمع الجسد الفولاذي وهو ينهار. المناجم خمدت وانطفأت، ولن يصعد بعدها شيءُ إلى السطح. والدهاليز انغمرت. ثم ينساب الماء ونعود إلى منزلنا. هالاتٌ وبقايا تراب ترتسم على الجدران. لقد رسم الفيضانُ نفسَه على الجدار. النوافذ مغلقةٌ وزجاجها سليم. كم يدهشني أن تصمد النوافذ في وجه كتل الماء هذه ! علينا بالترتيب. ترتيب كل شيء، أقول لأخي!

Twitter: @ketab_n

تمرّ جنازة والدي، فتتحول أفكاري إلى ألم شديد.

أقف أمام قبره، وفي النهاية أحتفظ بصمتي كعادتي، تاركة الأمور معلّقة، وهو ما كان يميّز محادثاتي.

في المنزل نجلس معًا، وجهًا لوجه. كل واحد من الأطفال يحمل عبءَ والده، ولكل واحد شخصيته الأبوية التي يحملها حول عنقه. ويحدق كل منا في الآخر، وقد أتعبه هذا العبءُ الأبوي، وأرهقته القصص والذكريات التي حين نرويها ترنُّ في الآذان كأنها لومٌ وعتاب. أنتِ لا تعرفين شيئًا، أو ليس لك فكرة عمّا أنا بابا، وهلم جرا. ناهيك عن الأصداء والأحاسيس المختلفة، ولحظات التمرد والحزن الممزوج بالإحباطِ وخيبة الأمل.

بلغتْ والدتي ذروةَ الإرهاق المتراكم منذ شهور، بل أعوام. تلك هي الحالة التي تجعلها تجوب المنزل، متوترة، نزقة. فهي تظنّ أنها أفلحت في صمودها وثباتها. وهي تظن أنها بلغت مقصدَها. تشعر أنها مَن يجب أن يرعى كل شيء، وتعتبر أن الشهود، أي نحن الشهود، لم نثمّن جهودَها بما فيه الكفاية. لقد رافقتْ والدي حتى الموت. فبِها هي تشبّثت نظرتُه الأخيرة، تقول وهي تهز رأسها هلعًا وذعرًا، وفي خاطرها كلُّ ما هو مستعصٍ على الحلّ وعلى النطقِ معًا.

أنا طفلةُ والدي الطفل، سخيفة، مجرد سخيفة، لأني قيّدتُ نفسي وحياتي بالماضي، بسببه، ولأني عرّضتُ حياتي للخطر، أقول لنفسي وأنا أمنّيها بأني سأترك كلّ شيء من غير أن ألمسه، وأن أُبعِد عن نفسي ما هو مكبوتٌ، وما يقيّدني، وما يُقلقني. وأقرّر أن يظل كلُّ هذا بورًا بلا عناية، بعضَ الوقت، وأنْ يكبر مع الوقت.

Twitter: @ketab_n

لكنهم لا يدَعونني وشأني. ففي كارينثيا عادمةِ الذاكرة تعلمتُ كيف لا أنسى. فللأرضِ التي أقف عليها باطنٌ غيرُ مرئيّ، مبلّلٌ بما كان، من حيث أنمو على ما يبدو، والذي أراني أُقذَف إليه قذفًا بلا انقطاع. هذه المنطقة التي كثيراً ما يُصيبها ما يشبه الدوار، تروي قصتها التي ليست شيئًا آخر سوى شبحٍ تُبرّئ به نفسها، اعتقادًا منها أنها كانت على الجانب الصحيح دومًا. ما من أحدٍ ممّن سحقتهم الاشتراكية القومية يظهر في هذه الصورة التي تعطيها المنطقة عن نفسها.

أحيانًا أختلج في داخلي فأقول لنفسي كلُّ شيءٍ ما زال هنا. ففي داخلي دُمّلٌ غير مرئي أو مرئي، مسموع أو غير مسموع، كأني جرثومة، أو شرارة ضمير، أو عجلةٌ تتحوّل إلى سلسلة، أو كُرة واثبةٌ طافرة، أو حقلٌ يزدهر أو يضمحل. أبدو كأني مشدودة إلى مركز عداءٍ صنعته النازية ومقاومة النازية في قلب شعوبِ هذه المنطقة. عِداءٌ مطلق ومؤلم على السواء. لا يشعر به إلا من خبِره.

Twitter: @ketab_n

منضدة والدي الليلية التي صُفَّتْ فيها الكلارينيت التي لم تستعمل منذ فترة طويلة، وجدتُ كتاب ميسي الأزرق، مع الأغاني، ومن تحته دفترُ المعسكر الذي أخفته جدتي بغلافه الأحمر المزركش.

أجلسُ فوق السرير في ذهولٍ. فها هو ذا الإرثُ الصغير يقبع في يدي بكل ثقله. لقد دوّنتْ ميسي بكثير من الإثارةِ في دفترها الصغير، أغاني سلوفينية، وقصائد شعرية، ورسائل شعرية، إلى عشاقها، وإلى عمّاتها كاركا وأورسا، وليني، ومالكا وأنجيلا، جاعلةً من اللغة المكتوبة حالةَ سُكْرٍ صوتية، وأغنيةً لا تنقطع. إنه الشيء الوحيد الذي تبقّى منها.

أبدأ في قراءة دفتر جدتي عن أيامها في المعسكر. فكم من مرة وقعتْ يدي على هذا الدفتر، وأنا طفلة!

ذكريات غرفة جدتي تراودني، ذكريات ذلك الضوء الحليبي المميز الذي يحوّل ما كانت ترويه لي ولم يكن يسعني أن أفهمه، في لحظات متعددة من التقارب التي كانت تطير مني مثل غبار ناعم، وتهبط ثانية في الليلة التالية فوق الأشياء، وكأن شيئًا لم يحركها يومًا قط.

في البداية كتبت جدتي بلغةٍ جازمة، وإن جاءت كلماتُها رعناء خرقاء. كلماتٌ ليست للكتابة، وإنما للرواية. فحتى وإن كادت لا تعرف الكتابة، وإن كان الإملاءُ وبناءُ الجمل غير صحيحين فهي تملك من القناعة ما يجعلها تصرّ على الاحتفاظ بقصتها.

كان ذلك يوم الثلاثاء ١٢ تشرين أول ظهرًا، يوم انفصالي عن أطفالي، تونيك

Twitter: @ketab_n

وزدرافكو. وقد شق عليّ الأمرُ كثيراً، لأنني لست مذنبةً، كتبتْ جدتي.

أُحتجِزت جدتي في البداية لمدة ساعتين في سجن إيسنكابل، وبعد ذلك نُقلت إلى كلاغنفورت، وبعد ثلاثة أسابيع، في ٢ تشرين ثاني على السادسة صباحًا، من كلاغنفورت إلى ماريبور. كان ذلك رهيباً،čudovito ، كتبت جدتي، الأطفال الذين يبصقون علينا في الشارع، ويطلقون صرخاتٍ مرعبة. في ماريبور قُدّم لهم في العشاء اللفتُ والبطاطا. وفي الثالثة صباحًا قهوة لذيذة وخبز جيد. شريحةٌ من الخبز، وقليلٌ من الجبن وملعقةٌ من المربى. تلك هي المؤونة التي يمكن أخذها أثناء السفر إلى فيينا. ففي فيينا، كتبت جدتي، اضطرّت إلى النوم على أرضية الأسمنت. كان الأكل سيئًا، مجرد شوربة بطاطس، ولكن من دون ملعقة، ما جعل جدتي تغطس أصابعها حتى تُخرج قطع البطاطا من الشوربة. وبعد عشرة أيام واصلوا المسير نحو براغ، براكْ كتبت جدتي. وهناك كانت آفة البقّ، وكان الأكل سيئًا، لا عشاء، سوى بعض القهوة في الصباح. ثم تواصل المسيرُ وتواصل، من دون ماءِ شربٍ حتى برلين. لقد تُركوا ليلةً ويومٍ من دون أكل. لا بأس إنْ هي مرضت في ذلك اليوم وإنْ منعها التهابُ الحلق منْ بلْع الأكل. وبعد ذلك واصلوا طريقهم إلى رافنسبروك. هناك كانت الغرابة، كتبتْ جدتي، ابن آدم ليس بهيمة!

لا تسعِفها الكلمات، تقول جدتي، لوصف كل ما حدث بعد ذلك من أحزان. فلعام ونصف في معسكر الاعتقال لا تحتاج لأكثر من ثلاث صفحات صغيرة. ثم تكتب راجا rajža، والسفر، ٢٨ نيسان. وتعني بهذا أنها بداية التيه الذي قادها بعد مرور أشهر إلى ليبينا. في يوم ١٤ أيار، ميرو، الاسم الأول للمكان، قبل ويزمبرج ورايتزبرج، وقد كتبته بخط محموم يلمح إلى تهيّجها. وتكتب بالسمعِ أسماءَ الأماكن التي تتوقّفُ عندها أو التي تعبُرها عند العودة. وكلما امتدت رحلتُها تتفكّك أسماءُ القرى والبلدات. فتُدوّنها في عربة الماشية، وفي وقتٍ لاحق في مقصورة القطار. الأماكنُ التي بقيت فيها الحياة تبدو كأنها تعرّضت للقصف بالقنابل، كما حدث بالضبط للمدن التي ذكرتها جدتي. في يوم ١٥ آب، درسدن، أو ترستن

Twitter: @ketab_n

كما تكتبها جدتي. وبعد بضع أسماء لا تكاد تُقرأ تظهر براتيسلافا، مكتوبة بشكل صحيح، ومن بعدها بودابست. وفي يوم ٢٤ آب سوبوتيكا، كنا في حالة معنوية عالية، كتبت جدتي. كان هناك الكثير من اللحم الجاهز للأكل، ومن المياه الروحية. ويوم ٢٥ قضيناه في الحمام، وفي عطلة نهاية الأسبوع والاحتفال والرقص، تقول. وفي وقت لاحق تكتب بلكاد، وهي تعني بلغراد، مدينة جميلة، تقول جدتي. ثم في ٣٠ آب صباحٌ حزين في محطةٍ في زغرب، ثم فلينج وسلوفينكراك، وتعني سلوفينيا وغرايديك. ثم فيلج، أي مزرعة ريفيلنيك في ليبينا. وتغلق قصة رحلتها بهذه الجملة المختصرة، في البيت كان القلق، نعم أم لا، دوما توجي بلو ستراه جابول ني doma toje blo strah jabol ne

أضع فوق مكتبي الصورَ التي تركتها لي. ففي سنوات شباب جدتي الأولى كانت مشاعرُها لا تخلو من تهور وطيش. فالنظرة التي ترسلها إلى الكاميرا تكشف عن ثقةِ ابنةِ مزارع ثري. حماستُها التي لا يطوّعها مطوّع وكبرياؤها واضحان ملموسان. ففي العشرينات كانت ترتدي ثياباً زاهية وبلوزات مطبوعة مع ياقاتٍ مطروزة بالدانتيل طرزاً كاملا. وبعد أن طرحت الحمل بضع مرات صارت أكثرَ جدية وأكثر استدارة. وبعد زواجها صارت ترتدي في المناسبات الخاصة فساتين غامقة مع جوارب من القطن، أو أطقمًا أنيقة مع حقيبة جلدية، وقفازات جلدية وأحذية تُفضَّلُ لها خصيصًا. وفي الصيف تحاول أن تغطي شعرَها الناعم بقبعات من القش، وأنْ تُخفي في الظل وجهَها العبوس، كما قالت لي ذات أحدٍ. كنت في تلك الأيام ما أزال أعتد بنفسي، تقول جدتي، لكنّ الكبر أخذ مني مأخذه، بسبب العمل الذي أضناني.

بعد الحرب تحوّل بريقُ عيون جدتي نحو الداخل. وبدا ابتسامُها متعَبًا، منهَكًا، ولم تعد تملؤه الحياة كما كانت فيما مضى. وقارُها إن قورن بالماضي لم يعد يملك ثقته. وقد حلّت محلَّ قبعات القش مناديلُ تربطها تحت الذقن حتى تَظهر رؤوسُها

Twitter: @ketab_n

عند الزاوية اليمنى من عنقها. ليست فخورةً بالأوشحة الأنيقة المصنوعة من الفسكوز البراق أو الحرير. وقد فقدت الوزن كثيراً. ولمّا هي تشعر بالبرد دائمًا ترتدي باستمرار من تحت حُلتها سردًا من الصوف أو سترة. وفي صور الزفاف فهي دائمًا تشبه بوجهها الذي مثل الزاوية وأنفِها الكبير، مسمارًا مزروعًا في وسط رُفقةٍ سعيدة، مثل تحفة من الماضي ترفض الاندماج في الحاضر. ظلها يوحي أن الحياة طردتها مرارًا ثم أعادتها ثانية، وأنها استعادت حياتها، ليس عن غبطةٍ ولكن عن تفانٍ على الأقل، وليس عن قناعةٍ عميقة، ولكن عن واجب.

في المنزل، تحمل جدتي منديلاً قطنيًا معقودًا حول الرقبة، وملابس رثة، وجوارب صوفية، وكنزات مطبوعة لا تغيّرها إلا في أيام الأحد وأيام الأعياد بمآزر من الساتان الأسود وكنزات أكثر أناقة. في الماضي كانت تشعر أنها تحمل شأنًا وهيبَة، ثم إذا بي أشعر أني قد شُطبت، تقول جدتي. وتُظهِر الصورُ أيضًا التحولَ الذي طال والدي، من طفلٍ إلى شاب. ووجهُه الذي تحوّل بعد اعتقالِ جدتي واستجواب الشرطة، والطبع الطفولي الذي تراجع واختفى في النهاية ليتحوّل إلى طبعٍ قاسٍ، ومرٍّ وعنيد. إنه الجرحُ الذي حفر مكانًا في داخل والدي واستمرّ يتطفل عليه.

ذات يوم تحدثت إلى تونسي عن دفتر المعسكر وعن روحاتي وغدواتي الحائرة في ماضي العائلة. فاستمع إليّ عن طيب خاطرٍ وأتاني بمُصنّف وهو يقول أن أوراق جدتي، في ظنه، في مكانها بالقرب مني.

من بين فواتير ورسائل قديمة عثرتُ في خزانة الملفات على كشْف جدتي الدراسي لعام ١٩١٤، ذكر فيه أنها غابت ٢٥٦ نصف يوم دراسي، مع كلمة اعتذار، و٢٣ نصف يوم من دون كلمة اعتذار. فكم من يوم إذًا حضرتْ جدتي إلى المدرسة؟ ووجدتُ قرار المحكمة العليا في كلاغنفورت في كانون الأول ١٩٤٧ بشأن إعادة العقارات التي صودِرت في عهد الرايخ الألماني إلى أصحابها الشرعيين، إذًا إلى جدي

Twitter: @ketab_n

مايكل. ومن تحت القرار ملعقةُ جدتي في رافنسبروك، وشهادة الإقامة التي تسلمتها في يوم عيد ميلادها الحادي والأربعين، يوم ٦ أيلول ١٩٤٥، بعد عودتها من معسكر الاعتقال. ورسائلُ من أصدقائها في المعسكر. والطلبُ الذي تقدمت به جدتي في عام ١٩٥٠ للاستفادة من منحة الضحية، وإخطارُ من حكومة إقليم كارينثيا مفاده أن طلبها الحصول على منحة الضحية قد رفضته لجنة كارينثيا نظرًا أن الاستشارة الطبية التي قررتها اللجنة على وجه السرعة لم تكشف عن أضرار في صحتها بالنسَب المطلوبة. ثم اعتراضُ جدتي على هذا الإخطار، وهو الاعتراض الذي حرّره لها شخصٌ يتقن فنّ الكتابة. وقائمةٌ بالآلام التي عانت منها بسبب إقامتها في المعسكر، اضطرابات عصبية، وصعوبة في التنفس، وتورّم مؤلم في المفاصل والساقين، وعدم القدرة على العمل لأيام عدة، وصداعٌ شديد، وتشنجات أثناء الحيض. وتقول أن كل هذا روتْه لضابط الدرك الذي كان في الخدمة، ودوّن هذا الضابطُ الشكوى التي تلقاها من جدتي. وأراني الآن أتخيل حالَ جدتي وهي تصف آلامها هذه لموظفٍ في الدرك لا شأن له بآلامها، وفوق ذلك لا يتحدث السلوفينية. ثم ردُّ وزارة الشؤون الاجتماعية في فيينا، في أواخر أيار ١٩٥١، يشير إلى أن منحة الضحية قد مُنحت لها. والشكوى التي تقدمت بها جدتي في ٦ تشرين أول ١٩٥١ إلى مكتب حكومة إقليم كارينثيا لمعرفة سبب عدم صرف منحة الضحية. ورسالةٌ بتاريخ تشرين ثاني ١٩٥٣ إلى الحكومة الإقليمية لكارينثيا تسألها لماذا لم تصرف لها التعويضَ الذي استفادت منه عن فترة الأسر. وردُّ الحكومة الإقليمية لكارينثيا مفادُه أن الإخطار بدفْع التعويضات عن فترة الأسر لن يصبح قابلاً للتنفيذ إلا في تشرين الأول عام ١٩٥٣، ولن يحال إلى الوزارة الاتحادية للإدارة الاجتماعية للدفْع قبل ذلك التاريخ. ثم وفي صفحة منفصلة، بركةُ البيت وقد جاءت على حين غرة بخطِّ سلَف جدي، وهي قويةٌ تحمي الأسرة من العواصف الرعدية، ومن البرق والرعد، ومن البرد والنار، ومن الشتائم والقذف والطاعون. ولكن ليس من كل الباقي.

Twitter: @ketab_n

حواجز الوقاية التي كنتُ أحاول بناءها بيني وبين عائلتي تتفسّخُ مرة أخرى. لبعض الوقت، أشعر أن الماضي قد غمرني تمامًا، وأني قد ضعتُ تحت ثقله. ثم أقرر أن أمنح شكلاً مكتوبًا لهذه الأجزاء، ولهذه الذكريات، والقصص، ولِما هو حاضر ولِما هو غائب. وأن أعيد اختراعَ نفسي من الذاكرة. وأن أستعيد من خلال الكتابة جسمًا قوامه الحدس والهواء، والعطور والروائح، والأصوات والضجيج، وأمور من الماضي حلمتُ بها يومًا، وبقايا آثار.

لعلني أستطيع أن أستعيد ما لا رجعة فيه، وألاحَظ أنه عاد ثانيةً في شكل مختلف، وأنه تغيّر وغيّرني معه. لعلني أستطيع أن أعيد تحريكَ ما سقط منه وسُحِق من هذا الجانب وذاك، حتى أكشِف عمّا هو موجودٌ من تحته. فلعلني أستطيع أن أحيط بسرّ ذلك الذي أصاب جسمًا غيرِ مرئيّ وظلّ يرسّخه ويُبقِي عليه.

Twitter: @ketab_n

أقررُ أن أذهب إلى معسكر رافنسبروك، المعسكر الذي كثيراً ما جُبْتُهُ في ذهني، حتى خِلتُ أني أعرفه حقًا. أريد أن أقرأ رواية جدتي من جديد حتى أودّع مكانًا صار عندي مألوفًا.

في اليوم الذي نُقِلت فيه أمي إلى معسكر الاعتقال، في فورستنبرغ ركضتُ إلى هافل، طريقِ الأمم، المؤدي إلى المعسكر.

من حولي صارت طبيعةُ الخريف موحشة، نخالُها طبيعة الأمس فيما هي طبيعة الحاضر، ولا شيء غير الحاضر. أفكر في عيون جدتي، فمن يدري، فلعلها جابت هذا المشهدَ في مساء يوم ١٣ تشرين الثاني. هل وسعها من الوقت أن تشهد نهاية رحلتها، وأن تتمعّن في خريف براندنبورجوا، بِلونِه الرمادي، البنيّ الأصفر، وفي أوراق أشجار البتولا الصفراء وهي تتدلى من فروعها مثل أعلامٍ صغيرة ملونة؟

بعد مسيرٍ طويل صارت بحيرةُ شويدسي تلمع عن يميني، بسطحها الساكن العاري. وفجأة إذا بمبنى القائد ينتصب أمامي.

من أول نظرة ألقيها من خلال بوابة المعسكر، أرى المكان فارغًا، والساحةَ خاليةً من ثكناتها، والحصى الأسود، وأوراقَ الشجر بلون الصدأ، وشوارعَ المعسكر النظيفة، والممرَّ المنعزل المحفوف بالحور.

ساحة النداء بدت أصغرَ مما تخيلتها، وتكاد تكون مرئية من أول وهلة. كنت أراها وأنا طفلة أنصتُ لروايات جدتي، حقلاً واسعًا ممتدًا حتى الأفق، عالَمًا من الأسْرِ والموت.

أحومُ حول الفضاء الفارغ المسطح حيث المقصف. المرافِقُ الصحية المهيأة للاستقبال وقد صارت اليوم فضاءً معشِبًا، ومطبخُ السجناء، وساحةُ النداء التي

Twitter: @ketab_n

صارت اليوم أرضًا يملؤها الحصى. وفضاءُ الثكنات الذي لم يبق منه اليوم سوى فضاء عشبي. والأجنحة من ٥ إلى ٧ كما هو مكتوب على اللوح. والجناح ٦، جناحُ السياسيين، شبَحُ كتابات جدتي، الذي يقع في الوسط، من خلف شجر الجير الذي لم يكن هنا في تلك الأثناء. وجناحُ اليهود، الجناح الحادي عشر، إلى جانب الجناح الثاني عشر، في واجهة المستوصف، من خلف المباني الصناعية ومعامل الملابس. وفضاءُ سيميننس الخفي والممنوع الدخول إليه، الخاص بالعمل النظامي، ومعسكر الرجال، ومعسكر الذين ينتظرهم الغاز. وثالوثُ الموت المبنيّ بالحجارة وقد بقي على حاله. ومبنى الزنزانات الذي أصبح الآن متحفًا، حيث تتألق أبياتُ كتاركا فوق أسماء النساء اليوغوسلافيات اللواتي قضين نحبهن في رافنسبروك. والمحرقة، وحقلُ الأضرحة، وغرفةُ الغاز وعليها الصخرة التذكارية.

تمتلئ أذناي بصدى روح جدتي وهي تحدثني. كويدنو، كويدنو، هذا ما يمكن أن يصيب الناس، تقول جدتي.

في محفوظات البيت عثرتُ على قائمة القافلة ١٣ لتشرين الثاني مساء عام ٤٣. اسمُ ورقم شارة جدتي، وأسماء الجارات، بَوْلا مالوفيرسنيك، وأسماء فلاحي عائلة بغرين، وأسماء نساء من عائلة كاخ، ماريا وآنا روتر، وأسماء بولنديات، ويهوديات، وامرأة تشيكية. ووجدتُ لائحة الوافدات في يوم ٣٠ تشرين الثاني عام ٤٣، اليوم الذي أقتيدت فيه ميسي إلى رافنسبروك. لقد أقتيدت في نفس الوقت مع ٦٤ امرأة عبر لايبزيغ، في قافلةٍ خاصة إلى فورستمبرغ، نقلتْ أشخاصًا محبوسين احتياطيًا بسبب اكتظاظ سجن مركز شرطة لايبزيغ. ومعها نساء من ليكوف، ودنجبروبتروفسك، وكرونو، وكراسنودار، وكورسك، وغلوشو وكارلسباد، ووُورزان، وكالينينغراد، وبراغ وإبينسي، وفيينا، وبورتشاك، وإبرياش. ونساء من ليبينا، ومن كوبراين ووايديش، وماغدالينا وكوليش، ومُزارِعة ضيعة موزغان، ماريا بول وابنتها

Twitter: @ketab_n

أماليا بول، وجوانا غروبنليك ديبرياش. وفي كتيب المجموعة ١٦ وجدتُ مالْكا التي أُسكِنت مع البولنديات.

في رافنسبروك التقتْ نساءُ الوديان بنساء أوروبا قاطبة، وقد جُرِرْنَ جرًّا من حدود كارينثيا إلى أحد مراكز الحرب التي تتقاطع فيها حيواتُ الأوروبيات اللواتي جِيءَ بهنّ إلى بؤرةِ الموت من كارينثيا المنعزلة. تُرى، ما الذي تشترك فيه نساءُ الوديان مع البولنديات، والتشيكيات، ويهوديات إيطاليا، ورومانيا، والمجر، ومع الفرنسيات، والبلجيكيات والروسيات والأوكرانيات والغجريات والكرواتيات، والليتوانيات، ومع النمساويات، وألمانيات مناطق الشرق، ومع النرويجيات والصربيات والسلوفينيات والهولنديات والدنماركيات. وأي حديث يمكن أن يَخُضْن فيه، من هذا المكان الذي اعتدن فيه قواعد الحرب؟ أميلُ إلى الظن بأن نساء المعسكر أقدرُ على سرد المزيد من الأشياء التي تُوحّد بينهنّ، ممّا يسع الأعمالَ الوطنية أن تصفه أو تفكر فيه.

أغادر أرضَ المعسكر. وما من شعورٍ بالراحة أحسستُ به عندما تركتُ باب القائد ينغلِق من ورائي. وما من تنهيدةٍ، وما من تعزية. إنه المكان الذي كان نشِطًا في روح جدتي، في المجال المغناطيسي الذي كانت تعيش فيه، وتحدّد منه وِجهتها. المكانُ الذي كان يُعرّفها لذاتها ويستحوذ على أحاسيسها. وأخيرًا تلاشى الشبحُ من على ظهري، مثلَ تجلٍّ يتوارى، وسطح عطوبٍ تنهار حوافُه، ويُظلمُ من تحته التاريخُ الذي ترِنُّ فيه قصصُ جدتي، مثل صدًى حقبةٍ ولّت ومضى عليها زمن طويل.

حلّق ملاكُ التاريخ من فوقي. وأسقَط جناحاهُ ظلالاً على أرض المعسكر. لم يسعني أن أرى وجهَه المرعب في العتمة، وخِلتُ لوهلةٍ أني سمعتُ ضربات جناحيه، مثل هَبّةِ ريحٍ في جناحية الملائكيّين اللذين تشابكت فيهما عواصفُ القادم من الأيام.

جاءت لحظةٌ أحسستُني فيها مثل طفلٍ يركض هربًا من الزمن. زمنٌ ينساب من

Twitter: @ketab_n

ورائي مثل نهرٍ جليدي غير مرئي، بطيء وثقيل، ينساب فوق كل ما حدَث عبر الزمان. ومن تحته يطمُر ويسحق ويُحيل إلى رمادٍ كلّ ما بدا ثابتًا بلا حراكٍ. ومع كل خطوة أغوصُ في الحاضر أكثر فأكثر، وأصطدم بنفسي وألطم نفسي، وأستشعر صوتي، صوتَ امرأةٍ أعرفها، صوتًا لم يطفُ منذ زمن طويل من ركامِ عباراتي، صوتًا ظل عاكفًا في الظل.

لعل ملاكَ النسيان فاته أن يمحوَ من ذاكرتي آثارَ الماضي. لقد عبَر بيَ بحرًا عليه بقايا وشظايا عائمة. جعَل جُملي تتصادم مع أنقاضٍ وحُطامٍ حملتْها المياهُ لكي تصاب بالجروح، ولكي تُشحَذَ وتُسنّ. لقد محا في النهاية صورةَ الملاكِ المعلّقِ فوق سريري. هذا الملاكُ لن أراه ثانية، وسوف يختفي في الكتب. وسوف يصبح مجرد حكاية.

Twitter: @ketab_n

بعد سنوات عادت جدتي إلى منامي مرّة أخرى. لم أكن أنتظرها. لقد شعرتُ أني بوغِتُّ بها على حين غرة. رأيتُها جالسةً على درب الغابات خلف منزلنا. وبالصوف التي غزلَتْه نسجَتْ قببًا في شكل أقماعٍ تبدو كأنها شجيرات من الخلايا العصبية، تصطاد بها الأصوات. نقول أن بعض الأصوات دخلت في شباكها فعلاً. حسبنا أن نُصابر وألا نفقد الأمل. فالأقماعُ المغزولة بالصوف أكبرُ منها. وأقتربُ منها، وبإشارةٍ من يدها تُفهِمني جدتي أنْ لا أُحْدِث ضجيجًا، وإنْ فعلتُ فبصوتٍ خافت، وإلا فلن أَسمع شيئًا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

"في المعسكر كان الخبزُ هو كلُّ ما يمكن أكلُه، وليس أكثرَ منه غذاءً، قالت جدتي وهي تشيرُ بالإبهام والسبابة إلى حجم قِطع الخبز الموزَّعة على السجناء. وكان هذا الخبزُ كافيًا ليوم واحد، وليَومين اثنين أحيانًا. وبعد حينٍ لم نعدْ نملك الحقَّ حتى في هذا، تقول جدتي، ولذا صار الخبزُ يبدو سرابًا."

ملاكُ النسيان قصةٌ ترويها طفلةٌ بريئة جَمعت تفاصيلها من جدتها التي نجت من معسكر اعتقال رافنسبروك. فهي تُدخلنا في عالم لا نكاد نصدّقه، لكنه عالم كان ولا يزال حقيقيًا. عالمُ سلوفينيّي كارينثيا الذين يتأرجح مصيرهم عند حدود عالمين حُرموا من انتمائهم إليهما.
فبكل رقّة حسّها الشعري تصف لنا مايا هادرلاب من خلال شخصية الجدة، تجارب الرجال والنساء والأطفال، وصفًا يجعلنا نشعر وكأننا نعرفهم جميعًا على الرغم من أنهم يحملون أسرارًا ثقيلة.

"مايا هادرلاب كتبت رواية هائلة.... الجدة التي لا مثيل لها، والوالد الفقير المرير الذي لا مثيل له، والاموات الذين لا مثيل لهم، والطفلة التي لا مثيل لها." *Peter Handke*

الرواية الفائزة بجائزة "Ingeborg Bachman" الألمانية

جائزة يرونو كرايسكي

ISBN 978-91-87333-33-0

دار المنى